معهد الانماء العربي

تكوّن الكتاب العربي

د. فرنسوا زبّال

الدراسات الانسانيّة

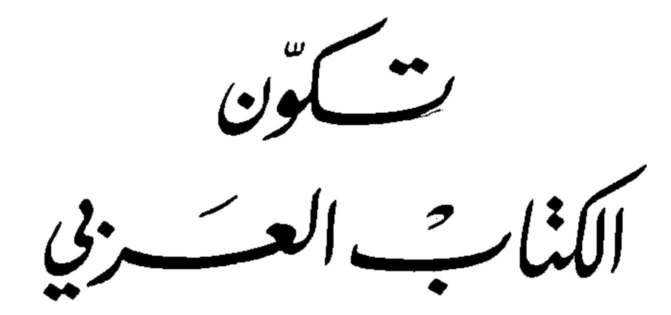
تحديث اللغة العربيّة

تكـوّن

الكتاب العربي

الدراسات الانسانيّة

تحديث اللغة العربيّة



تكوّن الكتاب العربي

د. فرنسوا زبّال

معهد الانماء العربي



معهد الانماء العربي

المركز الرئيسي : ص.ب : ٨٠٠٤ طرابلس - ج.ع.ل.
فرع لبنان : ص.ب : ١٩/٥٣٠٠ بيروت

الطبعة الاولى بيروت — ١٩٧٦

« ان ما يقوله الكتـاب آت مـن صمت معين : وظهوره يفترض حضورا للامقول هو عادة يعطيها الكتـاب شكلا او مضمونـا يقيم عليه صورة » – P.Macherey ص ١٠٥ .

ان تاريخ ظهور الكتـاب العـربي هـو تاريـخ لتهيؤ حيز اجتماعـي احتضن شيئا جديدا سمي الكتـاب . وهذا الأخير ليس ايديولوجية خالصة . وادراك جدة الحـدث كان يتطلب تحليلا لما كان يعين موضع الكتاب ووظيفته من خارجه . ولما كانت المصادر التي عدنا اليها غير كافيـة لانجاز هـذه المهمـة اقتصرنا على رسم الاتجاهات العامة للظاهرات التي حكمت تكوّن الكتاب .

لقد كان القرن الثاني فترة التقاء اشكال معرفة عديدة حاولنا ان نلـم بها متوقفـين خاصة عند النشاط « المعجمي » الذي فيـه تم البحث تقليديا عن اصول الفروع المختلفة للمعرفة عند العرب . ثم اننا حاولنا ان نلم بأولى تحولات المعرفة منطلقين من نهاية هذا القرن .

لقد رافق النشاط « المعجمي » شكلا معرفيا ادخل الى الفترة اللاحقة ونجده في المؤلفات الفقهية . الا اننا اقتصرنـا عمـدا على اطار « المعجمية » . (١٩٧٢)

القسم الأول
سيرورة التمركز

١ ــ مقدمة

٢ ــ التمركز في شبه الجزيرة العربية

أ ــ التنوع الاجتماعي
ب ــ التنظيم الاجتماعي عند البدو ــ ممارساتهم القضائية
ج ــ الممارسات السياسية ــ القضائية في الاسلام
د ــ مؤتمر اذرح

٣ ــ التمركز الاموي

(١) الجيش
(٢) الادارة
(٣) السلطة السياسية
(٤) الاقتصاد

٤ ــ التمركز في المقاطعات الشرقية

أ ــ المعارضة العربية في المدن .
ب ــ المعارضة الايرانية .
ج ــ تبعثر المعارضة واعادة تجميعها .

٥ ــ خاتمة

- ١ -

مقــدمة

لم نسع فيما يلي الى ان نؤرخ للقرنين الاولين للهجـرة علما بأن هذه المحاولة الضرورية هي الوحيدة التي تسمح بتحليل ظهور الكتب العربيــة في قلب الممارسات التاريخية الخاصة بالاسلام .

لقد قمنا بتتبع اثر ونظمنا حوله العناصر المختلفة التي بدت لنا حاسمة في عملية ظهور شكل جديد من المعرفة في القرن الثاني للهجرة . ومهما بدا طــرف الخيط هذا فرضيا فانه يستطيــع مع ذلك ان يكون دليــلا لبحث تاريخي حول المؤسسات والاجهزة ومختلف الممارسات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .

يمكن استشفاف ذلك النشاط الادبي الخاص والمسمى « معجميا » في محــاولة التمركز التي قادتها السلطــة الاسلاميــة . فهو يعين مكانهــا ووظيفتها ويحدد نطاقها ويثبت نقاط ترابطها بصراعات العصر المختلفة .
ان تأريخ تمركز الدولة الاسلامية هو تأريخ تطور الممارسات المؤسسية المدوّلة تطورا غير متساو ، وهو تأريخ التفاوت في انماط التوترات والمعارضات بين سلطة تريد الهيمنــة وحركات استقلالية لا تقهــر . « المعجمية » هي احدى لحظات الصراعات واحد مستوياتها لكنها في الوقت نفسه تعين نشوء انتظامات ارتقت بسرعة الــى عملية تمأسس ناشطــة . اذن ليس الكتاب انعكاسا باهتا لواقع خــارجي مندمجــا في صلات ايديولوجية قد تكون له المجال المفضل ليس الا .

يعيد ظاهريا الفتح العربي بسرعته الخاطفة نمطا من التدخل كان شائعا في التاريخ : هجمة « البرابرة » البدو على امبراطوريات متقدمة في تمدنهــا ،

وينتج عن غياب تنظيم سياسي وادارة وغيرهما عند الفاتحين ، عدم تحقيق السيطرة التامة الا بتحولات تصيب التكونات الاجتماعية الموجودة . من هنا تطور حركة متناقضة تعمل على تفكيك البنى التقليدية نسبيا وجزئيـا وعلى اعادة تمحورها حول السلطة الجديـدة . اما نحـن فسنقوم بوصف هذا النمط المزدوج من التفكك واعادة التمحور وكذلك العقبات التي واجهها .

- ٢ -

التمركز في شبه الجزيرة العربية

أ ـ لم تشكل شبه الجزيرة العربية كلا متجانسا عشية ظهور الاسلام، ولم يكن للتنظيمات القبلية المختلفة الوظيفة الاجتماعية والاقتصادية نفسها.

١ ـ في مجتمع جنوبي شبه الجزيرة مثلا كان هـذا التنظيم متمفصلا على جهاز الدولة المسيطر . ان وجود انشاءات مائية كالاقنية وسد مأرب كان يجيز تمركزا مستمرا في الارض رافقته تمايزات في قلب البنى الاجتماعية بين الفلاحين وبين مالكي الاراضي (١) .

٢ ـ على حـدود العراق وسوريـة الصحراويـة كوّن اللخميـون والغساسنة ممالك تابعة للامبراطوريتين البيزنطية والساسانية .

٣ ـ اما في وسط الجزيرة العربية فقد كانت القبائل البدوية منظمة في جماعات ، لكن قسما منها مركزه مدن الحجاز كان قد اغتنى بفعل التجارة وذلك في نهاية القرن الرابع للميلاد على اثر زوال دولة جنوبي الجزيرة .

لقد كـان الاسلام محاولة توحيـد تتم بين القبائل رغم وضعيـاتها الاقتصادية ـ الاجتماعية المتنوعة (استثمار الارض ، النشاط الرعـوي ، التجارة وغيرها . .) فانتهى الى بناء نواة لدولة تسيطر عليها فئة اجتماعية حجازية اسست ايديولوجية دينية وممارسات اجتماعية مختلفة عن تلـك التي كانت سائدة في سائر القبائل وذلك بغية جعل سيطرتها مستمرة .

---

(١) راجـع Rodinson — L'Arabie , pp 17 — 18
Mahomet , pp 41 — 45

لكن سلطة الدولة لم تتمكن خلال السنة الاولى للهجرة من التوصل الى هيمنة كاملة اذ اصطدمت بصراع دائم اما من قبل قبائل عربية او من قبل فئات جديدة تم اخضاعها في البلدان المحتلة . وهكذا فان عملية انشاء اجهزة دولة متمركزة لم تنجح في ادماج العناصر المختلفة ولا الحد من الممارسات التي كانت تهدد نشاطها بصورة كاملة .

ب ـ اما السمات المكونة للتنظيم الاجتماعي في القبائل البدوية فسوف تتلقى اعنف الهجمات من السلطة الاسلامية الناشئة ، اذ انها شكلت اشد المظاهر خطرا على سلطة كانت تظهر ارادتها في التمركز وفي الهيمنة . هذه المظاهر هي : الغزو ، على الصعيد الحربي ، واقتسام الغنائم بالنسبة للضريبة ، والهجاء والمفاخرة على صعيد الشعر « السياسي » ، وبعض الممارسات القضائية مثل الثأر . لكن الهجوم سوف يكون مختلفا بالنسبة لكل مستوى دون ان يتوصل مع ذلك الى ازالة الممارسات كلها فيستبقي من بينها على ما يكون لمصلحة السلطة .

ولا بد اولا من اعادة وضع هذه الممارسات ضمن البنى الاجتماعية الخاصة بالقبائل البدوية . لقد كان المجتمع البدوي مكونا من وحدات اجتماعية عديدة ، صغيرة ومستقلة . وكان غياب فائض انتاجي بسبب الاقتصاد الرعوي القديم يمنع ظهور تقسيم العمل وتكون طبقات مغلقة وظيفية سياسية ـ دينية (٢) . وفي مجتمع كهذا كان يستحيل وجود سلطة سياسية منفصلة عن المجتمع المدني كما ظلت الصلات فيما بين التجمعات البدوية (القبائل والعشائر) تتناوب فيها التحالفات والحروب .

والحرب ، في شكل الغزو المستمر ، كانت نمطا من التدخل غريبا بكليته عن حرب السيطرة ، فكان وضع اليد على غنيمة هو هدفها وحدّها في آن معا . ولم يكن الغزو يستتبع على الاطلاق خضوع قبيلة ما لاخرى

---

(٢) « ان المجتمع البدوي يسير نحو المجتمع الطبقي ، لكنه لم يصل بعد . فالعبد لا يغلّ دائما ولا عادة اكثر من كلفة اطعامه . ان فائض انتاج الرجل ، بما يتعدى ما يحتاج اليه للاستمرار في البقاء ، هو عامة غير ثابت وغير منتظم » ـ M.Rodinson—L'Arabie ص ٢٢ ـ لا يمكن اذن لمطلق شكل من اشكال الاستغلال الاقتصادي من ان ينشأ في قلب القبيلة ولو بواسطة الاستعباد ، وذلك على عكس ما يطرأ اثناء احتلال الارض كما في جنوبي الجزيرة العربية .

بشكل مستمر (٣) . في هذا الاطار ظل موت الانسان عرضيا (٤) فكان الوقوع في العبودية مفضلا على اعتبار انه شكل من الغنيمة فيما يتعلق بالنساء والاولاد ، ووسيلة تبادل في حالة الرجل . « الا ان ظروف الحياة البدوية لا تسمح باستعباد دائم ومراقب ومنظم كما هي الحال عند الحضر ، من هنا كثرة التحرير الذي يبقي على صلة الولاء بين العبد وسيده السابق » (٥) .

وهكذا فان عدم وجود فائض انتاج يمكن انتزاعه من المنتجين المباشرين كان يمنع ظهور جهاز سياسي يكون اداة سيطرة في يد طبقة ما (٦) . والى جانب ذلك كانت تستتبع قوة اكبر القبائل اشكالا معقدة من الاحلاف المستمرة الى حد ما (٧) . وكان هذا النموذج من العلاقات ينشأ ايضا على الصعيد الفردي فيأخذ شكل حماية تعطى لفرد لا ينتمي الى مجموعة وهذا هو الولاء الذي قد يؤدي الى تبني القبيلة للفرد تبنيا كاملا (٨) .

وعلى مستوى آخر ، لم تتكون ملكية فردية خاصة في المجتمع البدوي. فالملكية الوحيدة المعترف بها كانت الملكية الجماعية للاملاك المنقولة (القطعان ...) وشملت هذه الملكية ايضا مناطق محددة للصيد والارعاء وهي تعرف بالحمى (٩) . فلا يمكن ، دون تشويه للحقيقة ، الادعاء بوجود ملكية خاصة على صعيد الملكية الاقتصادية والملكية الادبية والحق القانوني .

ان زمن الحرب ومداها لا يستمران بل تقطعهما فترات من السلام لا تنتهك . شهور اربعة وعدة اماكن التجاء (هي اماكن التجارة الموسمية مثل عكاظ ومكة) توقف الحرب المستمرة وتعيد توازنا مؤقتا ومختلا بين الاضرار

---

(٣) E. Tyan — Institutions, p. 46

(٤) Rodinson — Mahomet , p. 34

(٥) Rodinson — Mahomet , p. 35 , Arabie p. 23

(٦) هذه على الاقل حال القبائل البدوية في الجزيرة العربية .

(٧) المرجع نفسه ــ الفصل الاول ــ القسم الثاني .

(٨) Tyan المرجع نفسه ص ٢٣ وما يليها .

(٩) « فيما يتعلق بالملكية الفردية لم يستطع العرب في الجاهلية مطلقا ان يرتفعوا عن مفهوم الحمى وهو نوع من ادخار مخصص لبعض المعابد وقد يكون احد الاسياد المتنفذين انشأه لمصلحته الخاصة .. وكان اسم الحمى يعطى من باب التوسع للمراعي التي تملكها القبائل الكبيرة .. لكن هذه الفكرة لم تكن لترتفع فوق الملكية الاقليمية الجماعية الوحيدة التي عرفها البدو » . Lammens — Mo'âwia, p. 225

والتعويضات . ولو بدت الحرب انها تتوقف عند حدود هذه الامكنـة وهذه الفترات الدينية فيمكننا مع ذلك التساؤل عما اذا كانت تستمر فـي الحدة نفسها لكن بشكل آخر هو شكل الشعر الذي تتناوب فيه موضوعات المفاخرة وموضوعات الهجاء . وعند انتهاء السوق كان الشعراء يجتمعون على ظهـور جمالهم او على مكان مرتفع (المنبر) (١٠) لالقاء قصائدهم بصوت عال، وهذا دون شك شكل ظاهر لاستمرار الحرب (١١) .

لم تغفل السلطة الاسلامية الناشئة عن الشعر فهددت بقطع لسان من يهجو من الشعراء (١٢) . فكانت بذلك تظهر ارادتها في التقليل من اشكال الصراع القبلي التي كانت تهدد هيمنتها .

الممارسات القضائية

ان غيـاب سلطة سياسية مستقلـة له نتائج هامة مـن حيث شكـل الممارسات القضائية . هذه الاخيرة لم ترتبط بسلطة فوق الاطراف المتنازعة. والحكم ، عند اللجوء اليه ، لا يقوم سوى بترؤس المساومات الهـادفة الـى تعويض ضرر لاحق . انه حامل الذاكرة الجماعية فقط ولا يملك اية وسيلـة لفرض تنفيذ حكمه على فريق ما . انه لامر ذو دلالة ان تأخذ محاولات انشاء سلطة سياسية في القبائل « على عاتقها مساعدة الضعيف في وجه القوي وان تعيد الى ضحية الظلم ما يسلبه اياه الظالم » (١٣) لكن هذه المحاولات بـاءت بالفشل (١٤) . فالحكم موجود فقط للتذكير بتعاليم العرف التنفيذي ، ويعود

---

(١٠) في الاسلام للخليفة وحده او لممثله حق التكلم من على المنبر الذي ادخل مذ ذاك في المسجد ـ وسوف يمهد الخليفة لهذا المكان الجديد بشكل لا يكون فيه لمنـاجاته مـن مجيـب .

(١١) اقتصر Goldziher في التشديد على الهجاء فقط : « كان يشعل الحرب بين القبائل ويغذيها فكان عنصرا مساويا في الاهميـة وربما فاقت اهميتـه العمليـات العسكرية » Lammens — le siècle, p. 219

(١٢) « شن عمر حربا قاسية على الهجاء وهدد بقطع لسان من ينظمه من الشعراء » . المرجع نفسه ص ١٢٩ .

(١٣) Tyan — Institutions, p. 74

(١٤) « لم ينتم الحكم الى طبقة مغلقة معينة ، وكانت القبائل حـرة في ان تعين حكمـا مطلق وجل يقع اتفاقها عليه » Schacht — Esquisse, p. 10

للفريقين قبول الاتفاق او رفضه وفق توازن القوى الموجودة (١٥) .

لقد قيل في هذه الممارسات القضائية انها عملية « ثأر لا اكثر ولا اقل » (١٦) لانعدام صلتها بمرجع قضائي اعلى وبقواعد مقننة . لكن هذه النظرية تستخدم مقولة سيكولوجية تفترض مسبقا انه لم يكن قبل ظهور المؤسسات الا حالة دائمة من الفوضى كانت المشاكل تحل فيها دون اي منطق . ولقد اشارت دراسة ل. جرني (١٧) في سير الممارسات القضائية في اليونان القديمة الى ان هذه الممارسات كانت تخضع في المجتمعات البدائية الى طقس منظم بدقة . وهذه هي الحال في المجتمع البدوي دون شك .

لم يفرض التعويض وكيف يتم ؟ ليس اصحاب الحق (الموتور او ولي الدم) هم من لحقهم ضرر ما في جسمهم او في املاكهم ليس الا ، بل هم القبيلة بكاملها التي تجد نفسها متضامنة مع احد افرادها . ويمتد هذا التضامن بالتالي الى كل الذين في حمايتها ــ الموالي والحلفاء ــ . هنالك صلة وثيقة بين هذا الطابع الجماعي لطلب التعويض وبين المفاهيم الدينية من « فضيحة » و « عار » . ولدى حصول جريمة يقع العار (١٨) على كل الاقرباء حتى يؤخذ بالثأر ، والضحية لا تستريح وتبقى نفسها في الظلمات ما لم يثأر لها (١٩) . الكدر العميق يصيب عالم الاحياء وعالم الاموات على السواء وهذا

---

(١٥) وغالبا ما يتم اختيار الكاهن كحكم . « وبقصد امتحان مقدرته كانت الاطراف المتنازعة تجعل الحكم يتكهن سرا متفقا عليه ، مثلا شيئا مخبأ وكذلك المكان الذي وضع فيه . وكان للحكم ان يقبل او ان يرفض البت في هذا النزاع او ذاك . واذا قبل توجب على الفرقاء ان يقدموا كفالة اما عينية او شخصية لضمان خضوعهم لقراره ، ان قرار الحكم ، الذي كان نهائيا ، لم يكن حكما تنفيذيا (كان يجب ذكر ضمان تنفيذه في الكفالة) بل رايا قانونيا في موضوع مختلف حوله (...) » . المرجع نفسه ص ١١ .

(١٦) « الثأر في طبيعته الجوهرية وفي مبدئه الاصلي ليس عمل قضاء موضوعي : ليس هدفه تحقيق تعويض لظلم لاحق او محاولة تثبيت الامن الاجتماعي ، ان هدفه تحقيق ازالة عداوة مادية ومعنوية في آن معا » ــ تيان ــ المرجع نفسه ص ٥٢ .

(١٧) راجع فكرة « ما قبل القانون » prédroit في :

L, Gernet : Anthropologie de la Grèce archaïque — Maspero 1698

(١٨) وفضلا عن ذلك فالاخذ بالثار يشكل واجبا اخلاقيا ودينيا ايضا وهو واجب ديني اكثر مما هو اخلاقي اذ انه قسم من ديانة العرب » .

« ان الذي لا يأخذ بالثأر يلحقه العار وهذا العار يعود ايضا على العشيرة فتضطر الى القيام بالواجب الذي تخلى عنه الفرد المعنى » . المرجع نفسه ــ ص ٥٣ ــ تيان.

(١٩) المرجع نفسه ص ٥٣ .

دون شك يعطل مؤقتـا جميع النشاطات الاجتماعيـة والشعائرية « كـانت النائحات يحجمن عن مظاهر الالم لحين يؤخذ بالثأر » (٢٠) .

وهكذا فان تعويض الضرر ليس له مطلق صلة بمفاهيم « الامن العام » (او الاجتماعي) (٢١) بل بافكار دينية تتعلق باختلال توازن الامور ، لذلـك تأخذ شكل تعويض منصف (٢٢) او تجاوز يبقي على حالة اختلال التوازن او ايضا شكل تفاهم ينجرف وراءه احد الاطراف بسبب ضعفه (٢٣) .

ج ـ تطورت السلطة الاسلامية الناشئة على قاعدة صراع حـاد ضد الممارسات القضائية ـ السياسية الموجودة . فقامت برد عسكري وقضائـي واقتصادي (٢٤) كان بدايـة تدخل دولـي نكتفي هنا بالاشارة الى نقـاطه المركزية :

---

(٢٠) « يقسم بحرمان النفس من كل لذة ، ومن كل شراب مسكر ، ومن اللحم والعلاقات الجنسية والعطور وامور النظافة والالعاب والغزل ، ما لم يتم الاخذ بالثأر ويؤدى القسم احيانا امام الاصنام . وطـالما لم يوفّ بالواجب فـان شرب الخمـر ومقاربـة امراة ، الخ .. تعتبر حراما » . المرجع نفسه ص ٥٥ ـ ٥٦ .

(٢١) تجر محاولة اسقاط فكرة النظام العام على هذا الوضع حكما نصدره بشأن الفوضى، وتبدو الفكرتان غريبتين عن هذه الممارسات القضائية .

(٢٢) « عندما يرتكب مولى او شخص صريح ، جريمة او جنحة اقل خطورة ونظرا لمـا يراه العرف العربي القديم في ان قيمة الذي يثأر منه يجب ان تكون على الاقل مساويـة لقيمة الضحية ، لا يعتبر الثأر من مولى تعويضا مرضيا » . المرجع نفسه ص ٣٠ .

(٢٣) وعندما تكون القبيلة المطالبة بالتعويض ضعيفة ينشأ طقس يميـل الى ابطـال آثـار اختلال التوازن . راجع ـ رمي السهم ـ تيان ـ ص ٥٦ رقم ٣ .

(٢٤) لسنا في صدد تحليل نشأة الواقعة الاسلامية بل ادراك المنحى العـام للممـارسات الجديدة التي طورها المسلمون الاوائل ونرفض هكذا الا نرى في الاسلام سوى توفيق ديني هو ثمرة صلات المسيحية باليهودية والوثنية العربية . الاسلام هـو بالاحرى ثمرة الصراعات التاريخية المادية التي تكونت ضمنها الامـة الاسلامية . لقد لعبت الايديولوجية الدينية التوحيدية بالطبع دورا اساسيا بمدى ما لحمت الصلات بين افراد كانوا ينتمون الى جماعات متعارضة . لكن جل ما فعلته هو انها الحقت نفسها بنزاعات كانت بدأت ترتسم ، وعجلت في تفجرها . حسب رأي م. واط Watt في كتابه **محمد في مكه** و **محمد في المدينة** ، ان التماسك الداخلي للقبائل العربية بدأت تطرأ عليه تفسخات هامة بسبب التحولات الاقتصادية لمدن الحجاز . ويكـون هذا اثرا « للانتقال من الاقتصـاد البـدوي الى اقتصاد التجـارة الكبيرة » (مكـة ص ١١٠) . يبقى مع ذلك ان هوة كبيرة كانت قد نشأت ضمن الجماعات بين الاغنياء والفقراء . وعندما يعبر النبي في هجماته ضد الاغنياء عن الحاجة الماسة الى العدالة

(١) حاول النبي محمد وخلفاؤه ان يحلوا محــل الحرب المستمرة بين القبائل سلما داخليا قوامه الخضوع للخليفةوحربا موجهة نحو الخارج(٢٥). ولقد ضرب تحريم السلب نشاط قبائل الصحراء الاقتصادي العسكريوكان لا بد من تعويضه بحرب لم يخدع شكلها الديني المعاصرين. وبالتالي ، فان الفتح العربي قد فهم بعبارات الغزو اي وضع اليد على غنيمة حرب وقسمتها وفق عادات الجاهلية (٢٦)، وقام بهكذلك جيشموحد تحت قيادةواحدةعلى اثر الحلف بين القبائل البدوية . ويكمن عامل التغيـير في ان فئة ادعت انــه بمقدورها توحيد الجيوش وتوجيه الفتوحات واعادة توزيع الغنيمة ، فكانت بهذا تضع نفسها فوق الصراعات القبلية لكنها عجزت عن الخلاص من منطق هذه الصراعات لافتقارها بعد الى قوة مسلحة مستقلة اي الى جهاز قهر يحفظ « الامن » و « السلام » بين القبائل (وما يسميه م. واط « بوليس محمــد السري » كان المحاولة الاولى لانشاء هذا الجهاز) . اكتفت الدولة الاسلامية في البداية باخماد الصراعات وبايقاف دورات الثأر ، « وبما انه لم تكن هنــاك قوة بوليس حقيقيــة كان المنتقــم هو القريــب المعين تقليــديا لاداء هــذا الدور » (٢٧) .

(٢) ستنشىء الدولة الجديدة ضريبة جديدة دائمة وغريبة كليــا عــن ممارسات البدو . لقد كان خضوع قبيلة على اثر هزيمة ما ذا صفة مؤقتــة لكن ما ان تؤدى الجزية للفريق المنتصر حتى تعود دورة جديدة على اساس

لا ينطق بلسان الفقراء بل بلسان طبقة وسطى . فالاسلام الناشىء : « لــم يكــن « حركة الطبقة السفلى والهامشية » ، او فئة الرعاع او « الطفيليين » دون انساب قبلية آلوا الى مكة . لقد استمد قوته لا من مراتب المجتمع السفلي بل من اولئــك الذين هم تقريبا في الوسط ، واذ وعوا البعد بينهم وبين اصحاب الامتيازات في القمة بدأوا يقتنعون بأنهم دون هذه المرتبة . لم يكن الصراع بين « مالكين » و «غير مالكين » بقدر ما كان بين « مالكين » ، و « شبه مالكين » ، (**مكــة** ص ١٢٩ ــ انظر المقارنة التي يقيمها رودنسون في كتابه **الاسلام والراسمالية** بين المزدكية الشيوعية والاسلام ص ٣٩) . وبالنتيجة « يصبح وجود اعضاء جماعة واحــدة في احــزاب متعارضة ، امرا شائعا وتميل السياسة الى ان تصبح قضية افراد اكثر منها قضية جماعات » (**المدينة** ص ٧٤) .

(٢٥) « كان محمد يمنع المعارك واعمال السلب بين المسلمين ، وعليه ففي حال قبل عــدد كبير من القبائل العربية الاسلام او سيرة محمــد كان على هذه القبــائل ان تجــد متنفسا اخرا لطاقاتها » (**المدينة** ص ٦٢) .

(٢٦) راجع ابو يوسف **كتاب الخراج** .

(٢٧) رودنسون ــ **محمــد** ص ٢٦٣ .

التوازن الـذي حصل او على اساس اختلال التوازن الـذي يفرضه الغزو المعاكس . لم تكن احدى المجموعات مسيطرة بشكل نهائي او تملك وسيلة ضغط مؤسسية . لذلك رفضت القبائل التي كان النبي قد اخضعها ان تدفع الزكاة مباشرة اثر وفاته (٢٨) ، اذ كان ميزان القوى يبدو لها ملائما جدا لمحاولة التخلص من سيطرة الخليفة الاول (٢٩) . لكن ظروف قبائل الصحراء الاقتصادية لم تكن تسمح بتأسيس جباية دورية للضريبة (٣٠) لذلك كان لا بد من مصادر اخرى للثروات التي كانت شبه الجزيرة العربية تعجز عن توفيرها والتي كانت الامبراطوريات الواقعة في الشمال تنذر بها . لقد وجد الفتح العربي دون شك في تنظيم الضريبة شرطا من شروطه (٣١) ، ومع ذلك فقد تم ادراكه بشكل مختلف من قبل الفرقاء اثناء اقتسام الغنائم المحصلة في سورية وفي العراق . وكما ان القبائل كانت شديدة الحساسية لخضوع دائم لسلطة عليا فان تنظيمها الاجتماعي وايديولوجيتها لم يسمحا لها بتقبل أنشاء ضريبة دائمة . وهكذا دخل اتجاهان في صراع : الاول كان يريد قسمة الاراضي المباحة حسب الطريقة المتبعة مع الغنيمة ، اما الثاني فيكمن بما وصفته الكتابات اللاحقة في شخص الخليفة عمر الذي كان قد اتخذ تدابير تلغي قسمة الاراضي ، واسس استيفاء منتظما واستبدل القسمة بدفع اجرة . (٣٢) .

قدم دليلان لتبرير موقف عمر : من ناحية اولى اذا وزعت الاراضي لن يبقى شيء لمن سيأتون بعدهم(٣٣) ومن ناحيةثانية ان حمايةالحدوديلزمها

---

(٢٨) راجع ، Laoust — Schismes, p. 2. Tyan — Institutions, p. 148

(٢٩) لقد كان دون شك في عصيان القبائل ضد ابي بكر نموذجان مختلفان من المعارضة ، احدهما يطالب بسلطة ابي بكر نفسه او يعارضها ، والاخر يحاول التحرر من خضوع غير مقبول من وجهة نظر قبلية . ومن المبالغ فيه هنا محاولة ايجاد « حركة ردة » (لاوست المرجع نفسه ص ٢) .

(٣٠) « (...) كان السلم الاسلامي الـذي اوساه محمد بيد من حديد يحمل للعرب الازدهار في حال نمو مقومات البقاء بشكل ملائم . ولما لم يكن عدد الجمال والخراف التي تقوم الصحراء باودها قابلا لان ينمو لذلك كانت الدولة الاسلامية مضطرة لان تبسط في استمرار دائرة نفوذها » ـ (واط ـ **المدينة** ص ٦٣) .

(٣١) ان ظاهرة الفتح هي دون شك اثر لاسباب متعددة لا نحاول تحجيمها : انتقال الخطوط التجارية ـ تدهور الظروف الاقتصادية ... السببان اللذان اوردتهما هما اكثر مباشرة من هذين الاخيرين .

(٣٢) راجع لامنس ـ **معاوية (الاول)** ؟ ص ١٩٨ والجدال الذي يذكره ابو يوسف في **كتاب الخراج** بين انصار التيارين .

(٣٣) ابو يوسف ـ المرجع نفسه .

محاربون ومال ، وللتعويض عليهم لا يجب السماح لهــم بالتمركز في الارض (٣٤) . هذه وجهة نظر دولية تنذر بتملك حصري للثروات من قبل السلطــة وبتشكيل جيش يرتبط بها مباشرة .

وهكذا فان الخليفــة عمر على نقيض ابي بكر الذي كــان يوزع الفيء المتدفق في خزائن المدينة سوف يجمد هذه المبالغ وسيحول اقتسام الغنــائم شيئا فشيئا الى اجر المحاربين (٣٥) . يروي ابو يوسف ان قــد حصلت محاولة لانشاء مراتب خاصة بالمسلمين من خلال توزيع متناسب للغنائم (٣٦) يواجه عودة نفوذ الفئات القرشية التي عارضت في البدايــة النبي . يجب تقريب هذه الرواية من الحادثة التالية : على اثر هزيمة مكة على يد النبيواثناء توزيع الفيء المأخوذ من الهوازن ، آثر الرسول المسلمين الجدد على انصاره القدماء وذلك بشكل فاضح في راي البعض »(٣٧). ان الذين سوف يحاولون ان يفيدوا من سيطرة الاسلام ومن امتداده هم اخصام النبي الاوائل والذين لم تمس سلطتهم ابدا .

(٣) سوف تسعى السلطة الجديدة الى احتكار القرارات القضائيةوجعلها تنفيذية . ومع ذلك فان سير الممارسات القضائية التقليدية لن يتعثر فــي الفترة الاولى :

ــ يبقي النبي محمد على انظمة قضائية كانت قائمة في الجاهلية (٣٨).

ــ وكذلك على نظام الحكم : « أن ضآلة الادلة الصادقة التي في حوزتنا يميل الى الدلالة على ان التحكيم القديم ، وكذلك القانون العربي العرفي عامة، قد استمر مع خلفاء المدينة ، خلفاء النبي الاوائل » (٣٩) .

---

(٣٤) ابو يوسف ــ المرجع نفسه .

(٣٥) لامنس ــ المرجع نفسه . ص ١٩٨ .

(٣٦) بشأن توزيع الغنائم اخذ بعض المسلمين على الخليفة انه تصرف بطريقة واحدة دون اخذ بعين الاعتبار للاستحقاق وللسوابق وللاقدمية (في الاسلام) ، في حين كــان يجب ان يكون لهذه الامور حساب متناسب . لكن الخليفة رفض هذه الاعتبــارات (ابو يوسف المرجع نفسه) .

(٣٧) رودنسون ــ **محمــد** ص ٣٠٠ « اثر الاستيلاء على مكــة دخل القرشيون في الفئــة الحاكمة للدولة الجديدة ، وهم الذين كانوا قد اظهروا الكثير من العداء للاسلام، مما يحمل على الشك في اعتناقهم الديانة الجديدة » ــ انظر : تاريـخ الطبري ــ ــ الجزء ٣ ص ٩٢ .

(٣٨) J. Schacht — Esquisse , p. 14

(٣٩) المرجع نفسه ص ١٤ .

لكن بالرغم من ان النبي قد استعاد شخص الحكم فقد ارتفعت اهمية هذا الاخير لارتباطه بسلطة سياسية ـ دينية (٤٠) استأثرت بحقها في ان تحكم وان تراقب بفضل القوة تنفيذ احكامها . ومع هذا « لسنا بعد امام دولة ذات سلطة عليا تستطيع فرض نظام ما بواسطة قوة منفصلة عن المجتمع » . وتبقى البنية القبلية لكن وقوع الاختيار على النبي محمد كحكم يفضي الى « تبني تدابير خاصة رامية الى تحاشي سلسلة اعمال الثأر والثأر المضاد » (٤١) . لكن اللجوء الى تحكيم النبي يبقى محدودا (٤٢) .

لقد باشرت هذه المستويات الثلاثة في السنوات العشر الاولى للاسلام ممارسات انتجت عملية تمأسسها اجهزة الدولة الثلاثة : القضاء وجباية الضريبة والقوة المسلحة . لكن نمط تأسيس هذه الاجهزة اتى متناقضا بمدى ما كانت السلطة المركزية تلجأ الى هذه القوى نفسها التي كانت تقوض من امتداد هيمنتها وتحد من امكانيات تدخلها .

د ـ مؤتمر اذرح

هو نقطة انطلاق اول انشقاق كبير في الاسلام يدور الرهان الهام فيه حول شرعية سلطة الخلافة . ويدخل حل الصراع حول السلطة نوعين من الممارسات التي ميزناها . وتجري الاحداث على الشكل التالي (٤٣) :

تمت الدعوة الى المؤتمر على اثر اتهام معاوية عليا بقتل عثمان . يرسل كل فريق مدافعا هو بمثابة حكم يصحبه اربعمائة رجل يلتقون جميعا في مكان متوسط اي في منتصف الطريق بين الشام والحجاز . ويجعل معاوية عمرو بن العاص ممثلا له في حين يفرض ابو موسى عمليا على علي لانه الوحيد الذي

(٤٠) يقدم Schacht مقارنة هامة بين الفعلين حكم وقضى : « ان تخلي محمد عن طابع الكاهن استتبع التخلي عن التحكيم الوثني لان المحكمين هم غالبا من الكهنة. لكن النبي عندما كان يقوم بدور القاضي في قومه انما كان يستمر في وظيفة الحكم. والقرآن عند كلامه عن ممارسة النبي القضائية يستعمل الفعل حكم مع مشتقاته في حين ان الفعل قضى والذي منه تشتق لفظة قاضي يدل في القرآن ليس على حكم القاضي بل على امر سام مصدره الله او محمد » ـ المرجع نفسه ص ١٣ .

(٤١) رودنسون ـ **محمد** ص ١٨٦ .

(٤٢) المرجع نفسه ص ٢٥٨ .

(٤٣) لامنس ـ **معاوية** ـ الفصل السابع .

اتفق عليه مختلف انصار علي ومعاوية نفسه » (...) لم يكن أبو موسى العجوز قادرا على مواجهة عمرو الذي اعتبر الى جانب معاوية ومغيرة وزيـاد اشد الدبلوماسيين مكرا واقلهم ترددا في عصره » (٤٤) . وهكذا ينجح عمرو بوسيلة ما في تغيير وجهة المشكلة المتنازع عليها وفي ان يطرح على بساط البحث صفة علي كخليفة . وبهذه الطريقة يوضع معاوية الذي لم يكن سوى حاكم الشام في مستوى علي خليفة النبي . والقرار الحيـادي في الظاهر سوف يستبعد ادعاء الفريقين بالخلافة لكنه في الواقع كان يسلب عليا منصبا حقيقيا وهـو الخلافة ويمنح منافسه حقا وهميا لم يكن قد تجرأ على الادعاء به . واذا فقد علي الخلافة يبقى معاوية حاكم الشام .

في هذا الاجراء مواجهة بين :

١ ـ ممارسة هي من باب التحكيم الالهي ـ يلجأ الفريقان المتواجهان الى مقاضاة تحكيمية لا تمنح ايا منهما امتيازا او تفوقا على الآخر . فالمتهم ، اي معاوية ، يطالب بقميص عثمان وبتعويضات مستندا الى اواصر القربى التـي تربطه بعثمان ، فيلعب هكذا دور صاحب الحق الذي نجده في الممارسات القضائية عند البـدو . وعلي يضع نفسه في البداية في المنطـق نفسه ايضا ويدخل في مقاضاة لا تنفعه فيها صفته كخليفة . كما ان ردة فعله لدى انتهاء المؤتمر لا تختلف هي ايضا عن سير التحكيم الالهي : عندما يعتبر القرار غـير ملائم يكون للمتهم كل الخيار في رفضه فيبقى له عندئذ أن يعترض بواسطـة السلاح ويصبح توازن القوى هو الحاسم .

٢ ـ وممارسة متعلقة بسلطة تحتكر العدالة لمنفعتها . من بين انصار علي ينفصل جناح رافض اجراء التحكيم بكليته ورافض بعنف موقف علي قائـلا بانه منذ البداية ما كان يجب القبول بفكرة التحكيم اذ أن منصب الخليفـة يجب الا يتعرض له تحكيم ما :

يجيب الخوارج على محاجـة علي بأنه في الواقع كان قـد تصرف منذ البداية وفق مصالحه : « رفضت الاعتراف بالقرار فقط لانه كان غير ملائم » (٤٥) . انهم يرفضون في موقفهم هذا الممارسة القضائية القبلية بمجملها ، اذ

---

(٤٤) المرجع نفسه ص ١٣٢ .

(٤٥) المرجع نفسه ص ١٣٧ .

ان الخلافة في نظرهم سلطة لا تمس لانها متعالية وذات طابع الهي (٤٦)، فيجب الا تكون رهن التحكيم بل سلطة تنفيذية وقضائية في آن معا . وكان طرح آخر قريب من طرح الخوارج يؤكد انه « نظرا لان علي كان قد قبل بالتحكيم ، كان من المناسب ان توكل الشورى بأمر تعيين خليفة جديد » (٤٧) . لا يختلف هذا الطرح عن الاول من حيث المبدأ لانه لا يقر لكلا الفريقين بامكانية قبول الحكم او رفضه ، فهو يربطهما بهيئة يعتبر انها الى جانب كونها مؤقتة، ممثلة للجماعة ، اذن خارجية ومتعالية على فرقاء تحركهم مصالح شخصية (٤٨) .

في انشقاق الاسلام الاول نرى ان المسألة لا تكمن في التعارض القائم بين مفهومين دينيين للخلافة بل في التقاء نموذجين للممارسات حول مشكلة حيازة السلطة . ان المواقف المتواجهة تحددها حتما طبيعة المجموعات التي تدافع عنها بشغف وجل ما نهدف اليه هو الاشارة الى الحد الزمني الاقصى لممارسة سيتم استبدالها بسرعة كبيرة بنموذج دولي آخر (٤٩) .

(٤٦) « اذا انفصل الخوارج عن علي فلأن هذا الاخير بامتناعه عن الدفاع بواسطة السلاح عن سلطة هو المؤتمن الشرعي عليها انما كان يستبدل قرار الله بقرار غير اكيد صادر عن تحكيم بشري » ـ لاوست المرجع نفسه ص ١٣ ـ .

(٤٧) المرجع نفسه ص ١٣ .

(٤٨) من ناحية اخرى هناك في موقف علي ثمة التباس في قبوله بالتحكيم كاجراء ممكن.

(٤٩) يقدم لنا Laoust اشارة سريعة الى المصالح المطروحة فيقول : « سياسيا ، كان للخوارج معنى آخر ايضا . فالخلفاء الاربعة ومعاوية كانوا جميعا قرشيين . ومع الخوارج كان يتثبت حق المؤمنين في معارضة امام متهم بخطأ جسيم بل حقهم في اختيار زعمائهم بحرية ، من اصل قرشي كانوا ام لا » (المرجع نفسه ص ١٣) . يجب ان نبحث فيما اذا كان رفض الاعتراف بالقرشيين ، بحقهم في شرعية السلطة ليس ردة فعل من قبل اولئك الذين حرموا من ثمار القتال الذي خاضوه الى جانب محمد ضد الارستقراطية الملكية . « لم تكن للانصار القاب يستندون اليها الا تلك التي منحهم اياها الاسلام وتلك التي تتعلق باعتناقهم الدين الجديد وكذلك مساهمتهم الفعالة في انتصاره النهائي ولم يستحسنوا وصول عائلة وعشيرة كانوا قد حاربوها طويلا كانصار الى الحكم ويمكن القول ان هذا قد اثار حفيظتهم » . Tyan — Institutions, pp. 231 — 232

-٣-

التمركز الاموي

بالرغم من انتصار معاوية فان الصراع في سبيل السلطة لـم ينته بين الفئات المؤيدة لعلي وفئات الخوارج ، بل سيخضع مع تقوية السلطة المركزية نفسها الى تحول عميق . وهكذا ، فان تاريخ «العصر الاموي» هو بمجمله تاريخ الصراعات المستمرة التي قادتها السلطة المركزية بغية بسط هيمنتها وتقوية دعائمها . وستوجه المعارضة هجماتها انطلاقا من مقاطعات محاذية لحدود الشام (العراق ، ايران ، الحجاز ، وافريقيا) ، وستعمل على تعبئة قوى اجتماعية متنوعة تكون احيانا معزولة واخرى متحالفة ، وتختلـف مصالحها وهدفها واستراتيجيتها على مر الزمن .

كانت القوى التي قادها معاوية على نقيض التحالف الذي جمعه عـلي اكثر تلاحما نسبيا . وكانت تتألف بشكل اساسي من قسم من الادارة المحلية القديمة ومن بعض القبائل العربية .

(١) الجيش

القبائل اليمنية هي التي شكلت نواة جيش الشام ومـن مشاركتهـا كانت تأتي كفاءة الافواج العربية القتالية (٥٠) . وكانت هذه القبائـل التـي استوطنت الشام منذ اجيـال قد تـدربت على الحرب بفعـل اتصالهـا بالامبراطوريـة البيزنطية التي كانت تعبئهـا كسوقة عسكريـة في الجيش

(٥٠) « احتلت هذه القبائل الخاضعة للامراء الغسانيين مركزا هاما في الفتح العربي : ارتدت الى الاسلام وساهمت في نجاح الجيوش العربية الكبيرة وهي المؤلفـة مـن عناصر مدربة على الحرب G. Wiet—Islam ص ٤٠ .

الامبراطوري (٥١) . وهكذا استطاعت التمرس بنوع آخر من الحرب غير الغزو المركز على المناوشات والكمائن والهجمات الخاطفة . وفي تنظيم المعارك التي خاضها البيزنطيون والساسانيون كانت افواج الملوك الاتباع توضع قرب الخيالة الامبراطورية التي كانت تشكل القوة الكبرى للجيش . ونتجت عن ذلك مميزات عديدة ميزت القبائل اليمنية عن قبائل وسط الجزيرة: انضباط اكبر وانضمام تحت قيادة واحدة مع خضوع مباشر ودائم لها (٥٢) . لذلك لم يكن هناك خطر في انقسامها اثر انتهاء المعركة وهو ما حدث لحلف علي الذي انحل اثر التحكيم .

لكن هذا لم يكن يمنع انشغالها في خصومات تقليدية . وبالتالي فان المقاطعات الشامية نفسها كانت مسرحا لحرب مدنية بين قبيلتي كلب وقيس وكان الخليفة خصما فيها فاستند الى الاولى ضد الثانية (٥٣) .

وهكذا فان الاداة الاساسية لثبات السلطة كانت هي نفسها عرضة لانشقاقات خطرة اضعفتها مع الزمن .

(٢) الادارة

استندت سلطة الامويين في الشام الى الادارة البيزنطية ، اذ ان جل ما فعله الفتح العربي هو انه استبعد الفئة العليا من الطبقة المسيطرة القديمة في البلاد المحتلة ، وكان قد ابقى على السلطات المحلية في مراكزها جاعلا منها المسؤولة عن تحصيل الضريبة وعن اخضاع السكان للسلطة . وغالبا ما كانت المراكز الاعلى في الادارة توكل من جديد الى مسيحيين من الشام وسوف نجد ايضا في عهد عبد الملك في نهاية القرن السابع للميلاد وزيرا مسيحيا للمال (٥٤) ، ويُبقي معاوية على ابن أثال المسيحي كجاب للضريبة في حمص بالرغم من الطابع الديني للضريبة المحصلة من مسلمين (٥٥) . ولقد تميزت الادارة في

---

(٥١) لامنس **معاوية** — ص ٤٦ وما يليها .
(٥٢) المرجع نفسه — الفصلان الرابع والرابع عشر .
(٥٣) Sourdel — La civilisation ص ٥٠ و ٥١ .
(٥٤) انظر لامنس — **عصر الامويين** ص ٢١٢ .
(٥٥) لامنس — **معاوية** — ص ١١ .

عهد معاوية بثبات كبير : أبقي على الموظفين مدة طويلة (٥٦) في مراكز حساسة مثل ادارة الاموال والضريبة وغيرها ... وحدها وظيفة الحاكم ذات الطابع العسكري سوف توكل الى رجال ثقة يختارهم معاوية مباشرة (وليس دائما من عائلته) .

(٣) السلطة السياسية

استمر تحت حكم الامويين عدد من المؤسسات او من اشكال التدخل السياسي التي كانت قائمة في العصر الجاهلي ، لكنها تبدو في موقع جديد بالنسبة للسلطة الحقيقية . لقد تم التأكيد بما فيه الكفاية على ممارسة معاوية للسلطة بشكل ازداد معه طابعها « الملكي » وتضاءل طابعها الجماعي ، وبدا معه ان مبدأ الشورى التي كانت تطبع مشاركة المؤمنين في القرارات راحت تختفي لصالح طغيان مستوحى من البيزنطيين سيتضاعف على مر الزمن . لكننا بهذا لا نقوم الا بوصف الاشكال الظاهرة والاشد سطحية، فيبقى ان نعرف :

ـ بحوزة من تكون السلطة الحقيقية في مجتمع (او في مجتمعات) القرن الاول للهجرة ؟ وما هي اشكال تدخل الدولة في مقاطعات العراق والحجاز حيث المعارضة قوية ؟ يبدو ان الدولة استفادت من الانشقاقات بين الفئات لتحاول القضاء عليها دون التوصل الى ذلك ، فما هي شروط السلطة التي كانت تنقصها (٥٧) . وما الذي كان يسمح بالحفاظ على البنى القبلية السياسية ــ الاجتماعية في شروط اقتصادية مختلفة عن تلك التي في الصحراء ؟ وهي ان السلطة في الشام نفسها كانت لا تزال في ايدي الادارة القديمة ؟ وما هي حصة السلطة العائدة الى الفئات المسيطرة الجديدة ؟

ـ تمت بالطبع مع معاوية عملية مركزة السلطة وتقويتها بنسبة اكبر مما كانت عليه ايام الخلفاء الراشدين ، لكن من الضروري معرفة العقبات التي اعترضت الفئة المسيطرة الجديدة بصورة كاملة وما هي الحصة من السلطة التي كانت لا تزال تنقصها لانها ظلت في حوزة قسم من الادارتين البيزنطية والساسانية القديمة او في يد فئات قبلية متعارضة أو متحالفة . ان مشاركة

(٥٦) المرجع نفسه ص ٤٦ .

(٥٧) هل هي احتكار الوظيفة العسكرية ؟ ام هي حاجة الى ادارة مركزية ؟

القبائل في ممارسة السلطة تحققت في اشكال سياسة مؤسسية الى حد ما : الجماعة ، الوفود ، والاشراف ...

ا ـ اعتبر بعضهم الجماعة شكلا من مشاركة جماعية في القرارات وذلك في زمن النبي فقيل انها نوع من « البرلمانية » او « الديمقراطية » متعارضة مع ميول الخلافة الاموية الملكية (٥٨) . لكن الجماعة لم تكن ابدا هيئة نظامية في السلطة . وفي الواقع ان امكانية المؤمنين المتوفرة في المناقشة والمشاركة في قرارات الخليفة اثناء الاجتماعات في المسجد قد اختلط معناها واصبحت تعني سلطة حقيقية في التقرير لم يمارسها المؤمنون مطلقا . هذا ما يظهر بوضوح في اجراء البيعة المستخدم في تعيين خلف للخليفة ، فقارنوا البيعة بالوصية ليظهروا انها « لا تخلق تقليدا وراثيا نافذا في المستقبل ـ اثرها الجوهري يكمن في انها تعين خليفة في الوقت الحاضر » (٥٩) ومع ذلك فليس لها طابع ديمقراطي . اما في البيعات التي حصلت قبل معاوية فقد وجدت مرحلة اولى كان الانتخاب الفعلي يتم فيها ومرحلة ثانية يتم فيها اعلام الجماعة بتعيين الخليفة فتقوم بفعل الطاعة . وفي المرحلة الاولى كانت البيعة التي هي لقب تعيين المرشح للخلافة تعتبر امرا حاصلا عندما تقوم بها مجموعة من الشخصيات لها مركز هام في الجماعة ، لانها تنتمي الى المهاجرين او الانصار ، وان كان عددها محدودا وحتى اقليا ليس بالنسبة الى المجموع وحسب بل ايضا بالنسبة الى السكان المقيمين في مكان البيعة نفسه » (٦٠) . فتعيين الخليفة اذن يحتكره سلفا زعماء الفئات قبل ان يأتي في شكل وصية بين ايدي زعماء عشيرة او احد الافراد (٦١) . ويستمر استعمال كلمات البيعة والمبايعة حتى في تسمية الوصية عندها يغلب المعنى الثاني على الاول اي عندما تغلب فكرة الخضوع (٦٢) .

ب ـ نجد نظام الوفود حتى في الفترة السابقة للاسلام . عندما كانت

(٥٨) يتكلم لامنس على « برلمانية الجاهلية » (معاوية ص ٢٠٨) وعلى « ميول ديمقراطية حادة جدا » في يثرب (المرجع نفسه . ص ١٩٤ ـ الهامش) .
(٥٩) تيان ـ المرجع نفسه ص ٢٦١ .
(٦٠) المرجع نفسه . ص ١٧٣ .
(٦١) لقد تم تأسيس البيعة على يد النبي « في الفترة المكية الاولى من نشاط النبي شكلت البيعة اعترافا برسالته الدينية ووعدا بالخضوع لتعليمه والامانة له ، اما في الفترة التالية فالى جانب الاعتراف بالرسالة الدينية شكلت البيعة كذلك وعدا بالمحاربة في سبيلها » . المرجع نفسه ص ١٤٤ .
(٦٢) المرجع نفسه ص ٢٦٤ .

احدى القبائل تقوم بعمل مأثور ترسل القبائل الاخرى الوفود لتهنئتها وللتغني بامجادها (٦٣) . لكن وظيفة الوفود ستشهد تحولا في العصر الاموي فيظهر تجمعها تتمة ضرورية للقرارات التي يتخذها الحاكم . ولا نستطيع مجاراة « لامنس » في القول ان في هذا اجراء تمت بفضله مراقبة الادارة او انه وظيفة منتظمة في تمثيل المؤمنين (٦٤) فالوفود هي على الارجح علامة استمرار البنى القبلية التي لا تستطيع الفئة الحاكمة ان تستغني عنها ، وتعمل الان على عزلها وعلى خلق مسرح لها يجب ان تمثل فيه بالضرورة وهو ما يسميه لامنس خطأ « منصة برلمانية » .

كان تنصيب ابن معاوية مناسبة لجمع وفد واخراجا مدبرا من قبل رئيس قضاة هو دهاك ابن قيس . اوكل الى هذا الاخير ان يقترح ترشيح يزيد بعد ان تمت مسبقا رشوة القبائل المناوئة . وما يهمنا في هذا الاجراء هو ان الاحتفال الذي عرفت نتيجته مسبقاكان ضروريا لتثبيت قرار كانالخليفة قد اتخذه مسبقا . فالفئة الحاكمة لا تستطيع ان تخلق امرا واقعا على غرار العباسيين فيما بعد ، فهي تحتاج الى تشاور مصطنع ، ولا تستطيع كذلك ان تحجم المعارضة جذريا ، لذلك تهيء لها مكانا متميزا هو المسجد يسمح لها بالتعبير عن رأيها ضمن حدود تختارها هي لها ». « على غرار العاصمة،كانت للدوائر الادارية الكبيرة مثل اجناد الشام وامصار العراق مجالسهاالتشريعية الريفية والمحلية فكانت تجتمع عادة في المسجد الكبير ، مسجد الجماعة، وهو عبارة عن دار للبلدية قبل ان يكون مركز عبادة . كانت تتكثف حياة المدينة والمقاطعة السياسية هنا وليس في دار الامارة المقر الخاص للحاكم » (٦٥) . الذي كان يتم هو ما ينبغي تسميته « مناقشات سياسية » بدل « حياة سياسية » لان مركز السلطة موجود بالفعل في بيت الحاكم وفي الادارة الملحقة به .

سوف يحرر انتقال السلطة هذا الكلام مؤقتا داخل المسجد وهو المكان الافضل للمناظرات الخطابية حيث ستتواجه الخطب والقصائد . وغالبا ما

---

(٦٣) المرجع نفسه ص ٤٢ — ٤٣ .

(٦٤) « علاوة على مجلس الشيوخ هذا المؤلف من الاشراف الحاضرين في مقر الخليفة فقد كان يعقد تجمع للوفود في فترات محددة ، هو عبارة عن مجالس عامة يحضرها نواب المقاطعات والقبائل . وكانت هذه الوفود مكلفة بحمل نذور ومطالب من تمثل الى مقصورة العرش » . — لامنس معاوية ص ٦٠ .

(٦٥) المرجع نفسه ص ٦٢ .

كانت المقاطعات والقبائل ترسل مع الوفود خطباء يصحبهم شعراء . المصيبة الكبرى بالنسبة لمجموعة ما هي ان تكون مفحمة ، بلا صوت وبلا شاعر يدافع عن شرفها (٦٦) .

(٤) على المستوى الاقتصادي تبدأ الدولة بالتدخل مباشرة في الانتاج باتخاذها تدابير في الري وبحفرها الآبار الخ .. (معاوية) «لم يتراجع امام نفقات حفر الآبار الباهظة واستحداث البساتين في عرفات وحتى في وادي مكة العقيم فاقام فيه السدود في وجه الفيضانات المفاجئة الناجمة عن امطار الشتاء الغزيرة ، وبنى عيونا مع خزانات لري الاملاك المجاورة » (٦٧) وكذلك كان الامر في العراق على الفرات حيث اعاد زياد بناء السدود التي تهدمت قبل سقوط الامبراطورية الساسانية .

اما من ناحية الملك فان السلطة الاموية مثل سلطة الخلفاء الراشدين لم تستطع منع زعماء القبائل او الجيوش من وضع اليد على املاك واسعة في الاراضي المحتلة (٦٨) . قد يكون شكل التملك هذا نسخ عن العرف البيزنطي (٦٩) ، لكن تدخل الدولة اداريا وقضائيا ، وهي المالك الوحيد في الاساس ، لم يتم تحت حكم الامويين بشكل منتظم ومنهجي . ان ما يعترف به بعض القضاة من حق تملك وحراثة ارض مهملة يمثل موقف سلطة الدولة بمحاولتها التعدي على كل مالك فردي ومراقبتها عن كثب مختلف مصادر الثروات (٧٠) . هذه ايضا احدى العقبات الكبرى في طريق هيمنة الامويين .

---

(٦٦) المرجع نفسه الفصل الثالث عشر — الشعر السياسي .

(٦٧) المرجع نفسه ص ٢٤٣ .

(٦٨) R. Mantran — L'expansion musulmane , p. 139 .

وبلاشير ، تاريخ الادب ، الجزء الثالث ص ٥٤٤ — ٥٤٥ — رقم ٧ .

(٦٩) بالرغم من ان مؤسسة من هذا النوع تمكنت في بساطتها الاولى من ان تولد من ظروف الفتح وان تجعل اعرافا تستمر مثل الاراضي المحتفظ بها او الحمى وذلك في آن معا فانها كانت تلتقي في الواقع بممارسة واسعة الانتشار في الامبراطورية الرومانية — البيزنطية اثرت فيما بعد على تكونها وهي الامتياز الحكري . empythéotique فالدولة الرومانية — البيزنطية كانت في الواقع تتنازل للافراد بموجب عقد مسمى حكريا ولامد طويل عن اراضي عامة ، شرط تنميتها ولهم عليها حق التصرف يبلغ حد الحرية المطلقة (بما في ذلك حق التنازل) ومع تنزيلات اميرية هامة » . C. Cahen — L'évolution de l'iqta' , p.26

(٧٠) ابو يوسف ، **كتاب الخراج** ، ان حق الدولة في استيفاء الجزية فوق حق الملكية .

- ٤ -

التمركز في المقاطعات الشرقية

كانت المعارضة قد لجأت الى المقاطعات (العراق ، ايران، والحجاز . . .) ومنها ستوجه الضربات التي ستسقط خلافة الشام . ومع اخضاع المدينتين - المعسكرين البصرة والكوفة نشهد عملية احلال السلام على حساب البنى القبلية .

كـان اتساع هيمنة الدولة يتطلب اما امكانية حـل البنى التقليديـة ومكاملتها في علاقات سيطرة واما اللجوء الى تفكيكها كاملة في حـد اقصى ويبدو ان الدولة الاموية لم تنجح لاسباب تاريخية معينـة في الوصول الـى تحقيق الهيمنة التي كانت ترمي اليها . ومع ذلك فانها قد حاولت منذ البداية استخدام ممارسات كانت تخطط لنموذج تدخل دولي واخذ عملها اتجاهين متميزين :

أ ـ معارضة عربية في مدن العراق

اذ يدخل زياد ، حاكم العراق في ظل معاوية ، منذ تعيينه في تعارض مع الفئات المناوئة المتمركزة في البصرة . ويأخذ عمله شكل استراتيجية معقـدة تحاول نسف التلاحم الداخلي بـين التجمعات التقليدية واستبدالـه بصلة مباشرة بين السلطة والفرد .

(١) التدابير القضائية : كانت ممارسات القبائل القضائية قد استمرت في المدن العراقية وكذلك شكل تنظيمها . وكانت مجموعات من اصل واحـد قد قامت باحتلال الاراضي داخل المدن فشكلت اقطاعات كان من الصعب على السلطة ان تتدخل فيها . كما ان القبيلة كانت تستمر في الانتفاع من حقها في

طلب التعويض عن ضرر لاحق بأحد افرادها فكانت تلجأ الى نداء هو الدعوة « وهي امر ، او كلمة السر ، او صرخة حرب او نداء ، مشتركة بين افراد قبيلة بكاملها . وكان على كل رجال القبيلة لدى سماعهم هذه الصرخة ، ان يهبوا للالتفاف حول المواطن المستغيث .. » (٧١) .

ويأتي رد زياد على هذا عنيفا (نورده عن الجاحظ ـ البيان والتبيين ـ الجزء ٢ ـ ص ٦٣ ـ ٦٤) : « واياي ودعوة الجاهلية فاني لا آخذ داعيا بها الا فقطعت لسانه. وقد احدثتم احداثا لم تكن وقد احدثنا لكل ذنب عقوبة: فمن غرق قوما غرقناه ومن احرق قوما احرقناه ومن نقب بيتا نقبناه عن قلبه ومن نبش قبرا دفناه فيه حيا . فكفوا عني ايديكم والسنتكم اكفف عنكم يدي ولساني . ولا تظهر على احد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم الا ضربت عنقه . (...) اني والله لو علمت ان احدكم قد قتله الشك من بغضي لم اكشف له قناعا ولم اهتك له سترا حتى يبدي لي صفحته فاذا فعل ذلك لم اناظره (...) .

ايها الناس انا اصبحنا لكم سادة وعنكم ذادة نسوسكم بسلطان الله الذي اعطانا ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا . فلنا عليكم السمع والطاعة فيما احببنا ولكم علينا العدل والانصاف فيما ولينا . فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا واعلموا اني مهما قصرت عنه فلن اقصر عن ثلاث : لست متحجبا عن طالب حاجة منكم ولو اتاني طارقا بليل ولا حابسا عطاء ولا رزقا عن ابانه ولا مجمرا لكم بعثا . فادعوا الله بالصلاح لائمتكم فانهم ساستكم المؤدبون وكهفكم الذي اليه تأوون ومتى يصلحوا تصلحوا » .

(أ) اذ يؤكد زياد ارادته في الحلول مكان اصحاب الحق في ملاحقة الجريمة يقوم بنقل الحق القضائي وهذا اغتصاب حقيقي يتم على حساب التضامن القبلي . ولا يلحق محتوى الاحكام او طبيعة العقوبة اي تغيير : ان السلطة تطالب بصوت زياد باحتكار تنفيذ العدالة .

(ب) امكانية الوصول الى زياد (« لست متحجبا عن طلب ... ») يجب ان تكون شرطا لامكانية الوصول الى العدالة وضمانة لطابعها التنفيذي والسريع . وعلى زياد ان يسمح لعدالة السلطة بأن تعالج تدخل العشائر بسرعة .

---

(٧١) لامنس ، **عصر الامويين** ص ٦٣ .

(ج) يجب ان يخفف التوزيع المنتظم للاجور من مقاومة العشائر لعملية تفككها وان يشدد من تبعيتها المالية والسياسية .

(٢) التدابير الادارية :

(أ) ـ بغية ممارسة رقابة اكبر على العشائر يستخدم زياد وسيلتين : وذلك بواسطة تدابير مباشرة تثقل كاهل زعماء العشائر وبجعلهم مسؤولين عن الاعمال التي يقوم بها الافراد التابعون لهم . فهو اذ يجرد العشائر من حقها في الملاحقة عندما يلحق ضرر باحد اعضائها يفرض عليها في الوقت ذاته ان تراقب اعضاءها عن كثب . ومن ناحية اخرى سيعيد زياد تجميع الاحياء بطريقة مختلفة فينقل مجموعات عربية يثق بها الى المدن (٧٢) ويجعل احياء البصرة السبعة اربعة احياء ادارية ، « بتعديلات ادارية خالصة وليست اقليمية ، فلم ترغم اية عشيرة او اية عائلة على ترك الشوارع او الملكيات المسورة التي سبق ان احتلتها . تجمع في الارباع قبائل من اصول مختلفة فتشكل وحدات مصطنعة لها القوة ذاتها تقريبا . ولم يعين على راسها زعماء قبائل بل مأمورون تعينهم الحكومة او توافق عليهم » (٧٣) وهؤلاء هم العرفاء الذين تلقى على عاتقهم مهمة توزيع الاجور وكذلك مال الايتام (٧٤) . ويتم اقصاء العناصر التي لا تكون اهلا للثقة فتقيم في المناطق الحدودية او تجند في سوقه عسكرية في الجيش الذي كان يحارب في خراسان (٧٥) .

(ب) ـ الى جانب ذلك سيهتم زياد بنوع خاص بتوسيع المسجد الذي « سيحجب بابعاده وروعته مساجد العشائر الخاصة التي هي مجرد اجتماعات خاصة لكنها صعبة المراقبة وغالبا ما تكون مناوئة للسلطة » (٧٦) . الهدف هو الحد من سرعة انتشار المساجد الخاصة بصفتها اماكن تجمعات وكذلك مراكز معارضة لا يمكن ضبطها ، لذلك يحظر دخولها علنا ويستدعى اعضاؤها الزاميا الى المسجد الكبير . فضلا عن هذا تستعمل جميع الوسائل لجعل هذا الاخير تحت مراقبة دائمة من حيث البناء : كان قصر الحاكم متصلا

---

(٧٢) المرجع نفسه ص ١٢٦ .
(٧٣) المرجع نفسه ص ١٢٦ .
(٧٤) المرجع نفسه ص ١٢٧ .
(٧٥) المرجع نفسه ص ١٢٨ .
(٧٦) المرجع نفسه ص ١٣١ ـ ١٣٢ .

بالمسجد واما باحته فقد نصب فيها بصورة مستمرة ستمائة من نخبة القوات.

(٣) ـ النتائج

كل هذه التدابير كانت تحمل تناقضات داخلية لم تحل ، لا سيما بسبب غياب جهاز اداري وقمعي متجانس .

(أ) ـ لم تتمكن من التوصل الى تدمير العشائر بل الى امكانية تهدئتها لفترة ما . وبالتالي فان زياد قد اضطر الى الاعتماد على قبائل معينة لتحدي قبائل اخرى ، هذا ما يحدث في قمع انصار علي في الكوفة حيث استدعيت الشخصيات الاكثر نفوذا في المدينة اي زعماء العشائر لتوقع على حكم الاعدام الصادر بحق حجر بن عدي (٧٧) .

(ب) ـ غالبا ما كان يتم اقصاء عناصر ليست اهلا للثقة باتجاه مقاطعات ايران الداخلية . وبما انهم كانوا يجندون في الجيش لذا كان بامكانهم بلوغ القوة اللازمة وتوجيه الافواج نحو السلطة الاموية . هكذا ابتدات صبغة المعارضة « الفارسية » .

ب ـ المعارضة في المقاطعات الفارسية

لم يتم الفتح العربي للمقاطعات الساسانية والبيزنطية دون اثارة مقاومات . تغيرت طرق مقاومة السيطرة العربية بمدى ما كانت الدولة الاسلامية تتحول وتصبح اشكال تدخلها في الامصار مباشرة . يمكن ان نميز في صراع الشعوب الفارسية مرحلتين (٧٨) :

(١) ما ان تمت هزيمة السلطة والجيش الساساني حتى ادت الحرب المستمرة الى احتلال مقاطعات الامبراطورية القديمة المستقلة الواحدة تلو الاخرى . واستسلام كل منها لم يكن يُحدث تغييرات كبيرة نسبة للحالة السابقة : « بل ان سكان المقاطعة او المحافظة او المدينة الذين كانوا يدفعون

---

(٧٧) المرجع نفسه ص ٩٦ ـ ٩٧ .

(٧٨) لا تشمل هاتان المرحلتان كليا الفترات التي يميزها Sadighi « الحركات الايرانية » والتي هي فترات في السلالات الحاكمة ليس الا . يبدو على الارجح ان الفترات تتشابك وانه تم اخضاع المقاطعات الاقرب من ايران بسرعة اكبر من غيرها.

مبلغا وفق اتفاق متبادل ويستسلمون دون ان يحاربوا ، كانوا يحفظون حريتهم واملاكهم واموالهم ، وبالاضافة الى ذلك يحصلون على حق حماية العرب لهم . في هذه الحالة الاخيرة كان المرزبان او الدهقان يستمر في وظيفته كزعيم محلي فلا يضايقه فيها احد » (٧٩) وقد بقيت البنى الاجتماعية دون تغيير في حين اخذت المقاومة العسكرية في المقاطعات الخاضعة شكل تمرد عام قاده المرزبان والسلطات التقليدية في وقت اعتبر مناسبا (عندما كان صراع الفئات القبلية يضعف الجيش العربي) . من هنا التهديد بالانفصال الدائم الموجه باستمرار ضد السلطة العربية . واتى القمع في مستوى نموذج التمرد هذا . عشوائيا يضرب دون تمييز الفئات الاجتماعية التي كان يصعب نسف تلاحمها .

(٢) كان بقاء استقلالية المقاطعات يشكل خطرا دائما على السلطة لا بد من ازالته بوسيلة اخرى غير الاخضاع الشامل الذي يحترم البنى الاجتماعية . فالدهاقنة والهرابذة بالاضافة الى كونهم وسطاء ضروريين للسلطة ، قادرون على استغلال اجزاء منها لصالحهم . وكان الدهاقنة وهم موظفو الادارة الساسانية القديمة ضروريين في مرحلة اولى بسبب معارفهم في المحاسبة ، ولانهم يضمنون فعالية تحصيل الضريبة لكنهم كانوا في الوقت ذاته قادرين على اختلاس قسم من المبالغ المجباة طالما لم تملك السلطة العربية وسائل المراقبة التي كانت عند الساسانيين (سجلات الضريبة ، تأسيس تدابير منتظمة . . .) . اما الهرابذة فقد كانوا دعائم الجهاز القضائي الساساني القديم . نفهم هكذا لماذا سيأخذ القمع في فترة ثانية طابعا مميزا في وسائله وفي موضوعه معا ، وهذا ما اوهم فيما بعد بحصول انتقال من فترة تسامح الى فترة لا ـ تسامح ديني (وقد حاول بعضهم ان يفسر بواسطة الشعور الديني ظاهرة تتعلق بطبيعة السيطرة الاقتصادية ـ السياسية وبالعقبات التي واجهتها) . الى جانب القمع العسكري الذي عمل بعشوائية اقل من السابق استخدمت الدولة الاموية سلسلة من التدابير الادارية والعسكرية لم تظهر فعاليتها الا على المدى الطويل .

(أ) ـ « بناء على امر زياد بن ابيه حاكم العراق قام عبيد الله بن ابي بكرة بقتل الهرابذة (حماة النار المقدسة) في فارس ودمر المعابد واطفأ في قاريان النيران المقدسة التي خصها الزردشتيون باحترام كبير » (٨٠) . لكن

(٧٩) Sadighi ـ المرجع نفسه ـ ص ١٥ .
(٨٠) المرجع نفسه ص ١٧ .

هذه السياسة لم تعمم حافظ الكهنة على مركزهم في المجتمع الفارسي خلال القرنين الاولين للهجرة راضين بالسيطرة العربية : « لا نرى مطلقا زعيم الموباذ يثور ضد السلطات العربية اثناء القرون الاولى » (٨١) .

(ب) ــ اخذ تبني اللغة العربية في الادارة بشكل بارز طابعا سياسيا بمدى ما كان الكتبة القدماء الذين استمروا في جباية الضريبة هم المقصودون مباشرة (٨٢) . هنا ايضا كانت فعالية التدبير قليلة لانه كان من الصعب أن يتم دفعة واحدة استبدال عناصر ادارة عريقة تملك معرفة تقنية يستغرق تحصيلها طويلا (٨٣) . لكن التعريب كان نقطة الانطلاق لتحول بطيء ستستمر آثاره في القرن الثاني للهجرة . اما امتداده الى مقاطعات فارس فكان بطيئا جدا (٨٤) .

(ج) اسهمت اسلمة السكان في توجيه ضربة الى مركز الدهاقنة اذ حُرموا من جباية الضريبة المتوجبة على المسلمين الجدد . ونستطيع القول دون اعطاء هذه الظاهرة اهمية حاسمة انها شاركت في تفكك البنى الاجتماعية التقليدية تفككا جزئيا وفي تسهيل تغلغل الدولة .

لم ينجح القمع الذي قامت به الدولة الاموية ضد مختلف الفئات الاجتماعية الفارسية في مجمله، فيتدمير تضامن المجتمع الفارسي. لقدتوصل

(٨١) المرجع نفسه ص ٦٨ .

(٨٢) « تمت في هذه الفترة ايضا محاولة ازالة بقايا التأثير الاعجمي فقام عند الملك بسك نقود ذات مفاتيح عربية بكاملها . اما سجلات تحصيل الضرائب فكانت تكتب دائما بالبهلوية في العراق وباليونانية في الشام . وبعد مقتل زهدان فروخ ابن بيري والذي كان مكلفا بديوان العراق اخذ ابنه مروان شاه مكانه لكن صالح بن عبد الرحمن واصله من سستان الذي كان يعمل ايضا في ادارة الاموال قال للحجاج انه قادر على القيام بالحسابات باللغة العربية بدلا من البهلوية ، فوافق الحجاج على هذا الاقتراح الذي نفذ في سنة ٧٨ » . المرجع نفسه ص ٣١ .

(٨٣) « كانت السجلات والحسابات في حكم نصر بن سيار في خراسان لا تزال تكتب بالبهلوية فكان معظم امناء الديوان اذن زردشتيين . وفي سنة ١٢٤ كتب يوسف بن عمر حاكم العراق رسالة الى نصر بن سيار امره فيها بعدم اللجوء الى اي من المشركين » . المرجع نفسه ص ٣٢ رقم ١ .

(٨٤) كان لصرف الموظفين الفارسيين العاملين في ادارة الاموال نتيجة اقل اهمية الا انه لم يكن لهذا التدبير طابع حازم لان العرب لم يكونوا بعد اهلا للقيام بالمحاسبة المالية (...) » . المرجع نفسه ص ٣١ ــ ٣٢ .

دون شك الى كسب فئات عديدة لكنه في الوقت نفسه ، دفع بأكثر منها الى المعارضة مما سيسهم بقسط كبير في سقوط النظام .

ج ـ تبعثر المعارضة واعادة تجمعها

ومع تثبيت الدولة الاموية لن تتوصل المعارضات المختلفة الى ان تتوحد قبل قرن . فالدولة سوف تتبع سياسة فعالة اذ تستند الى عزل الخصم وتبعثره الى مجموعات صغيرة تسهل تصفيتها . ولن يحصل انضمام فيما بين الانتفاضات المحلية التي تطوقها اجراءات الدولة وتجمدها اذا ما اتسعت. وهكذا فان « احجام » الحسن بن علي في كربلاء اسهم في فشل الانتفاضة . وثورة المختار هي المثال الساطع على أستحالة التحالف بين اشراف العائلات الكبيرة وعناصر من العبيد ، ورغم ان المختار كان قد حصل في البداية على تأييد الاشراف فان اهمية العبيد المتزايدة التي لمس اثرها (٨٥) كانت مبعدة بالضرورة : « وجه مصعب بن الزبير حاكم البصرة ضربات حاسمة اذ فصل عن المختار باقي زعماء العشائر الذين كانوا لا يزالون على ولائهم له . . . » (٨٦) . ومنعت مراوغة محمد بن الحنيفة من انضمام احدى المقاطعات الى المختار مما قد يسهم في زعزعة النظام الاموي بشدة .

لم يفت هذه المعارضات قوة عسكرية موحدة وحسب بل كان يلزمها لكي تنتصر تحالف امتن من تحالف مجرد مجموعات مستقلة لان هذا التحالف مؤقت وزائل وجل ما يقوم به هو جمع جيش يفوق جيش الامويين عددا ، كان لا بد من حصول تكامل بين بعض المجموعات الحاسمة استراتيجيا . ان التحالف الذي تشكل اثناء ثورة المختار بين شريحتين اجتماعيتين ظل مترددا فلم يصدر عنه اي اتجاه مهيمن يفرض مصالحه واوامره واستراتيجيتهالمقبولة من جميع الفرقاء (٨٧) .

يبدو ان هذا الشرط قد تحقق في التحالف الذي قاده العباسيون اذ كان يجمع في آن معا زعماء قبائل وموالي . انما قاد الثورة فعلا شريحة فارسية

---

(٨٥) « وتراس من ناحية اخرى ثورة من العبيد واعدا من كان يجند منهم بامـلاك اسيادهم » . المرجع نفسه ص ٢٩ .

(٨٦) المرجع نفسه ص ٢٩ .

(٨٧) لم تكن المطالبة بالمساواة قادرة طبعا على ارضاء زعماء القبائل .

بكليتها ــ خراسانية في اساسها ــ كانت تطمح الى هيمنة سياسية تحت غطاء ادارة عربية (٨٨) .

ينبغي ، دون شك ، ان نرى في التحولات الاجتماعية التي حصلت خلال العصر الاموي ، الشروط التي زعزعت التركيب الداخلي الخاص بفئات المعارضة اذ سمحت للفئة الفارسية المسيطرة بأن تلحم وحدتها (التي هي مع ذلك نسبية اذ ان انصار علي سيقفون من جديد في وجه السلطة حالما ينهزم الامويون) . لن تأخذ انتفاضة العباسيين شكل الانتفاضات التي وقعت في زمن علي ، فهي تستند الى ادارة جنينية تكون اداة الفئة المهيمنة ضمن التحالف : « أول تنظيم دولي وضعه ابو مسلم بعد سقوط حراث هو تنظيم ارسالي حقيقي لا يتضمن فقط مكاتب وحرسا بل بوليسا سياسيا وقاضيا لا يقتصر دوره على تحقيق العدالة لكن من مهمته كذلك ان يمدح فضل الهاشميين وان يحط من قدر عائلة الامويين » (٨٩) . ومساندة ابي سلامة ممثل الفئة الشيعية في الكوفة تكشف كذلك عن كفاءات عسكرية وادارية في الادارة فقد « انشأ الدواوين في مقره وسمى الحكام الاوائل وقاد العمليات التي كانت مستمرة ضد الامويين وانصارهم » (٩٠) .

---

(٨٨) « اما عند العباسيين فقد ارسل ابراهيم بن محمد ، الامام ، ابا مسلم الى خراسان في العام ١٢٨ هـ مما يدل على ان الامام كان يستند الى الايرانيين وخاصة سكان خراسان . واستدر ابو مسلم عطف الدهاقنة وفلاحي محافظات هذه المقاطعة فالتفوا حول عماله الايرانيين في غالبيتهم » Sadighi **الحركات الايرانية** ص ٤٠ ــ ٤١ .

(٨٩) المرجع نفسه ص ٥٧ .

(٩٠) Sourdel ــ **الوزارة العباسية** ص ٦٩ .

- ٥ -

خاتمة

لقد بدا لنا انه يجب البحث ضمن عملية المركزة هذه عن المحددات الاساسية التي ادت الى ظهور الكتاب العربي .

يرتبط تشكل المعرفة في القرن الثاني للهجرة ارتباطا وثيقا بتقدم المركزة وعدم قدرتها على دمج كامل عناصر انماط الانتاج التي تسيطر عليها الدولة الاسلامية . في مؤلفات هذه الفترة تغاير يمنعنا من اعادة تجميعها تحتعنوان واحد ومن الكلام عن الكتاب العربي .

ان الفتح العربي بمقابلته تشكيلات اجتماعية مختلفة من حيث البنية والتاريخ ، ولد تحولا في تشكلات المعارف الخاصة بكل منها . في العراق مثلا حصل التقاء شكلين من المعرفة على الاقل : الاول مصدره القبائل العربية وحملة الشعر خاصة والثاني مصدره الامبراطورية الساسانية . الا ان هذا الالتقاء لم يحدث على المستوى الايديولوجي فقط ولم يكن مجرد علاقة تمت بين معرفة عربية واخرى فارسية اذ لا يمكن رد المعرفة الى تطابق في النص لانها تتم في مؤسسات وفي قوى متصارعة . وهكذا فلحل مشكلة تكوّن الكتاب العربي (او بالاحرى الكتب العربية) لا يكفي التوقف عند تحليل البنية الداخلية الخاصة بمؤلفات القرن الثاني . ينبغي ان نجيب على عدد من الاسئلة فنقول **من** الذي انتج هذا الكتاب ، **اين وضد من...** نجدهكذا فرقا فيانماط تمفصل هذه الكتب على سائر الممارسات الاجتماعية : ان كتابا وضعه قاض ينتمي الى قلب الادارة لا يكون انتاجا ادبيا بالصفة التي يكون بها الشعر الجاهلي نتاجا ادبيا . الفرق لا يكمن في محتوى هذه النتاجات الظاهر فقط بل في الموضع والوظيفة اللتين تشغلهما ضمن الممارسات الاجتماعية .

ان النجاح في تحليل سير تكون الكتب يستلزم في الوقت عينه تأريخ القرنين الاولين للهجرة : تاريخ الممارسات السياسية والاقتصادية وتاريخ

المؤسسات . التحليل وحده يسمح بالقاء الضوء على الطريقة التي تعد الممارسات فيها مكانا يحل فيه الكتاب وتكون لها به صلة محددة . ان التحليل الذي حاولنا القيام به كان يهدف فقط الى تعيين اماكن ظهور الكتب دون أن نغفل تمفصلها على ممارسات ولا تحددها بهذه الاخيرة .

ولقد اقتصرنا على دراسة نموذجين من المؤلفات نستطيع تعيين وظيفتهما بشكل عام بصفتهما يمليان قواعد سياسية وقواعد لغوية . تكوّن هذان النموذجان في قالب المركزة لكن على مستويات مفارقة للواقع الاجتماعي . (تركنا المؤلفات الفقهية جانبا لكن لا بد لتحليل شامل من اعادة ادخالها ووضعها في موضعها الخاص) . تم عرض القواعد السياسية من قبل شريحة اجتماعية فارسية مشكلة من الكتبة القدماء ومن كهنة كانوا يمسكون سابقا بواقع السلطة في الادارة الساسانية .

ان تحولات السلطة السياسية ومعطياتها الجديدة كانت تتطلب اعادة تحديد القواعد التي على اساسها كان المجتمع الفارسي يعمل . وبينما كانت حيازة السلطة والامتيازات المرتبطة بها موضع صراعات عنيفة موضوعها الشرعية ، كانت مطالبة الكتبة تأتي على مستوى آخر : كانوا يطالبون بان تعود السلطة ثابتة (كحد اقصى ، مطلق سلطة) وان تمارس بشكل منتظم كي يتمكنوا من تطوير خطة توصلهم الى المرتبة الاولى .

وقواعد اللغة هي ايضا في قلب الصراع ، لكنه صراع على مستوى مختلف هذه المرة لانه ليس صراعا سياسيا بشكل مباشر . موضوع الرهان هو سلطة من نموذج آخر ، مؤسسة على معرفة تجد مكانها في الادارة .

اما التدابير القمعية المتخذة ضد عناصر الادارات القديمة فلم تكن تكفي، فتوجب على السلطة الجديدة أن تنشيء ادارتها الخاصة . اما ان تترك اجهزة الدولة القديمة لتعمل بمجرد تنقية صفوفها فذلك يعني عدم المساس بأوالية اعادة انتاجها وبترابطها بالمصالح التي كانت تدافع عنها سابقا والتي لم تعد تختلط بمصالح السلطة الجديدة .

ومن ناحية اخرى ، كان لا بد حتى تتمكن ادارة موحدة ومتصلة مباشرة بالسلطة الاسلامية من التكون أن تشكل ممارسات جديدة واواليات اعادة انتاجها .

تمثل المؤلفات التي نعالجها شكلا انتقاليا طبعته عملية ضخمة في « استخراج المعرفة » التي تشرف على ظهور ممارسات مؤسسية قائمة في ادارة وفي شكل تعليمي معين .

القسم الثاني

قواعد السلطة

١ ــ المعرفة

تشكل المعرفة

٢ ــ فحص أمر دمنة

أ ــ المحور
ب ــ قراءة العلامات

الفصل الاول
الفصل الثاني

٣ ــ اجراءات التحقيق

٤ ــ قواعد السلطة

(١) اسس السلطة
(٢) اختيار المستشارين
(٣) سلوك المستشار

-١-

المعرفة

لقد بدا كتاب كليلة ودمنة واقعة استثنائية بالنسبة « للادب » العربي، تعددت طرق تفسيرها . فالبعض راى فيها منشأ النثر العربي وبدء التأثير الفارسي في « الثقافة » العربية . ووجهة النظر هذه تطابق الواقع التاريخي نوعا ما لكنها لا تستنفد طابع الكتاب الغريب ولا مسألة انبثاقه في التاريخ . اما الكتاب نفسه فهو يعلن اصله الفارسي والهندي . ويعرّف عن كونه نتاجا لتاريخ آخر ومعرفة اخرى وثقافة اخرى . ويروي كيف انتقل من بلد الى آخر في مسيرة أدرجت في سياق القصة . لكنه يبقى صامتا ازاء نهاية المسيرة هذه .

لذلك اتخذت ترجمته الى العربية طابعا صدفويا وعرضيا وأغفل ان كليلة ودمنة ليس واقعا منعزلا فهو جزء من حركة نقل واسعة عن الفارسية الى العربية . ومجمل هذه الكتب المنقولة تتحدث عن السياسة (١) . فهل ان البعد التاريخي لهذه المؤلفات (سياقتها) يقتصر على اللقاء العرضي بين شكل عربي ومضمون اجنبي ؟ في هذه الحالة يصبح من الغريب ان يكون نقل لـ « ثقافة » مختلفة تمام الاختلاف قد اسهم في ولادة نثر ونوع ادبي عربيين . وهذا ما يدعيه مؤرخو اصول النثر العربي .

فلا ممارسة الترجمة ولا مضمون الكتاب واقعين خارج التاريخ ومنبثقين عن ذاتية بحتة . بل العكس فان علاقات محددة تربط كليلة ودمنة بالتاريخ

---

(١) صديقي : الحركات الدينية الايرانية : ص ٧٢ ـ ٧٣ : ذكر لعناوين هذه المؤلفات : كتاب الملوك ، وكتاب المعارك ، وكتاب وقائع وأعمال انو شروان وكتاب التاج .

أما منشؤه البعيد فلا يمنع ادراجه المباشر في الحدث فهو ذاته **حدث** في تاريخ القرن الثاني للهجرة . وعلى التحليل ان يأخذ في عين الاعتبار هذا البعد والا يفصل الشكل عن المضمون كما ان عليه الا يبحث داخل الكتاب عن انعكاس المرحلة التاريخية التي ظهر فيها .

يطرح كليلة ودمنة نفسه للقراءة وكانه مفتاح ويروي ان المعرفة كنز ذو مفاتيح . من هنا تتابع الاغطية التي تكشف كل منها مفتاح اندراجه الحدثي : اندراج في تاريخ الهند (دبشليم وبيدبا) في تاريخ فارس (انو شروان وبرزويه) وربما بواسطة العنوان في تاريخ الاسلام (المنصور وابن المقفع) . وصمت الكتاب حول هذه النقطة الاخيرة ليس بمشكلة فالاندراج لم يكن بحاجة لان يُصرح به وهو بدهي بالنسبة لمعاصري ابن المقفع .

ولكن الكتاب يروي ايضا قصة اخرى هي قصة مسيرة المعرفة وطرق نقلها المؤسسية وعلاقاتها بالسلطة وبوظائف معينة ... وهو في الوقت نفسه محط لرحلة وتراكم لحكمة (معرفة) ووصف لمراحل تكونها واقتلاعها المؤسسي . وينطوي النص على ذاته حسب طريقتين : فهو يعلن من جهة انه معرفة باطنية لكنه يكشف في الوقت نفسه مفاتيحه . ويدعي من جهة اخرى انه مصنف من الحكمة العامة لكنه يروي احتكاره المنظم . لذلك سوف نتبع نمطين مختلفين في قراءتنا لكليلة ودمنة الاول هو تشكل المعرفة والثاني انماط مسيرتها .

تشكّل المعرفة (la configuration du savoir)

يضع الكتاب المعرفة تحت اشارة « الحيلة » . « لم يزل العقلاء من اهل زمان يلتمسون ان يعقل عنهم ويحتالون لذلك بصنوف الحيل ويطلبون اخراج ما عندهم من العلل » (٢) والحيلة خادعة بطبيعتها وهي تتكون من دلالات تستطيع هي وحدها ان تقود الى المعنى لكنها تحولنا عنه في الوقت نفسه . من الضروري اذن امتلاك مبدأ القراءة الصحيح . فلا تكفي « قراءة جيدة » لانها تقتصر على « ظاهر القول » وتبقى على السطح وتجتاز النص من اوله الى آخره اعتقادا منها بأن القصة سوف تفشي معناها الحقيقي . والمعنى عكس ما يظهر كامن في موضع آخر « لو اتى (رجل) بجوز صحاح في قشوره

---

(٢) كليلة ودمنة ، ص ٣ .

لم ينتفع به حتى يكسره ويستخرج ما فيه » . (ص ٥٠) والسؤال هنا : كيف « يستخرج ما فيه » ؟

تندرج المعرفة في سلسلة من التفرعات الثنائية dichotomies ترسم نمط الوصول الى الحكمة : فالعلاقة بين الظاهر (الحيلة) وحقيقة الواقع تشمل العلاقة بين الخارج والداخل . وكلاهما يشدان النص في اتجاهين متعارضين . فمن جهة ، يتجسد الظاهر او برانية النص في صور واضحة هي اساس لحكايات الحيوانات . هدفه وغايته : اللهو للعامة . في حين ان الداخل (نواة الجوز) يظهر من الفجوات التي تقطع تتابع الصور بالفاظ حكيمة . والمعنى الذي تنطقه افواه بلا وجوه في القصة لا يصل الا الى الخاصة وهم الحكماء . والصور اذن ليست الا ذرائع لادخال المعنى في الحكاية . وتبدو الى حد ما ضرورية الا بالنسبة للحكماء فهم يدفعون بها جانبا مباشرة للمضي الى الحكمة . ويتبين هنا ان من يحتاج اليها اولا هو الملك كما ان من الضروري ان يكشف له في الصور عن معنى الحكايات : يروي كليلة ودمنة ان بيدبا قرأ الكتاب امام الملك وعظماء المملكة وراح الملك يسأله عن معنى كل فصل . فالسلطة لا تملك الحكمة ولا المفاتيح اي القواعد التي تتيح لها الوصول اليها : يلزمها الاستعانة بالحائزين على الذكاء المنتظمين .

يتأكد اذن ان هدف الكتاب مختلف بعض الشيء عما كان يبدو . هو ليس مكتوبا للعامة بل للملك اما استعمال الحيلة فمقصود فيه خداع العامة لا غير لاخفاء النواة في القشرة الصلبة . يتحمل الكتاب اذن قراءتين لا علاقة بينهما . قراءة اولى تتابع سياق القصة بحثا عن المعنى في استنتاجات الحكايات وقراءة اخرى تتبع في النص الكلمات المفعمة بالمعنى .

وفصول الكتاب الاولى توضح طابعا مهما للحكم : كلامه نادر ولا صلة له مباشرة بالحقيقة لكن الملك حائز على سلطة مميزة هي سلطة طرح الاسئلة واقتضاء معرفة الحقيقة . وضبط لحظات كلام موظفي الذكاء (الحكماء) وتحديد الحيز حيث يمكن ان يُمثل فيه هذا الكلام .

واذا كان الكتاب معدا للهو الملك فمنفعته مختلفة في نظر الحكيم . فهو في الواقع بالنسبة له مصدر للغنى (٣) ويدخل في منظومة اداءات بينه وبين

(٣) « والعلم ينجي من استعمله ، ومن علم ولم يستعمل علمه لم ينتفع بعلمه » « والعلم لا يتم لامرىء الا بالعمل . والعلم هو الشجرة والعمل هو الثمرة . وانما يطلب الرجل العلم لينتفع به . فان لم ينتفع به فلا ينبغي ان يطلبه » . كليلة ودمنة ص ٦٠ .

الحاكم . والكتاب ينفي فكرة للحكمة تقول ان لهذه بحثا مستقلا عن **الحقيقة والخير** وهو يؤكد على الصلة المباشرة بين الحقيقة والخير من جهة والسلطة من جهة اخرى . والسلطة هي التي تحس حتى بالخطر الذي يشكله وضع الناسك المعتزل في الصحراء بالنسبة لها (باب الاسد وابن آوى) . وهي التي تغار من استقلالية أضأل ذرة من المعرفة : فكل شيء يجب ان ينساب نحوها (نحو السلطة) وكل قائل للحقيقة يجب ان يستدعى الى قصر الملك .

نحن بعيدون هنا عن صورة الحكيم اليوناني الذي قد يبدو بحثه عن الخير والعلم بعيدا عن السلطة . للمعرفة ، في اليونان القديمة طابع التعميم والحياد السياسي ، وسهولة المنال وقابلية النقل (داخل المدارس الفلسفية). وهذا الطابع ينفي باطنية المعرفة التي تتحكم بكليلة ودمنة . وهذه مرتبطة بالسلطة . تحتكرها طبقة مغلقة «Caste» ولا تعلم .

« ومن كان يطلب العلم ليعلمه غيره وليعرفه سواه فانما هو بمنزلة العين التي ينتفع الانسان بمائها وليس لها من تلك المنفعة شيء . فان خلالا ثلاثا ينبغي لصاحب الدنيا ان يقتبسها ويقبسها : منها العلم ومنها المال ومنها اتخاذ المعروف » (ص ٧) .

- ٢ -

فحص أمر دمنة

يسير الفحص عن امر دمنة في منحى بارز شبيه في بعض نواحيه بمناح اخرى وردت في الكتاب (في باب ابلاد وايراخت وشادرم مثلا) ، ميزتها هي انها تُبرز قرارا وجيزا تم بسرعة نسبية ومحاكمة طويلة ومنتظمة .

يثير دمنة الغضب بتحريضه كلا من الاسد والثور الواحد ضد الآخر (ص ٦٧ الى ٨٧) ويفتعل بذلك اعدام الثور شنزبه (ص ٨٧ ــ ٨٨) . تتم عملية الاعدام بسرعة دون ان تخضع لاي وسيط مؤسسي منتظم .

ما هو محور المرحلة الاولى من الصراع ؟

يلمح دمنة في مخاطبته للملك بخيانة شنزبة له : « حدثني الامين الصادق عندي ان شنزبه خلا برؤوس جندك فقال لهم . . . » (ص ٦٨) .

تبدو المؤامرة في تحالف يعقد بين شنزبه وهيئة السلطة الاساسية اي قوتها المسلحة . يقول دمنة للملك : « جعلته نظير نفسك فهو اليوم يظن انه مثيلك وانك ان زلت عن مكانك صار له ملكك » (ص ٦٩) . وتصبح السلطة حيزا لصراع حتى الموت لا مفر منه (يقول دمنة ان على الملك ان « يصرعه فانه ان لم يفعل كان هو المصروع » ص ٦٩) . يخضع هذا الصراع من اوله الى آخره للمنطق الذي اوحى به دمنة دون الوقوف عند دوافع الخصمين الحقيقية . يفترض الحيز اطارا يتحول فيه كل من عناصر الزمن والمحور الذي في وسط علاقات الصراع . بالفعل ان هذه الاتجاهات الثلاثة ليست هي ذاتها كما انها لا تعقد بالطريقة نفسها على صعيدي المسرح ومؤخرة المختلفين.

أ ــ **المحور** : يبدو ان صراعا آخرا يرتسم وراء الصراع من اجل

السلطة ، نسميه صراعا من أجل المركز الثاني بالمقارنة مع المركز الاول الـذي يحتله الملك . ذلك ان القسم الاول من قصة دمنة ينتهي عند استعـادة دمنة حظوته لدى الملك (« فلما سمع الاسد ذلك منه صدّقه وقرّبه » ص ٩٦ .) تلك هي النتيجة العملية للمجابهة الداميةبين الاسد والثور. كانالصراعالذي سبب موت الثوريعمل على صعيدين. من الناحية الاكثر ظاهريةوالاكثرسطحية يتساوى الخصمان في صراعهما من اجل السلطة وضد الموت . انمـا الصراع منذ البداية **غير متساو** اذ ان الاسد متوحش والثـور عاشب « آكـل لحم » و « آكل عشب » ص ٧٢) هذا ما يجعل صراع احد الخصمين مـن اجـل السلطة صراعا ضد الموت من جهة الآخر . لكن عدم المساواة العائد الى اسباب **طبيعية** يؤدي الى اختلاف في المحور عند نقله الى حيز آخر. وفي الوقتذاته الذي يتم فيه الصراع من اجل السلطة يتم فيه صراع بالوكالة من اجـل مركز مستشار الملك . يقع هذا الصراع بين شخصين آخرين ، الثور وابن آوى ، هدفه هو ايضا القضاء على الثور لكنه لا يمكن ان يكون نتيجة قتال مباشر بين ابن آوى والثور لا تكترث له السلطة الملكية (ابن الآوى عاجز عن قتـل الثور بنفسه كما انه عاجز عن ان يحل محل الاسد بصفته ملكا للضواري) . قـد يتحور هذا التفاوت في المواجهة بين ابن الآوى والثور ويتحول الى تفاوت في مواجهة الاسد لهذا الاخير .

ب ـ **قراءة العلامات** (٤). يستعين دمنة اثناء تخطيطه للصراعبقراءة « العلامات » الدالة وهي لا تدل على ما يريد دمنة الاشارة اليه . اذ انهـا علامات ايمائية تقوم على غياب كامل للفظ وتتمتع بنوع من الاستقلال بالنسبة للمعنى الذي يولدها . مما يسمح بتحريف معناها الاصلي ودمجها في مضمون آخر . ان الملك لا يثق بقول دمنة الا لان هذا القول يطابق العلامات (٥) . لا بد من سياق المحاكمة لتفكيك قرابة العلامات الايمائية (الظاهرة) والمعنى . اذ لا يتم ذلك بمقابلة قول صادق (اي قول النمر) بقول كاذب (اي قول ابن آوى) . تبقى هذه المقابلة غريبة عما سنراه في محاكمة دمنة .

يثير دمنة كذلك خوف الثور باستخدامه معرفة واثقة انما غير مباشرة

---

(٤) « ومن علامات ذلك أن ... » ، ص ٧٤

(٥) « ثاني لا احسبك لو قد نظرت اليه حين يدخل عليك ، الا ستعرف انه قد هم بعظيمة . ومن علامات ذلك أن ترى لونه متغيرا وأوصاله ترتعد ، وهو يلتفت يمينا وشمالا ، ويهيء قرنيه كأنه يهم بالنطح » ص ٧٣ ـ ٧٤ .

بموقف الملك (٦) ويلجأ الى الاسلوب ذاته في قراءة العلامـات (٧) . وسوف يجهد باستمرار للحيلولة دون محادثة الاسد للثور في اية لحظة ما : « فكـره دمنة ذلك وعرف ان الاسد ان كلم شنزبة وسمع مرجوعه عليه عذره وصدقه ولم يخف عليه امره » (ص ٧٣) . هكذا ان القراءة التي اوحى بها دمنـة الى الثور والاسد تعمل كمنظومة ذات مفاتيح تجد معناها تبعا لطبيعـة النظـرة الملقاة على العلامات . والايماءات متى اثارها دمنة نسجت بينها علاقات تتبع نمطا يبتعد اكثر فأكثر عن النية الاصلية . لكن يكفي ان ينسل امر ما بـين النظر وسطح المرئي لكي يرتاب المعنى الذي يحمله النظر . قد يكون هذا الامر اللفظ كما انه قد يكون اللمس (في قصة الدودة البراقة . . .) .

ما سوف يعاد النظر فيه اذاً هو قدرة النظر على اعطاء معنى الاشياء.

جـ ـ **الزمن** : يفترض النظر زمنا عدما يتيح الخطأ في قراءة العلامات. والنصيحة الاولى من دمنة للملك هي الا ينتظر وقوع الامر (ص ٦٩) . وهذه السرعة في الصراع يقابلها بطء في المحاكمة المرتبـة حسب ايقاعات زمنيـة محددة .

تجري محاكمة دمنة بحضور عدة اشخاص على حيز جديد حيث يتقرر مصيره . هؤلاء هم القاضي والنمر الذي فاجأ الحديث بين كليلة ودمنـة ، وشخص آخر نسميه المتهم ـ بكسر الهـاء ـ . سوف نميز بـين مرحلتين مختلفتين في معالجة امر دمنة . في المرحلة الاولى تجري مجابهة كلامية امام الملك ، اما في الثانية ، فتجري المحاكمة حسب طقس منتظم وذلك في غياب الملك .

تجدر الاشارة الى وجود شهادتين مفحمتين بالنسبة لدمنة ، شهـادة خاصة بالنمر واخرى خاصة بسبع كان نائما قريبا من دمنة في السجن (ص ١١٢) . كلاهما قد فاجأ حديثا بين كليلة ودمنة ، وهذا الحديث سوف يؤخذ بمثابة اعتراف غير ارادي (انظر فيما بعد) . لكن في كلتا الحالتين لا يتم اداء الشهادة على مسرح المحاكمة فهو يعمل في مكان آخر ، ويكون بذاته وراء الحكم النهائي .

---

(٦) « حدثني الامين الصدوق ان الاسد قال لبعض اصحابه » ص ٧٥

(٧) « سيستبين لك آيات ما ذكرت لك (. . .) ان انت رأيت الاسد حين تدخل عليه ينتصب مقعيا ويرفع صدره ويسدد اليك بصره ويضرب بذنبه ، ويتلمظ ، فاعلم انه يريـد قتلك فاحذره ولا تغتر اليه » ص ٨٧

الفصل الاول

وضع دمنة قيد الاتهام . سبب ذلك هو الحديث الذي فاجأه النمر (ص ٩٩) ونقله الى والدة الملك (ص ١٠٠) تنقل هذه بدورها مضمون الحديث فقط دون البوح باسم النمر . يتم عرض هذا المضمون أمام الملك حسب الطريقة والشكل اللذين اتبعهما دمنة لتضليل الاسد والثور (٨) . ولن يعقب ذلك اثر مباشر ، اما فعاليته فهي متفاوتة في الزمن . عند هذا الحد ليس المضمون الا مسببا للاتهام ولن يكسب فعالية الا بعد المحاكمة شرط ان ينسب لاسم الشخص الذي جمعه ويوصل بالوضع الذي تم فيه ذلك .

في الفصل الاول يحضر الملك ويظل **صامتا** بينما يشهد المشادة بين دمنة ووالدة الملك التي توجه الاتهام . لا تستدعى اية شهادة ويحافظ الملك على حياده . اما المشادة فتحدث في زمنين :

الزمن الاول : تطالب والدة الملك بموت دمنة (ص ١٠٤) فيدخلان في مبارزة شفوية ويدفع دمنة التهم عن نفسه ثم يبرر عمله . وقد حصل التكافؤ بين الفريقين لعدم قدرة الملك على تكوين حكمه (« فلما سمع الاسد قوله ارتاب به ... » ١٠٦) .

الزمن الثاني : يطالب الملك باجراء تحقيق بغية عدم الاسراع في قراره . ويلتمس دمنة عدالة الملك مما يثير مبارزة شفوية ثانية بينما يحتفظ الملك دائما بحياد صامت .

اخيرا يجري التحقيق ويلقى بدمنة في السجن . وقد جرى الفصل بحضور جموع الملك ولم يستدع اي شاهد .

من جهة ثانية كان الملك في هذا الفصل حكما في مبارزة شفوية (٩) . وختام الفصل هو في ابطال شكل معين من الاتهام فهو يكرر المشهد الاول (موت

---

(٨) « حدثني الامين الصدوق عندك ان دمنة لم يركب في شنزبة الذي ركب من تحميله اياك عليه ، الا لحسده اياه على منزلته منك » ، ص ١٠١

(٩) ان دور الملك في الواقع ليس دور الحكم المحايد والعاجز عن فرض حكمه . فهو لا يشبه بشيء الحكم حافظ العرف الشفوي الذي يرأس اتفاق فريقين على التعويض عن اضرار (دور الحكم في الجاهلية) . بل انه يبقى مالك سلطة القرار والتنفيذ وان كانت معلقة بصورة مؤقتة

الثور) لكن بطريقة اخرى ويتيح امكان استبعاد هذا الشكل من الاتهام لصالح سياق آخر .

(ـ يقع بين الفصل الاول والثاني حدثان . اولا : تبوح والدة الملك لابنها باسم مبلغها . بينما يفاجيء السبع السجين حديثا آخرا بين كليلة ودمنةولكنه لا يظهر اثناء الفصل الثاني ـ) .

الفصل الثاني

يحتل الآن كل من القاضي والنمر الموقع المتوسط بدل الملك وما زال الحرس حاضرا بصفته مراقبا (ص ١١٣) (١٠) . ويتعاقب متهمان : «سيد الخنازير» من جهة وهو على علاقة طيبة مع الملك ووالدته (ص ١١٥)، و « عظيم الجند » من جهة اخرى (ص ١١٩) .

تصبح المحكمة من جديد مسرحا لمبارزات شفوية شبيهة بتلك التي جرت في الفصل الاول . لكن الرهان يبدو هذه المرة اكثر واقعية لما يجره ظاهريا من احكام . في بداية الجلسة يستدعي النمر ما تيسر من المبلغين (ص ١١٣) . ويكرر القاضي الدعوة دون ان يصدر شيء عن النمر رغم حضوره . وهذه اول مرة يلجأ فيها الى الشهادة ويبدو أن الادلاء بها لا يتم الا في اطار المحكمة. لماذا يصمت النمر في هذه الحالة ؟ يمكن تقديم افتراضين لا يتنافيان . قد يكون المطلوب هنا شكل محدد فقط من الشهادة . اما النمر والسبع فليسا شاهدي عيان ولا شاهدي سماع بالمعنى الدقيق . فالنمر لا يفاجيء المؤامرة ذاتها . وفعالية افادته التي نقلت مباشرة الى الملك قد لا تأتي بصفتها شهادة . اما الشهود الذين قد يقبل بهم القاضي فهم الذين ضبطوا الجريمة أو هم حلفاء للمتهم يساندونه . وقد يفهم في هذا الاطار حضور شخص هامشي يزور دمنة في السجن ويقبل دعمه والدفاع عنه .

ومن جهة اخرى اذا كان النمر قد احتل موقع القاضي فلأن هذا الموقع لا يسمح بتوجيه الاتهام (قد يتضح اكثر امر اشتراك النمر والقاضي لو علمنا بالصيفة الاصلية للحكاية . وليس مستحيلا أن يكون شخص النمر

(١٠) في رواية موت مزدك كما نقلته الاحاديث خبر عن مبارزة بين مزدكيين وموباذ انتهت بمقتل مزدك . وكان الجنود قد احاطوا مسبقا بمكان المبارزة . كريستنس المرجع ذاته ٣٥٤ ـ ٣٥٥ .

قد تضاعف لا سيما وانه لا يُصرّح باي حيــوان هو القاضي . وعدم ذكر هذا لا يغير شيئا على الصعيد البنيوي) . وموقع القاضي شبيه بموقــع الامام في المجتمع الاسلامي في القرن الثاني للهجرة . و « اذا رأى الامــام او حاكمه رجلا قد سرق او شرب خمراً او زنى فلا ينبغي ان يقيم عليه الحد برؤيته لذلك حتى تقوم به عنده بينة (...) فأما اذا سمعه يقر بحق من حقوق الناس فانه يلزمه ذلك من غير أن يشهد به عليه » (١١) .

يوجه « سيد الخنازير » اول اتهام داخل المحاكمــة . لكن الاتهــام رُفض وتحمل مسؤوليته رئيس الخنازير « فعُزل عن عمله وامر باخراجه واقصائه عنه » (ص ١١٨) . والواقع انه دخل في مبارزة شفوية مع دمنــة وسواء غُلب (لقد بكى ــ ص ١١٨) أو عصى اصول المحاكمة فهو الخــاسر في هذه العملية . وماذا فعل ؟ لقد لجأ مجددا الى العلامات الايمائية (العين، الانف ، وشعر دمنة ــ ص ١١٦) وربطها بمعنى . والطريقة هذه هي التــي استخدمها الملك والثور للتعرف الى (او لرؤية) عداوتهما المتبادلــة . وعدم تناسب رد فعل الاسد مع ذنب « سيد الخنازير » سببه ان قراءة العلامات هذه غير صالحة منذ بداية المحاكمة فهي التي ادت الى اعدام الثــور اي انها موضع رفض . فلا يمكن اذن الاستعانة مجددا بنمط المعرفة نفسه في البحث عن الحقيقة. والمحاكمة هي محاكمتان : محاكمة دمنة ، ومحاكمة شكل معين من المعرفة . ومن جهة اخرى تشير المرحلة الاولى من المحاكمة الى ان قــرار معاقبة الخنزير لم يتخذ على صعيد المحكمــة ذاتها وان السلطة لا تفوّض للقاضي .

والاتهام الثاني هو ايضا موضوع رفض ولكن لا يلزم هذه المرة تدخــل الملك . فالقاضي يكتفي بتوجيه تنبيه ذاكرا ضرورة العدالــة (ص ١٢٠) وعلاقتها بالحكم الجيد . اما الاتهام فقد طالب باعدام دمنة فورا ومن دون أيّ برهان .

يبدو ان المحاكمة في مرحلتها الثانية ليست الا تجديدا للمشهد الاول بمقدار ما تبقى الوظائف متطابقة رغم تغير الشخصيات . والاتهامان ينوبان عن متهم ــ بكسر الهاء ــ الفصل الاول، اي ام الملك. اما القاضي ــ النمر فيحتل موقع الملك. لكن عنصرا جديدا دخل المحاكمة لم يظهر في الفصل الاول ، وهو **الكتابة** . فكل جلسة المحكمة (الاسئلة والاجوبة) نقلــت مكتوبــة الى الملك

(١١) ابو يوسف كتاب الخراج ص ١٧٨ .

(ص ١١٨ و ١٢٣) وهو بدوره أمر بتسجيل نسخة لها . « كتب النمر والقاضي ما قال دمنة وما قيل له وختما عليه » (ص ١١٨) ثم نقلاه الى الملك «فنظر فيها وامر كاتبه بنسخها ودفعها الى النمر » (ص ١١٩). «لكن الملك علم بما دار في الجلسة قبل مجيء القاضي ـ النمر اليه : « فلما سمع ذلك امين الاسد الذي أمره بحفظ ما يقولون ـ وكان اسمه شهرخ ـ رفعه اليه» (ص ١١٨) . فأمين الاسد هذا (كاتبه ؟) يعمل في الوقت نفسه على تسجيل المحاكمة تسجيلا أمينا وعلى ابلاغها بشكل خاص . وهي الطريقة الاضمن والاسرع لايصال خبر الى الملك . يتجاوز القاضي في ذلك على مستويين : الاجراءات وتدوينها المنتظم . فالملك يحتفظ بسلطة المعرفة وبسلطة التحقق من صحتها . وذلك عن طريق اسرع مما يسمحه الطريق المؤسسي والديواني (البيروقراطي) .

قرار الملك ليس نتيجة المحاكمة . و « شهادات » النمر والسبع المسجون تنقل الى الملك شفهيا وبصورة مباشرة . وهي التي تستثير حكما مباشرا على النحو ذاته . فالحقيقة لا تمر اذن عن طريق الكتابة لكنها ليست فقط شفهية ، وهي تكمن في تملك شخص ما لخطاب يتضمن الحقيقة . ويصبح القول صحيحا ـ أي لا يعود مجرد عنصر داخل مجابهة كما في الفصلين ـ عندما تُطلق على الاتهام تسميته وعندما يجري تمثيل الاتهام في اعترافات وان كانت غير واعية . وطالما يبقى النمر صامتا لا يتهم داخل المحاكمة فان القولين ـ قول المتهم وقول الاتهام ـ متكافئان . الحل الوحيد لاستثارة الحكم فورا يكمن في نسب الاتهام الى دمنة نفسه (١٢) وفي اعادة تشكيل التسلسل من الاتهام صعودا الى دمنة . هذا ما كان يطلبه القاضي (في خطابه الاخير ص ١٢٠) الى دمنة : أن يقر بجريمته كوسيلة وحيدة لمعرفة الحقيقة .

لا شك ان ضرورة وجود **اعترافين** للحكم على المجرم قائمة في ممارسات العصر القضائية (هنا الاعترافان « شهادتان » تنقلان أحاديث بُفتت) . الزنا مثلا يتطلب أربع شهادات (١٣) .

في باب « ابلاد وايراخت وشادرم ملك الهند » تعود مسألة « قراءة العلامات » ومعها خطاب سيء النية يطرح هذه القراءة ويقترح تفسيرا

---

(١٢) « **واقرار** دمنة بذلك » (ص ١٢٣ خط التأكيد منا نحن) .

(١٣) ابو يوسف . ص ١٦١ .

خاطئا . ويبدو ان الحقيقة هنا ، عكس وضعها في كليلة ودمنة ، تظهر في قراءة للعلامات بالطريقة نفسها ولكن بمعنى مختلف عن معنى القراءة الاولى. ومع ذلك فالقصة لا تنتهي عند هذا الحد ، انما تكتمل في مبارزة كلامية مدهشة بين الملك ومستشاره . يتعارض قرار سريع مع اجراءات طويلة بالتصميم ذاته .

والقصة كلها موسومة بالرقم سبعة . فالملك حلم ثمانية أحلام لكن الاحلام السبعة الاولى منها هي التي تجد تفسيرا لها في البدء ، أما الثامن فطبيعته مختلفة . وتلزم للبراهمة سبعة أيام من التفكير لاعطاء التفسير . وعندما علم الملك به قضى سبعة ايام ساجدا . أما الفقيه كتاياپرون فلا يحتاج لسبعة أيام لتفسير الاحلام لكنه يطلب الى الملك انتظار سبعة أيام لكي تتحقق (ص ١٩٧) . والحقيقة اذا تجلت في هذه اللحظة (ص ١٩٩) لا تكفي لاستتباع الحكم بموت البراهمة الذي ينبذ في النهاية أي بعد تفسير الحلم الثامن (ص ٢٠٠) .

لقد استعمل البراهمة طريقة دمنة نفسها : فالاحلام هنا رؤى بدون كلام وقد ربطوها بمعنى ليس معناها . لكن الفقيه بدوره يتبع الطريقة نفسها في اعادة الحقيقة . اذن ، هذا الشكل من المعرفة ليس موضع شك في حد ذاته بما أن صلاحيته تعزز بمطابقة أقوال كتاياپرون لتحقيق الاحلام المادي.

وموضوع القصة ليس كذلك صحة او خطأ التفسيرات المعطاة . هذه ليست الا « حججا » في الصراع المستميت الذي يجابه فيه البراهمة مختلف مستشاري ومساعدي الملك . ونتيجة هذا الصراع يكون اما بابدال الملك او باضعافه . اما الذين يعملون على تدعيم السلطة الملكية فهم الذين يملكون الحقيقة ويحق لهم قولها . ولان الملك لم يصغ اليهم منذ البدء قام المستشار « الناسك » ابلاد باخراج اعاد له مكانته كمستشار مخلص . والاخراج كان التالي : أصدر الملك أمرا بقتل زوجته ايرخت لانها اهانته . والاهانة كانت في وقت معا تحقيق الحلم الثامن وردا على عمى الملك الذي لم يدرك اخلاص المحيطين به . وابلاد لم يطع الملك وخاض معه مناقشة طويلة يبدو أن لا سبب لها نظرا لان الملك تمنى منذ البدء أن تكون ايرخت على قيد الحياة (ص ٢٠١) . رهان المبارزة الحقيقي ليس معرفة الحقيقة ابدا : معرفة

سبب تصرف أيرخت على هذا الشكل . فابلاد ينجح في تشديد الم الملك (ص ٢١٣) ثم يعلن ان ايرخت حية ويستخلص الدرس : عدم الاسراع في القرارات . اما الملك فلن يعرف ماذا حدث ويكون ابلاد قد انتقم بعد ان استبعد في البدء وتعرض للموت . ويجري في النهاية اعدام البراهمة عقابا لهم على محاولتهم تقويض السلطة الملكية .

- ٣ -

اجراءات التحقيق

ان الجهـاز القضائي ، في الدولـة المائيـة «l'état hydraulique» مرتبط مباشرة بجباية الضريبة . وهو يراقبها او يدعمها . ويضاعفها دائما مستوحيا بعض ممارساتهـا . ودراسة شكلي التحقيـق ، الاول قضائي ، والآخر ضريبي ، تكشف العلاقة بين المؤسستين .

التحقيق الاول هو ذلك الذي ذكرناه في محاكمة دمنة ونعود اليه هنا من وجهة نظر مختلفة بعض الشيء .

ان جريمة دمنة مختلفة عنجريمة الثور المنسوبة اليه. فدمنة لا يهدد الملك في شخصه ولا يتآمر ليحل محله . لقد مس دمنة صفتين اساسيتـين للملكية : عدالتها (اعدم الملك بريئا) والطاعة المتوجبة لها (حقها في الا تخدع) « اعظم الحدث حدثك واشد الخيانة خيانتك واستجهالك الملك وقتلك البريء من وزرائه (ص ١٠٤) . ولقد استشف الملك جيدا الاخطار التي يعرضه لها قيامه بعمل ليس واثقا منه « ان الملك اذا عاقب احدا او اهانه عن أمر — يظنه به — لا يستيقنه ثم علم ان ذلك ليس كما بلغه ، فبنفسه فعل ذلك وايـاها عاقب ونكب » (ص ٧٣) .

ان صورة الملك العادل ، في الدولة المائية ، مهمة ويجب الا تخبو . كان ملك الملوك ، عند الساسانيين يقول « ان جريمة الملوك هي اكبر مـن جميـع الجرائم » .... واذا ما اخطأ الملك فعليه ان يعوض عن الاضرار التي الحقها ، وان لم يكن مخطئا فان الذي يتهم بالظلم « يسجن ويلحق به عقاب نمـوذجي ويعلن ان « هـذا هو عقاب مـن اراد تلويـث شرف المـلك والحـاق الضرر بالمملكة » (١٤) . اذن ، قد ارتكب دمنة جريمة الاساءة الى الذات الملكية دون

(١٤) كريستنسن — « ايران في عهد الساسانيين » ص ٢٩٧ .
Christensen , L'Iran sous les Sassanides .

أن يتآمر هو ذاته على حياة أحد . لقد « استجهل » الملك ويجب ان « يقتل » شر « قتلة » (ص ١٢٣) . ولا يقدم اي ايضاح حول نوع التعذيب الذي يخضع له ولكن لا شك ان أسوأ عقاب هو ذلك الذي تخضع له جريمة الاساءة الى الذات الملكية .

وبما ان عدالة الملك قد انتهكت فان المؤسسة القضائية هي التي ستتولى قضية دمنة . والسلطة تتمثل داخل المحكمة بشخصين : فهي في الوقت ذاته الاتهام (وليس من قبيل المصادفة أن « عظيم الجند » هو الذي يوجهه والقاضي الذي يهدىء من غلواء الاتهام ويعيده الى النظام . والاتهام يبقى من جهته مضبوطا ، وتأثيراته محدودة من جراء تدخل الملك والقاضي — وذلك سواء كانت ام الملك هي موجهة الاتهام ام « سيد الخنازير » . بهذا التصرف تنزل السلطة العقاب بجسدها نفسه لتعوض عن ظلمها الماضي . لكن العدالة مرتبطة مباشرة بالمعرفة . وما يتطلبه دمنة من الملك حين يلجأ الى عدالته هو ان يكون على اطلاع جيد . بل يصل الامر بدمنة الى طلب شكل من التحقيق للتثبت من حسن نيته . لكن هذا التحقيق مختلف عن ذلك الذي سيجريه الملك عبر المحكمة .

يقول دمنة : « وقد استبان للملك الذي كان منطويا عليه ومضمرا له من العداوة والفل بالامارات البينات الواضحات التي لا تحتاج معها الى غيرها بالذي لقيه به حين لقيه وثاوره . ولم يأت اليه شيئا الا عن بصيرة . وان هو ايضا تحر الامر وسأل عنه ونظر فيه عرف مصداق ما كنت قلت له فان النار التي تكون في الحجر والعود انما تستخرج بالحيل . وليس يخفى مثل ذلك فان جرم المرء اذا فحص عنه وفتش ازداد استنارة واستبانة كما ان كل نتن عن حمأة وغيرها اذا ثورت ظهر ريحها وقذرها » ص ١٠٥ .

وهذا التحقيق ليس سوى « قراءة العلامات » التي ضللت الملك . وبالمقابل ، كيف يجري التحقيق في المحكمة ؟

التحقيق في أمر دمنة مختلف تماما عن التحقيق في المحاكم الحالية . فالشهادة لا تعتبر في محاكمة دمنة هدفا للتحقيق . ولا يمثل في الجلسة سوى المبارزة القضائية الكلامية . فالشاهد ليس ابدا حاملا للمعرفة عن غير وعي والقاضي لا يوجه اليه الاسئلة لاستجلاء الحقيقة .

١ — عملت الاجراءات القضائية على ازالة الشك فيما يتعلق بالاتهام ،

لكنها مع ذلك لم تزل الشك . وما يقوله دمنة وما يصدر عن الاتهام يتعادلان ولا علاقة لهما بالحكم النهائي . كأنه لم يكن بوسع المحكمة العمل الا في حالة الجرم المشهود . وقد اشرنا اعلاه الى شخص فيروز (ص ١١٨) الذي يطلب منه دمنة ان يسنده . وذكر الشخص هذا قد يفسر باجراء يستدعى فيه شركاء كلا الطرفين في المحاكمة . قد يكون هذا من رواسب ممارسة قديمة تحولت وكان بوسع الطرفين المتنازعين فيها الاستناد الى وزن شركائهما وعددهما . ان عدم ظهور فيروز في المحاكمة يعني استبعاد هذا النوع من الشهادات .

٢ ــ ان القاضي ، اي ممثل السلطة ، هو الذي يستدعي الشهادات (ص ١٢٠) ، والشهادة موضوعة تحت شارة المعرفة ــ السلطة الملكية . ولا يتكلم الشاهد بغية تفجير حقيقة موضوعية وعامة بل يتكلم لان الملك يريد ان يعرف .

« واحب (الملك) ان يستيقن ذلك (اي امر دمنة وشنزبة) وقد نصبنا للنظر في امرهما فانتم احق الا تكتموه سرا ولا تدّخروا عنه نصحا ولا تخفوا عليه حرفا . وليقل كل امرىء منكم ما يعلم . . » (النمر هو الذي يتكلم) ص ١١٣ .

ان للملك حقا مطلقا في المعرفة . انه عدالة لانه ارادة معرفة . وقد تكون المحكمة ، اضافة الى دورها في تطبيق القانون ، مؤسسة تعرف السلطة بواسطتها .

وللشهادة شروطها ومجازفاتها في وقت معا . فمن جهة ينبغي الا تعترضها عقبة ، فحق الملك في المعرفة عن طريق الشهادة ملح ولا ينبغي ان يعترضه شيء . لذلك لا يمر النمر بأي وسيط عندما يدلي بشهادته للملك . ذلك هو اساس اسطورة الملك الذي يوزع العدالة في الريف . لقد طور الساسانيون ممارسة الجلسة العامة للمحكمة التي كانت تجعل العدالة اسهل منالا، مبدئيا وتحول دون اي تمركز للسلطة على المستوى الاقليمي : «وينادي في الملأ ان كل من سيمنع شخصا من أن يقدم شكواه في هذه المناسبة ، سيرتكب جريمة ضد الله والملك ويصبح خارجا على القانون » (كريستنسن المرجع ذاته ، ص ٢٩٦) .
وفي الوقت نفسه ، الشهادة مفعمة بالاخطار . وينبغي ان تتضمن

الحقيقة بالتحديد : قليلها (أو التكتم) يعني التواطؤ (وهذا يفسر من وجهة النظر البنوية موت كليلة قبل الحل . فهو يتجنب بذلك ان يشهد ضد دمنة ويحتفظ في الوقت نفسه بصورة العادل) . ان اية كذبة او افتراء يعقبهما اجراء تعسفي من قبل الملك وموت بريء . والشهادة الكاذبة معرضة لتلقي العقاب المخصص للمتهم : وهو التهديد بالموت الذي يلوح به دمنة امام الشهود الكذبة (ص ١١٤ ــ ١١٥) (١٥) والشهادة الكاذبة هي عدم التقيد بالقواعد ، مثل سيد الخنازير الذي اقيل من منصبه واعتبر خارجا على القانون .

يقدم القاضي ثلاثة اسباب لضرورة الشهادة :

١ ــ الاول يجب ان تعرف العدالة (يعني الملك) كل شيء .

٢ ــ الثاني « ان عقوبة المذنب بذنبه مقمعة لاهل الريبة ومصلحة للملك والرعية » (ص ١١٤) .

٣ ــ « والثالثة ان الاشرار اذا قتلوا ونفوا من الارض كان في ذلك راحة للملك والرعية وصلاح لهم » (ص ١١٤) .

العدل والمعرفة مرتبطان مباشرة بالنظام . وكل محاولة للتخريب بما في ذلك التشكيك بالملك ، يجب ان تعاقب . والجدير بالملاحظة هو ان حكم الملك يتبع فورا ذكر خطر عصيان الحرس وقيام الفوضى : « ثم ان ام الاسد قالت لابنها : لئن انت خليت سبيل دمنة ــ بعد الذي ارتكب من الذنب العظيم ــ ليجترئن عليك جندك ولا يتخوف منهم احد ــ في فظيع يرتكبه ــ عقوبتك ولينتشرن أمرك بما لا تطيق لمّ شعثه ولا شعب صدعه ولا رتق فتقه » (ص ١٢٣) .

ان حق الملك في المعرفة الكلية يندرج في ممارسة تجعل نقل هذه المعرفة يتم بسرعة اكبر . لقد رأينا الدور الذي يلعبه الكاتب في المحكمة (ص ١١٨) ، تقريره يسبق ويضاعف تقرير القاضي الذي يُسجل ويحفظ في الديوان . لكنه لا تتضح فائدة التقرير بما انه لا يحدث شيء ولا يتخذ ، اي قرار بغفلة

(١٥) راجع قصة البيفائين وزوجة المرزبان . هذه المرأة تطالب بتحقيق والعقاب يطال الاعضاء ادوات الجريمة (العينين) بواسطة الاداة التي استخدمت (ص ١٢١ ــ ١٢٢) .

عن الملك، ويبدو بالاحرى ان عملية التسجيل الشاملة بما في ذلكالتقرير عن المبارزة الكلامية اثناء الجلسة ، لها علاقة بحق السلطة المطلق في ان تنظر الى كل ما يجري بتفاصيله الدقيقة . فكل شيء يجب أن يدون وينقل في السجلات الملكية . وهذه ظاهرة من ظواهر اكتناز المعرفة تشبه اكتناز الثروات بعد توجيهها نحو الخزائن الملكية .

ان الحفاظ على سبيلين مختلفين في نقل المعرفة ، احدهما سريع جدا ومرتبط مباشرة بالملك ، والآخر اكثر بطئا ، ومتنقل عبر مختلف درجات التراتب الاداري ، هو ضمانة لدقة المعلومات المنقولة ووسيلة للرقابة المستمرة . والمعرفة ، شأنها شأن الثروة ولا ينبغي أن تتعثر مسيرتها بل ان يوجهها باستمرار نحو السلطة المركزية .

لن يكون من المبالغ فيه مقارنة نظام المعرفة هذا بدآئرة الاستعلام الدائم التي اخذت في الدولة المائية شكل نظام البريد . كانت هذه الدائرة مبنية على اعمال طرق كبيرة ، وعلى طائفة من الخانات ومحطات استبدال الخيل تؤمن سرعة الاعلام ونقل المعلومات والاوامر من انحاء الامبراطورية الى العاصمة وبالعكس . وهكذا كان للسلطة وجود في كل مكان . « في عهد الخلفاء ، كان صاحب البريد الكبير هو في الوقت ذاته رئيس دائرة الاستعلامات (. . .) والخليفة يطلب من رئيس البريد ان يراقب بالتفصيل حالة الزراعة والسكان وسلوك القضاة الرسميين وحركة العملة ومسائل اخرى من الطبيعة ذاتها » (ك. ويت فوجل ـ الاستبدادالشرقي ص ١١٥) (١٦) .

ان اجراءات النقل التي في كليلة ودمنة ليست مؤشرا على عصر ولى لحظة ترجمة الكتاب الى اللغة العربية ، بل ان الاجراءات هذه تعمل كذلك في البلاد الاسلامية ونراها مثلا في ممارسات لم تعد قضائية بصورة مباشرة : في عملية جباية الضريبة في مدينة فارسية (هي مدينة قم) في القرن الرابع للهجرة (العاشر الميلادي) (١٧) .

---

(١٦) ص ١١٥ K. Wittfogel , Le despotisme oriental

(١٧) نستخدم نصا مقتبسا عن تاريخ قم وقام بترجمته الى الانجليزية ا. لامبتون A . Lambton في Peasant and Lanlord in Persia , pp. 37 — 39

ان جباية الضريبة تمر بمرحلتين مختلفتين يجري باديء بدء قياس الارض والمحصول ، ثم تجبى الضريبة ، وفي الحالتين ، تتدخل السلطة الملكية بواسطة شخصين مختلفين :

١ ـ اما مهمة المفتش فهي مسح الارض وتحديد المحصول ونقل نتائج حساباته كتابة .

يطلب منه ان يعرف الضرب والقسمة وهو يلجأ ايضا الى القياس (المقارنة بين عدة اراض) لمزيد من الصواب .

ويكتب المفتش تقريره بحضور الفلاح او ممثله ثم يرسله الى سجلات الدولة (الديوان) :

أرض الفلاح His land should be compared with land wich is like it and evaluation arrived by analogy » Lambton , p. 37 .

«Township and villages موازي (mavazi) wich are brought into cultivation after the measurement and upon which no tax has been fixed shall be reckoned on the analogy of neighbouring villages . (id. p. 38)

« على المساح الا يعلن عن رايه في قطعة الارض المزروعة الى ان يحضر المزارع (البرزجار) وممثل المالك . وبعد ان يتفقا على ما حدداه نسبة للحقل، يتوجب عليه ان يكتب ذلك في حضورهما وان يختمه بخاتمه وعلى مالك الارض كذلك ان يختمه ، وعندئذ يجب على المساح ان يقدم /المستندات/ الى السلطات المختصة » (ص ٣٨) .

يتم هكذا تعزيز الرقابة التي تمارسها الخزانة الملكية . فهي تستند الى مقارنة القياس الذي قام به المفتش بمجموع الضرائب الذي يقتطعه الجابي اثر ذلك . وهي تحظر من جهة اخرى كل محاولة غش او عدم تسوية من جانب الفلاح الذي وقع على نتيجة القياس . وبعد التوقيع لن يقبل اي اعتراض ، الا في حالة الكوارث الطبيعية .

٢ ـ الجابي . ان الرقابة لا تلين اثناء جباية الضريبة في حد ذاتها . لكن خطر عدم جباية المبلغ في كليته يدفع الجابي الى اللجوء الى الاعيان المحليين ـ الجهابذة .

« تدفع لي ضرائب الخراج في أي وقت او اية ساعة ، وسوف اكتب بها وصلا في حضور كاتب السجل اليومي الذي يكون قد تم اختياره بالنيابة عن جابي الضرائب ليراقب الجهبذان وسوف اذكر الوقت واليوم في الوصل /و/ كل ما يكون قد دفع في يوم في ايام شهر محدد فان الكاتب سوف يسجله ، وعندما يكتب بالتفصيل سوف اضيفه واختمه وارسله الى الديوان حتى تتسجل بالضبط مجاميع هذه الاشهر الاثني عشر مع لائحة الاسعار والسجل اليومي وتفاصيله ... » (المتكلم هو محصل الضرائب) ذكر في الصفحة ٤٤ .

والتحقيق في عملية تجميع الضرائب متعدد ، لا يقع على عاتق شخص واحد . هناك من جهة ، الايصال الذي يبقى في حوزة الفلاح فهو اول نص يحد من امكانية الابتزاز . والنص الثاني هو تقرير الكاتب . وبالاضافة الى ذلك ، فان الحسابات التي يقيمها مكتب الضريبة المركزي عن الاشهر الاثني عشر المنصرمة تتيح التحقق من موافقة محصول الضريبة للقياس الذي اجري . هذه الطريقة تمنح جهاز بيروقراطية الدولة جميع الوسائل لكي تراقب الفلاح والموظف الذي يجبي الضريبة في آن معا . ولكن من الوهم التصور بأن الجباة، وكذلك الفلاحين ، لم يحاولوا اختلاس مبالغ لصالحهم : حين كانت الضرائب تؤخذ عينا ، كان تحويلها الى عملة يفتح مجالا لاغتناء الجهابذة . من جهة اخرى اتاح الابقاء على الرسوم الموروثة استغلالا اضافيا للفلاحين لصالح الجهابذة انفسهم (١٨) .

ان التشابهات بين اقتطاع الضريبة ومحاكمة دمنة تنعقد بصورة اساسية حول دور الكتابة في نقل المعرفة . ومكان الكاتب اساسي في الحالتين: فهو الذي يسجل مراحل الاجراءات التي تعمل كأفعال سلطوية . والقاضي ، مثل الجابي ، يحوز بالنيابة على السلطة المحلية والمعرفة المرتبطة بها. ويمارس سلطة استخراج المعرفة كما يمارس الجابي سلطة استخراج فائض الانتاج . لذلك فكلاهما يهددان باحتكار جزء من هذه السلطة التي وضعت بتصرفهما، ويعملان على تراكمها بين يديهما بحيث تصبح ذات استقلال ذاتي بالنسبة للسلطة المركزية .

---

(١٨) لقد كانت هناك وسائل لتخفيف الضريبة في عملية القياس ذاته . وقد صاغ الفقه من جهة اخرى مفهوم اليمين الزور لاستبعاد هذه المحاولات . لكن حيل الفلاحين امام الضريبة لا نهاية لها وكثيرا ما نجح الفلاحون في تحريف تقرير المفتش دون ان يكونوا حانثين باليمين مع ذلك (ص ٤٠) ونشير الى ان مفهوم اليمين الزور قريب من مفهوم « شهادة الزور » داخل المحاكمة .

لكن الدولة الزراعية ـ المؤسسية «Agro — institutionnelle»
تناقض هذا الاتجاه اذ لا ينبغي في نظرها ان تفقد اية ذرة من السلطة او المعرفة او الثروة او ان تتعثر مسيرة هذه الامور اليها . فكل محاولة لاخفاء جزء صغير (غيضة أو مشجر صغير في حساب الضريبة ، و « كلمة » في نظر المحكمة) تعتبر انتهاكا للمعرفة الملكية وتُعاقب كجريمة ضد الله والملك .

لقد تعددت انماط العلاقة بين الجهاز القضائي وجهاز جباية الضرائب . لكن جهلنا التحرك الآلي لهاتين المؤسستين وتاريخهما ، يحول دون تجاوزنا التماثل البنيوي الذي كشفنا عنه بين محاكمة دمنة واقتطاع الضريبة في مدينة « قم » وتنبغي الاشارة الى ان الجهازين كانا يراقبان احدهما الآخر في الامبراطورية الساسانية وكانا يحدان من تجاوزاتهما . وكان الجهاز القضائي مستقلا نسبيا بالنسبة للادارة المرتبطة مباشرة بالسلطة . فهو في يد رجال الدين (١٩) . وكان بامكانه ممارسة الرقابة على السلطات الاقليمية المكلفة باقتطاع الضريبة (٢٠) . لكنه كان في الوقت ذاته محدودا نظريا بعدالة الملك (انظر ممارسة الجلسات العامة) وبامكان نبذ حكم معين واللجوء الى قاض آخر وعند اللزوم الى الملك ذاته (٢١) .

من خلال كليلة ودمنة والنص المقتبس عن تاريخ «قم»، تتجلى لنا طرق انتقال المعرفة . ينبغي لكي تكتمل الصور متابعة الدراسة في اتجاهين : من جهة في كيفية استخراج هذه المعرفة في القاعدة ، ومن جهة اخرى ، في نمط اعادة توزيعها في القمة (٢٢) .

هذا النوع من المعرفة مسكون بصورة المعرفة ـ الكنز حيث ينصهر

(١٩) « ولكن بسبب الترابط المتعذر حله بين الدين والاخلاق والحقوق ، الذي هو في طبيعة الفارسية ، كان ينبغي للجهاز القضائي في حد ذاته ، ان يعود لرجال الدين كما ان الكنيسة اذا صح التعبير كانت تحتكر العلم كله » كريستنسن المرجع ذاته ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ . Christensen

(٢٠) « كان يدير محاكم كل مقاطعة قاض ديني يسهر ، بصورة عامة ، على تحقيق العدالة، حتى من جانب السلطات الدنيوية العليا في الاقاليم» المرجع ذاته ص ٢٩٥ .

(٢١) « ... وكان يمكن اتخاذ اجراء ضد قاض كان يظهر بدافع المصلحة ، قضية مشبوهة بصفتها مؤكدة او قضية مؤكدة بصفتها مشبوهة » . كريستنسن ـ المرجع ذاته ، ص ٢٩٨ .

(٢٢) لدى الساسانيين بواسطة مدرسي الطبقات المقفلة .

الدين والحق في مجموعة هائلة من المعارف (٢٣) . وما يذهب برزوية للاتيـان به من الهند هو كنز حقيقي ، فهو محفوظ بصرامـة من قبل اولئك الـذين اشتركوا في تكوينه انفسهم (الكتاب Les scribes) . ولا يمكن نقله الا من كاتب الى كاتب والنقل هـذا يجري سرا ، نظرا لان ارزوية حزر مهمـة برزويـة السرية .

(٢٣) في **الافستا الساساني** فكرة عن ذلك : « فكان (اذن) ليس فقط « يضم » النصوص التي كانت تستخدم للعبادة ، بل يشكل في الوقت ذاته نوعا من الموسوعة لجميع العلوم ، علم الكونيات (الكوزمولوجيا) والاخرويات (سكاتولوجيا) والتاريخ الاسطوري ، وعلم الفلك .. » ـ المرجع ذاته ، ص ١٢٧ .

- ٤ -

قواعد السلطة

ان محاكمة دمنة تعين بوضوح وظيفة كتاب ابن المقفع : فكتاب كليلة ودمنة تمجيد للمكان الثاني ومرافعة متواصلة من اجل تقعيد «réglementation» السلطة الملكية . بل هو كتاب الكتّاب في مجتمع زراعي ــ مؤسسي قام على مؤسسات الري الكبرى التي تديرها بيروقراطية ضخمة . ونجد فيه انعكاسا من وجهة نظر الكتّاب، لآلية المؤسسة القضائية ولعلاقة الحكم الملكي برؤساء البيروقراطية (المستشار ، الفقيه الخ) .

لكن الكتاب ، دخيل من حيث اصوله ، بالنسبة للمجتمع الاسلامي ، وذلك لسببين . فقد انتج في الهند ، ثم في فارس قبل ترجمته الى اللغة العربية . لكنه تنقل في مجتمعات يسيطر عليها ما يسمى بالدولة « الاسيوية » وهي مجتمعات يختلف بعضها عن بعض في عدد من المظاهر .

أ ــ لا يمكن البحث في كليلة ودمنة عن الانعكاس الدقيق لمجتمع معين، ويجب في الواقع ان نأخذ في الحسبان مؤشري تحريف عملا في النص : الاول يأتي من كون الكتاب نتاج طبقة خاصة ، والثاني هو واقع التحولات الحتمية التي احدثتها الترجمة .

لا يمكن تحديد زمن التحريفات التي طبعت النص ومواطنها لاننا نجهل النصين الهندي والفارسي . ويبدو ان كليلة ودمنة ناتج بشكل مباشر من المجتمع الفارسي او انه اقرب من صورة هذا المجتمع بسبب الظروف التاريخية المحددة التي تُرجم فيها . ويبقى من الوهم على كل حال البحث عن تشابه بين المجتمع الاسلامي والاوضاع الموصوفة في الكتب .

سوف ننظر اذن في المجتمع الفارسي . لقد وصفه كريستنسن بأنه نتيجة لتداخل ظاهرتين : « الاقطاعية » و « الاستبدادية البيروقراطية » (ص ٩٥) وذلك ما سمح له بالكلام عن « بيروقراطية اقطاعية » (ص ٣٥٥). ولكن يبدو ان وجود الطبقات الكبيرة المقفلة التي كانت تحتل وظائف وراثية عالية لم تكن تتعدى على مركزية الادارة . والادارة هذه كانت تملك السلطة وتمارس سيطرتها على مجمل البلاد وذلك ما يفسر أهمية الكتاب الاساسية في هذا المجتمع .

انعكست هذه الاهمية في مفهوم التنظيم الاجتماعي المصور في **الافستا** الساساني. ونجد فيهثلاثة انماط لتقسيمالفئات الاجتماعية : «les etats» الاوضاع والطبقات واجهزة الادارة وسنعني فقط بالتقسيم الاول الموزع حسب اربعة اوضاع متميزة :

١ ــ الوضع الكنسي : آسرفن
٢ ــ وضع المحاربين : ارتيشتاران
٣ ــ البيروقراطية : دبهران
٤ ــ الشعب (الفلاحون فسترفشان والحرفيون او البورجوازيون) (٢٤) .

لقد كشف ج. دوميزيل «G. Dumézil» في هذا التقسيم نتيجة لتحول « الوظائف » الثلاث الاندو ــ اوروبية التي ما تزال على كل حال تشكل طبيعة « الاوضاع » : « من الواضح انه في نقطة واحدة على الاقل من العالم الاندو اوروبي ادت نظرية الطبقات الاجتماعية الى انتاج شكل من هذا النوع .

فالافستا تعرف توزيع البشر على ثلاثة مستويات متراتبة : الكهنة ، والمحاربين ، ومربي الماشية ــ المزارعين ، الذين يضاف اليهم احيانا في مرتبة رابعة الحرفيون . لكن هناك عدة نصوص في القرون الوسطى ، توزع بصورة مختلفة كتلة النشاطات البشرية في الرتب الادنى من الطبقتين العلويين الكهنة والمحاربين فهي توحد الحرفيين ومربي الماشية ــ المزارعين في طبقة واحدة ،

---

(٢٤) كريستنسن ــ المرجع ذاته ، ص ٩٣ .

هي الرابعة والاخيرة والمرتبة الثالثة تمنح لمن يمكن تسميتهم « بالمثقفين الصغار » » (٢٥) .

اذن ، لقد سلخت البيروقراطية من الاوضاع الاخرى ونظمت في مرتبة منفردة . والتحويل هنا ناتج عن وضعها المركزي في عمل الدولة الساسانية . « من المرجح ان ابراز الكتاب وصغار اختصاصيي الذكاء او على الاقل اختصاصيي التعليم ، ووضعهم فوق عامة الشعب من « ناس الخدمة » قد تم بفعل الكتّاب انفسهم وقد حفلت بهم الامبراطوريات التي تعاقبت على الارض الفارسية » (٢٦) .

ماذا يبقى من اسطورة الوظائف الثلاث في كليلة ودمنة ؟

ان تشتت مختلف الحكايات لا يتيح لنا تعميم الملاحظات التي يمكن ابداؤها حول بعض مقاطع سريعة نذكرها هنا :

في الصفحة (٥٢) التمييز التالي «وانما يستخرج ما عند الرجال ولاتهم وما عند الجنود قادتهم وما في الدين علماؤه » .

وقد تبدو هنا ثلاث وظائف : وظيفة الجنود ، والحاكم ، والعلماء (او وظيفة الكتاب ؟) « وقد قيل في اشياء ثلاثة فضل ما بينها متفاوت : فضل المقاتل على المقاتل وفضل العالم على العالم وفضل الفيل على الفيل » (٥٢ — ٥٣) .

وقد تقدم ا. ميكيل (٢٧) بتفسير هذا المقطع على النحو التالي :

« لا شك انه ينبغي هنا التعرف الى انماط الذكاء الثلاثة : الذكاء التأملي ويجسده العالم ، والذكاء العملي ويجسده المقاتل والصفات الجسدية المرموزة اليها بالفيل » (ص ٣٢٨ الحاشية رقم ٣٤ من الترجمة الفرنسية) .

ولكن ليس ثمة اي سبب يسمح بالانتقال من المعنى الصريح للنص الى

(٢٥) جـ. ديميزيل ـ الاسطورة والملحمة ، الجزء ١ ، ص ٨٥ . G . Dumézil — Mythe et épopée.

(٢٦) ديميزيل ـ المرجع ذاته ، ص ٨٦ .

(٢٧) مترجم كليلة ودمنة الى الفرنسية (ملاحظة من المترجم) .

تلميح افتراضي لوظائف ذهنية وجسدية . والمقطعان اللذان استشهدنا بهما يختلفان حول نقطة واحدة . فالحاكم الذي في الاول حل مكانه الفيل في الثاني. والفيل هو رمز ملكي ليس الا ، ففـي قصة ارخت عندما يسعى البراهمـة لتدمير قوة الملك فانهم يطالبون بموت « الفيل الابيض » (ص ١٩٦) بقدر مـا يطالبون بموت مستشاري الملك الآخرين . ومن جهة اخرى يتلقى الملك عددا من الهدايا واول ما يصطاف منها « الفيل الابيض » (ص ١٩٨) .

فنحن اذن ما زلنا امام الوظائف ذاتها : المقاتل ، الحاكم ، العالم .

لكن الفيل رمز للقوة والحرب في وقت معا (ص ١٩١ : « الفيل الابيض الذي تقاتل عليه . . . ») وقد يعني ذلك ان شخص الحاكم ليس متميزا تماما من وجهة نظر الخصائص الوظيفية عـن شخص المقاتـل . فلا يبقى اذن اثر لـ « لوظيفة » الاندو اوروبية الثالثة وظيفة الحرفيين ـ المزارعين . فهل ذلك مرده الى عملية تأثير للنقل من لغة اندو ـ اوروبية (الهندوكية او البهلوية) الى لغة سامية (العربية) او ان التحويل قد جرى قبل الترجمة الـى اللغة العربية بزمن طويل ؟

يبقى ان مكانة الكاتب هي التي تتعزز دائما على هذا النحو .

٢ ـ اذا كان كليلة ودمنة يجد مكانه بسهولة في المجتمع الفارسي، الا يكون غريبا اي لا مباليا ازاء المجتمع العربي ؟

كيف يمكن لكتاب وضع لأجل الكتّاب أن يجد مكانا له فيمجتمعتجتازه الصراعات القبلية ذات المنطق الغريب عنه تماما ؟

لكن السلطة ليست مجالا موحدا للتملك (او الاقتناء) بل هـي قابلـة للتقسيم والتقاسم والاحتكار ، وتتوق اليها جماعات اجتماعية متنازعة وذلك وفقا لانماط مختلفة . في عصر ابن المقفع ، كانت تخوض الصراعات المستمرة فئات اجتماعية (لا تختلط مصالحها) لكنهـا تتوافق أحيانا حسب معـدل التحالفات التكتيكية . كان رهان الصراع تولي السلطة المباشر لكن الاعلان عنه لم يتم الا في تعابير الشرعية . والصراع هذا ينعكس في ايديولوجية مركزة على قضايا **منشأ** السلطة **وشرعية** انتقالها داخل هذا الفرع القبلي او ذاك . وعلى هذا النحو كانت تحجب طبيعة السلطة : ان علاقات السيطرة وعلاقات التبعية

لا تظهر داخل صراع ليس هدفه طعن هذه العلاقات بل تغيير اشكــال تقاسم السلطة (٢٨) .

وجهة النظر هذه غريبة عــن مطالب كتّاب الامبراطورية الساسانيــة القديمة . ان اعادة التنظيم الاداري الذي قامت به الدولة الاموية قد زعزعت اسس سيطرتهم السابقة وسيرة ابن المقفع نموذجية في نواح كثيرة . فالتشيع لقبيلة معارضة للخلافة الاموية كان طريقا سلكها الموظفون القدامى الذين كانوا يسعون لاستعادة اوضاعهم القديمة. فيالامبراطورية الساسانية القديمةكان تقنين العلاقات السياسية وسير المجتمــع يضمن استقرارا كبيرا افــاد منه الكتّاب بصورة مباشرة . لكن مع الفتح العربي، تداخلت صراعات جديدة ، عطلت بسبب هيمنتها تطور تكتيك مستقل من جانب الكتّاب . فأصبح مطلبهم الاول والاساسي استقرارا اكبر في الحكم **وتقعيدا له** . وسوف تجد السلطة السياسية وحدهــا ، مكانا في اقوالهم لانها محــور المسألة وليس مسائــل الشرعية ، وذلك حتى في حال عقد تحالف مع بني هاشم . ومن جهة اخرى ، فالتقعيد « La réglementation» المطلوب يختلف عن تقعيد آخر كــان قد برز داخل الجهاز الاداري الناشىء ونجده عند ابي يوسف ، قاضي الكوفة . والعدالة هي موضوع بحثه : فهي في نظره شرط لجباية افضل للضرائب اي انها شرط للسلطة (٢٩) .

ب ــ ان مقال « discours» ابن المقفع تلفظ به من موقع متوسط هو نقطة تجمع ممارسات مختلفة ولحظة رئيسية في تأسيس قوة اجتماعية جديدة . هذا الموقع هو الذي يمنح القول مجال رؤية خاصا به ، وهو يفسح من جهة اخرى ، مكانا مميزا لترجمة « كليلة ودمنة » ولظهور اقوال اخرى مدونة في رسائل ابن المقفع او في نصوصه المختلفة . وموضوعات هذه النصوص ليست غريبة عن موضوعالحكايات. وهيتغنىباقامة انتظام معين فيممارسةالسلطة تتيح مأسسة « l'institutionnalisation » علاقات التبعية الثابتة. لذلك

(٢٨) ان منظورا من هذا النوع هو الذي يشكل اساسا لعمل مثل « تاريخ العرب قبــل الاسلام » للاصمعي .

(٢٩) « واني لارجو ــ ان علمت بما فيه من البيان ــ ان يوفر الله لك خراجك من غيــر ظلم مسلم ولا معاهد ويصلح لك رعيتك فان صلاحهم باقامة الحــدود عليهم ورفــع الظلم عنهم والتظالم فيما اشتبه من الحقوق عليهم » . ابو يوسف ــ كتاب الخراج، ص ٦ .

كان من الضروري ان تعرف اسس الحكم وان يحدد ايضا مجال تقلباته . كان ينبغي اذن ان توصف السلطة في تبدلاتها اي ان تصنف نوعا ما . وكان على الطبقة الوسيطة (طبقة الكتاب) ان تعدد وجهات نظرها ، وان تقيس باستمرار المسافة التي تفصلها عن السلطة والاخطار التي تتعرض لها في مواجهتها لكل نمط من السيطرة .

(١) اسس السلطة :

وصفت السلطة دفعة واحدة على انها نموذج للسيطرة وملازمة الخضوع . ولا يمكن ان يكون مصير الحكم مجالا للطعن في موقف من هذا النوع لكنه من الممكن البحث في شرعية او عدم شرعية التمرد بسبب الفصل في مبادىء الحكم بين سلطة جيدة وسلطة سيئة **(وليس بين سلطة شرعية او غير شرعية)** .

ويمكن النظر الى السلطة من وجهتي نظر : من حيث علاقاتها بأسسه ، ومن حيث علاقاتها بأولئك الذين تخضعهم .

من وجهة النظر الاولى ، يقر ابن المقفع بثلاثة انماط للسلطة : ملكية قائمة على **الدين** ، واخرى على **القوة** ، وثالثة على **الهوى** (اي الشغف)(٣٠).

لكن وضع تصنيف السلطة يحمل على الظن بوجود نوع من الحرية في مجال الخضوع للحكم . حينئذ كيف يكون الرد على السؤال التالي : هل ينبغي ، الخضوع للسلطة ام لا في حال لم يُحترم الدين اي اساس السلطة ؟ يبدو ان ثلاثة اجوبة ممكنة واما ابن المقنع فيتبنى حلا وسطا (٣١) .

اولا : اذا امر الامام بعصيان تعاليم الله ، فمن الشرعي التمرد عليه ، كما ان الطاعة شرعية في الحالة المعاكسة .

ثانيا : يجب اطاعة جميع اوامر الامام دون البحث في موافقتها ام لا للتعاليم الالهية .

---

(٣٠) الادب الكبير ، ص ٢٨٤ .
(٣١) من الممكن ان نبين تطابق كل جواب مع وجهة نظر اقرها التاريخ فعليا ، رسالة في الصحابة ، ص ٣٤٨ .

وابن المقفع ينبذ الجوابين ، لان الاول من شأنه ان يبرر ، اذا استكمل ، طاعة اشخاص غير الامام (وهنا ضمنا فرضية لرفض الشرعية) والثاني لانه من شأنه ان يطلق العنان لحكم الامام الاستبدادي .

ويبدو ان الحل الذي يتبناه ابن المقفع وسط حسابي للجوابين الاولين : انه يؤكد ان على كل مخلوق الا يكف عن طاعة الله وان يطيع الامام ايضا. وعليه من جهة اخرى الا يطيع الامام الذي لا يتبع التعاليم الالهية . لكنه في الواقع يحصر هذه التعاليم في اعمال العبادة وينتقص مجالات العصيان فلا يبقى للفرد حرية التمرد حتى في حين اعتبر ان هناك تناقضا بين واجبه الديني وخضوعه لسلطة رميت بالكفر .

ويقر ابن المقفع للامام بحقه الخاص في ان يطاع بسبب صفات خاصة يملكها (ص ٣٤٩) . ولا يمكن ان يعامل معاملة سائر الخلق وان كان مساويا لهم من وجهة نظر احترام التعاليم الالهية . ووجهة نظر ابن المقفع ليست في مستوى الحلين الاولين ولا تسعى للمصالحة بينهما ، ولا تطاق في نظره فكرة قياس السلطة بمثال اخلاقي يعلوها . وهو يحصر رفض الطاعة في ميدان ضيق لا يمس جوهر السلطة واسسها .

ما هي الحقوق العليا التي يملكها الامام ؟ (ص ٣٤٩ و ٣٦٦) . حقوق فرض الامن داخل المملكة ، والاستئثار بالحرب والعدالة . وهذه الحقوق لا تختلف عن تلك التي يتمتع بها ملك دولة زراعية — مؤسسية ، وهي تعارض سير العدالة في شكل الثأر وتناثر القوة المسلحة في وحدات مستقلة .

ان اقرار هذه الحقوق للسلطة ، معناه وضع قضية تنظيم او تقعيد « La reglem entation » السلطةدون قضيةامتلاكالقوةالنظريةوالعملية. ان الحل الاول ، بمنح حق التمرد للرعية يتيح لها ايضا امتلاك القوةالمسلحة الضرورية . والحل الثاني يطرح كذلك المسألة بتعابير القوة : فتفوقالامام، عسكريا ، هو الذي يجعل الطاعة ضرورية .

وقد يدخل الشر كذلك الى رعايا الامام . ويميز ابن المقفع درجات تراتبية في العلاقات بين الامام ورعاياه (٣٢) . . ١) يضع في القمة درجة

(٣٢) اليتيمة ، ص ٣٦٦ .

التفاهم بين امام وشعب كلاهما فاضل ، فالملك يقوم بواجباته في الدفاع عن رعاياه ضد كل هجوم معاد ، وفي اختيار الولاة لهم ، وفي ضمانة الامن والعدالة . ٢) وفي الدرجة الثانية ، قد يكون الامام فاضلا والشعب فاسدا . ٣) يعتبر الوضع المعاكس اكثر سلبية من الحالة الثانية لان الوالي يستطيع تحويل شعبه لكن العكس مستحيل (الف رجل فاسدون رعايا ملك فاضل هم افضل من الف رجل فاضل رعايا ملك فاسد) . لان في علاقة الحاكم والمحكوم لا يكون للرعية اية قدرة على مقاومة تجاوزات السلطة ولا على تربيتها. ويبقى شيء لم يعلن عنه وهو حيازة السلطة على جهاز القمع .

ان القواعد التي ينص عليها ابن المقفع لا تؤثر الا من حيث اقامة منطقة آمنة داخل علاقة حيث يفلت منها الاساسي ولا يكون موضوع تحليل لانه يقع خارج سيطرة ممكنة من قبل الطبقة التي يمثلها . ان تحديد تغيرات السلطة يجري في اطار لا يظهر فيه التغير الا على شكل انحراف بالنسبة للضابط (قانون) .

البارز في كلام ابن المقفع ، هو انه لا يحدد في اية لحظة وسائل وصول طبقته الى السلطة ، وهو لا يحلم بجمهورية الفلاسفة ولا بمملكة الحكماء . والطبقة التي هو جزء منها ليست مستبعدة سوى جزئيا من السلطة ، اي من مراجع التقرير والتنفيذ ، وهي تسعى الى ضمان استقرار اكبر لوضعها والى تحسين علاقاتها مع السلطة بعد ان تعرضت جزئيا للخطر .

(٢) اختيار المستشارين :

لا يستطيع الوالي ان يحكم وحده ، وعليه ان يختار مستشاريه بنباهة والا ينخدع بالمظاهر . والوالي بحاجة الى مستشار يكسبه المزيد من القوة ، والى آخر يتغنى بمحامده (الادب الكبير ، ص ٢٨٧) ، والاثنان يمثلان السلطة التنفيذية والدعاية نوعا ما ، علما بان السلطة التنفيذية لها الاولوية . ولا بد من حسن الاختيار لان المستشار الذي عين في القمة سوف يختار موظفين من طرازه ، وهكذا حتى اسفل السلم (٣٣). اذن فالادارة تكتسب مبادئها ابتداء من قمة السلم . وربما كان في الامر محاولة لحل مشكلة الادارة التي ينبغي ان يعاد تكوينها بعد مرحلة من التفكك الجزئي ، ابتداء من القمة حتى اسفل

---

(٣٣) الادب الصغير ، ص ٣٢٥ .

التراتب الاداري ، اي في القرن والقبائل (٣٤) وذلك على اساس معايير محددة يلخصها مفهوم **المروءة** (٣٥) .

واثناء ذلك ، تواصل السلطة الاستناد الى قوى مستقلة تستوعبها او تنبذها (٣٦). اما استيعابها فلا يتحقق الا اذا كانت تستجيب لمقولات **الادب** المنتسبة الى **المروءة** وتعين نوعا من اللياقة اقرب الى السلوك السياسي منه الى الاخلاق الدينية .

(٣) سلوك المستشار :

بعد تحديد طبيعة السلطة ، يتم ذكر سلسلة من الارشادات التي ينبغي ان تتيح للمستشار فرصة الافادة من السلطة الى أقصى حد واجتناب التعرض لاهواء السلطان . والمعروف ان لا احد في الدولة الزراعية ـ المؤسسية بمأمن من اعمال الحاكم الاستبدادية ، وهذا واقع سيأخذ ابعادا هائلة في عهد العباسيين (٣٧) .

وفي تقرّب المستشار من الحاكم ، تطور حرب مناوشات لفظية الهدف منها رفع شأن المستشار في نظر الحاكم . ويحدد ابن المقفع مختلف الوضعيات

(٣٤) الادب الكبير ، ص ٢٨٢ .

(٣٥) بشر فارس E. I. ملحق **المروءة** . قد يكون لهذا المصطلح في الاسلام معنى مجرد، انه « يتماثل مع الاخلاق والعادات الجيدة » (ص ١٧٠ أ) « وبالاجمال مع الخلفاء السنة ، يدل المصطلح على الطهارة والطبيعة الطيبة ، والتقيد بسنن القرآن ومع الامويين له صلة بالسياسة ، والدبلوماسية ، والعمل ، والكرامة والرحمة (...) ومع العباسيين الاوائل يستلزم هذا المفهوم الفضل (كليلة دمنة ..) ويناقض الدناءة (...) في حين انه يتماثل ، لدى الاخلاقيين مع الادب بمعنى اللياقة والسلوك الجيد (...) » (ص ١٧٠ ب) .

(٣٦) الادب الكبير ، ص ٢٨٥ .

(٣٧) « كان عرض الرؤوس ، وعمليات الاعدام المرتجلة ، جزء من الحياة اليومية لبلاط العباسيين . مثلا في عهد المنصور ، حين كان رجل يستدعى بصورة عاجلية الى القصر من قبل حرس الخليفة ، فانه يعرف ان هناك احتمالا كبيرا بعدم عودته حيا . فيكتب الرجل وصيته ، ويودع عائلته ، ويأخذ كفنه تحت ابطه » . غوديفروي ـ ديمومبين Gaudefroy Demombynes . اورده كارل ويتوفوجل Karl Wittfogel الاستبداد الاسيوي ، ص ٢١٤ ـ ٢١٥ .

التي ينبغي على المستشار ان يتبناها ويحدد مواطن الصمت والكلام والوضع الجسدي الخ .

ومصير المستشار مبهم يتوقف على هوى الملك . في هذا الصدد ، كانت الاخطار التي تعرض لها بيدبا بليغة . وقد تعرّضه اية معارضة وان بسيطة لزوال حظوته لدى الملك او الموت . لذلك يقول ابن المقفع انه من المستحيل ابداء راي الوالي بل ينبغي الاكتفاء بتأييد آرائه الفاضلة . ولا ينبغي ان يظهر المستشار للملك ان آراءه خاطئة ، بل تكفي الاشارة الى ان الراي الآخر صحيح كي يرى هو ذاته اين يكمن الخطأ (٣٨) . ان دور المستشار هو دور السند ، ولا يقوم الا على ضبط تجاوزات الملك ويكون هو ذاته محرجا . وليس لديه سلطة تقرير الا بمقدار ما يعكس راي الوالي ويعمل في نقل الاوامر الصادرة من فوق . ان هذه المحاولات لتقعيد تجاوزات السلطة لا تنبع من غاية اخلاقية عليا بل من الرغبة في تدبير الامر باقل ما يمكن من الخسائر .

ان فرضية ملك فاسد تجد المستشار في عجز تام عن تحويل الوضعية. فاذا سلك طريق الملك اساء الى الدين، واذا رفض تعرضت السلطة للانهيار فلا سبيل امامه سوى الفرار (٣٩) او الموت . وانه لامر ذو دلالة ان يختار ابن المقفع الخضوع للملك حتى في هذه الحال . ذلك لان السلطة ، قد تضعف من جراء التشكيك بطابعها الاخلاقي وتصبح الطبقة الوسيطة هي المعرضة للمس. لذلك يتحدث ابن المقفع عن الفرار وليس عن العصيان او الحرب الاهلية .

ان بلاط الملك مسرح ينبغي ان يُضبط فيه الكلام والوضعية . واذا كان ظهور الانتقاد في الخطاب غير وارد ، فغير وارد كذلك ظهور شيء في النظرة او الوضع . ومن الضروري الا يؤخذ داخليا شيء على الملك خوفا من ان يبرز الى الخارج (٤٠) . وينبغي ان يتجاوب النظر مع الكلام . وان يتطور التدخل حسب تكتيك حقيقي لا يتعدى على التدخلات الاخرى ، ويعرف اين يضع الكلمة الصحيحة وان يمتنع عن الكلام عند الضرورة ، الخ ، ان يأخذ في الحسبان منافسة المستشارين الآخرين له . وينبغي تجنب اي انتقاد لان حسد الآخرين قد يبلغ الملك بأي شيء حصل .

---

(٣٨) الادب الكبير ، ص ٢٨٦ .
(٣٩) المرجع ذاته ، ص ٢٨٩ .
(٤٠) المرجع ذاته ، ص ٢٩٠ .

ان الكلام هو اداة الفكر ، والجهل ، والغضب ، والهوى . فاذا كان الفكر هو الذي يتحكم به امكنه حينئذ ان يخدم مصالحه والا افاد منه الآخرون ضد المتكلم وكل كلمة في غير موضعها يمكن ان تسبب ، فقدان المستشار لمركزه . وتدور حول العرش باستمرار حرب خفية لا بد من اخمادها والسيطرة عليها في شكلها : وينبغي الا يظهر المرء لعدوه انه مستنفر . وابن المقفع لا يبحث عن وسائل لوقف الصراع ، بل لضبطه في صيغة شكلية . ويسعى لان يحل محل الصراع المسلح المكشوف والدائم الذي يهز المملكة صراعا سلاحه الوحيد الكلام . وهذا لا يمكن الا ان يفيد منه الكتاب .

القسم الثالث

استخراج المعرفة

خلال القرون الثلاثة الهجرية الاولى ، طرا على « الادب » (بمعناه الواسع) تحول بطيء ادى الى انقراض اشكال قديمة للتعبير . وفي هذا العهد اخذت تظهر انواع « ادبية » جديدة مرتبطة بالتحولات الحاصلة في المجتمع . والى جانب ذلك ، طرا على الوظائف الفكرية ايضا تغيير مهم واصبح شكلها في القرن الثالث (للهجرة) مختلفا تماما عما كان في القرن السادس (ميلادي) .

ان « تاريخ الافكار » الذي بناه الاستشراق قد عمل بمفهوم خاطىء للثقافة . ومع انه اخذ في عين الاعتبار العلاقات التي تربط الثقافة بالجسم الاجتماعي ، فقد صور هذه العلاقات في شكل التعبيرية . لقد حاول ذلك التاريخ التعرف في سياق « الادب » الى عناصر الواقع الاجتماعي ، ونبذ عن تجارب فردية او جماعية . وقد قرا في الشعر الجاهلي حياة البدو اليومية ، وبحث عن تنوع الموضوعات في الاعمال الادبية اللاحقة، وحاول تصنيف مختلف التأثيرات (١) ، الخ واخيرا ، شرع في مهمة كشف التواءات الروح في الكتابات والانواع الادبية ونتائج لقائها بوطنيات اخرى .

في مفهوم من هذا الطراز ، لا تملك « الثقافة » سوى واقع الصورة وان بدا انها تستند الى كائنات مادية . ولا تكون الا في مساراة يتقمص فيها كاتب شخصية تاريخية يتوقع ان تفرغ تجربتها الذاتية في اقوال او كتابات .

هكذا يجهد الاستشراق للتعرف الى « ذات » (un sujet) في كل كتاب يتناوله ، وهو يحقق منه صورة تقريبية انطلاقا من المضمون الذاتي الذي يميزه فيها . وعلى هذا النحو ، تصان في نظره ، وحدة كل انتاج ادبي في

---

(١) لقد طرح مسألة معرفة اللحظة التي طرا فيها على الشعر التأثير الاسلامي على مستوى الموضوعات .

النية ــ الاصل التي تكون اساسا له عبر تفتته الواقعي . لذلك فهو لا يضع موضع الشك ابدا بديهية علاقة المؤلف بالكتاب . ان انفراسها في المجتمع العربي ــ الاسلامي لم يطرح مشكلة بالنسبة لتاريخ اكتفى بربط بلبلة الفكر بتفكك الكائنات .

ولكن لا يكفي فصم علاقة المؤلف بكتابه لاعادة المعنى التاريخي لهذين الكيانين . والاكتفاء بالفصم يعرّضنا لتعميم العلاقة المجرد لا غير : وتصبح « الثقافة » انعكاسات للروح القومية او الاتنيه التي تقاس ثوابتها على ممر العصور .

بذلك نقترب من مفهوم « للثقافة » بصفتها تراثا يجب صيانته . كتابة تاريخ « الادب » ، يكون مثلا ، بدراسة التواءات طرق النقل ، والتشويهات التي طرأت عليه ليبلغنا . وفي هذا الاطار ، يصبح المؤلفون نقاط عبور منتجة نوعا ما ، محرفة أو مشوهة للتطور الثقافي المتواصل .

ماذا يكون تاريخ الادب لبلاشير «Blachère» ان لم يكن التحقيق الدقيق لهذا النموذج من التاريخ (٢) انه يستعيد لحسابه التمييزات التقليدية بين الشعر والنثر ، والشفهي والكتابي ليصهرها في تاريخ استمراري تشكل فيه هذه التمييزات انتقالات ثانوية . وقضية الانتقال من الشفهي الى الكتابي ستصبح مقتصرة على معرفة زمن بداية التدوين ، والذي قام بذلك اولا . وهذا مفيد دون شك لكنه لا يتيح طرح مسألة العوامل الاجتماعية التي كانت وراء هذا الانتقال . وكذلك سيجري فيما يتعلق بظهور النثر احصاء انواعه المختلفة : الخطابي منه والرسائلي الخ ، وما سبق ان وجد والدخيل الذي ضبط بالكتابة العربية .

في تاريخ من هذا النمط يصبح الانتاج الادبي عملا متجانسا مع تمييز الانواع المختلفة . ان اللجوء الى التفاصيل التاريخية (العائدة بالاصح الى النادرة الذاتية) لا فائدة له الا لدعم موضوعات الكتاب وتقديم تصنيف للانواع على هذا الاساس . والكتّاب هم الذات المتحدثة ، واختباراتهم وذاتيتهم

---

(٢) لا نريد ان نشكك في الصحة العلمية لهذا الكتاب ، بل نريد تحديد مسلماته لنحدد مستوى الخطأ . ومن جهة اخرى فان **تاريخ** بلاشير يقدم لنا عناصر وفيرة تمكننا من البحث في وجهة النظر التي تشكل اساسه .

توزعهم في فروع ادبية متميزة ، لا يعترف لها بأي اختلاف اساسي ، بل هي ميادين متجاورة في حقل مشترك ، يحيط كل منها حسب طريقة خاصة بجوانب من الواقع . وقد امكن على هذا النحو تأسيس تواريخ مستقلة لكل فرع : تاريخ الادب ، تاريخ قواعد اللغة ، تاريخ الفقه ، الخ (واذا كان كلام عن لقاء بين مختلف الفروع فقد ورد دائما بصيغة التأثيرات) . وهي فصول تاريخ شامل لـ « الحضارة » العربية ـ الاسلامية .

ونتيجة اخرى لمسبقات «les présuposés» هذا التاريخ تكمن في كيفية عرضها للوظائف الفكرية . فلا يعترف لها بأي وزن حقيقي وان كان يجري تحقيقها في شخصيات تاريخية لا تملك اية وظيفة اجتماعية اخرى . وكأن المرء يعتزل الصراعات السياسية العنيفة ويصبح مراقبا محايدا ومستقلا اذا ما اصبح كاتبا او قارئا او نحويا . وهكذا فان ظهور الوظائف الفكرية المستقلة ، وتطورها واختلافها تعود الى التاريخ المتواصل الذي يتبع منطق تحسين اساليب تجميع الثقافة ونقلها .

سنحاول بصدد قضية الاحصاء ان نعين الاتجاه العام لتحول الوظائف الفكرية ونتناولها على مستوى العوامل لا غير .

١ ـ الشعر الجاهلي

ان تحليل الشعر الجاهلي تمكن من اعتماد التصور العام نفسه الذي يحدد مكانه في المجتمع . وذلك على اساس عناصر ثلاثة . الشاعر (= المؤلف) والشعر (= المادة الشعرية) والراوي (الناقل = وسيلة النشر) .

ان الانتقال من الشفهي الى الكتابي يمكن وصفه انطلاقا من هذا التصميم بانه تحويل داخلي ثانوي للعنصر الثالث ، اي وسيلة النشر ، مما يحافظ على خط واحد يستمر من الناقل الشفهي الى الناقل الكتابي ومنه الى جميع جامعي الشعر في القرون الثلاثة الاولى. وقد ينوّه من جهة اخرى بعنصر آخر ، وهو الجمهور (راجع الشلقاني) .

ويبدو ان ثنائية الشاعر ـ الشعر لم تشكل وحدة واقعية في المجتمع القبلي ، بل هي ناتجة ، في الاصح ، عن اسقاط غير مشروع لمفهوم حقوقي للمؤلف ، بصفته مالكا لاعماله ، وهو مفهوم يفترض ان الفرد قد اصبح ذاتا

حقوقية في القبائل . ولكن الوصول الى فكرة الكاتب ، المؤلف ، في القرن الثالث (للهجرة) تقضي بظهور ملكية فردية في المدن الى جانب الملكيةالجماعية القبلية، بيد ان العلاقات بينالشاعر وقبيلته كانت اول ما نقض بعد الاسلام، واحدثت انماطا جديدة من تملك الشعر .

لقد اكدوا على كيفية عمل الشاعر (على الاقل حسب ما يبدو بالمقارنة مع الشعر البدوي الذي وصلنا (٣) اي **الارتجال** (ص ٨٧) بالتعارض مع وظيفة **النشر** التي يقوم بها الراوي (٤) . انما دور الراوي في مضاعفة شخص الشاعر او في كونه الناطق بلسانه . انه يحتفظ باستقلالية على عدة مستويات :

ـ والواقع انه يستطيع ، من جهة ، التأثير في القصيدة ذاتها، وتحويلها، وتصحيح ما يعتقد انه خطأ ، واعادة روايتها في الشكل الذي يروق له. ونظرا لانه هو الذي يحفظ القصائد في ذاكرته ، فانه لا يمكن ان يعارضه احد برواية اخرى على انها هي الاصلية المعتمدة . ان وظيفته في الحفظ تعطيه الافضلية نسبة للشاعر في حفظ قصائده حين ينساها هو ، وتفكيك وحدتها ، وخلط ابيات الشعر لمختلف الشعراء ، (٥) الخ .

ـ ومن جهة اخرى ، فهو يطيل زمن القصيدة الى ما بعد موت صاحبها المفترض وينتهي بذلك من نزع ملكية الشاعر لها وان كان النقل يدخل عنصرا جديدا . « والواقع انه لم يتول في هذه اللحظة نشر ابيات سالفة فقط ، بل جمعها كلها وذكر الظروف التي قد اوحت بها » (١ : ٩٢) . وسيقدم النقل على هذا النحو عناصر سيرة توحد القصيدة على مستوى الموضوع والظرف ليجعل منها نوعا من الاسطورة .

---

(٣) « حول صياغة القصيدة التقليدية ليس لدينا سوى بعض المعطيات التي صنفها كرينكو Krenkow ... والتي يحسن تصحيحها واستكمالها بالمعلومات المصرية المستمدة من موزيل Musil ومونتاغ Montague ولوسيرف Lecerf » بلاشير ، تاريخ الادب ، الجزء ١ ، ص ٩٠ — ٩١ .

(٤) الراوي هو « شخصية لم تؤكد حقيقة وجودها » (المرجع ذاته ، الجزء ١ ، ص ٩٢). لكن دوره ، بالمقارنة مع الوضع الحالي ، لا بد انه كان كبيرا .

(٥) يمكن التساؤل ما اذا كان فضح عدم صحة القصائد على مستوى نسبتها قابلا للتبرير .

ان نزع ملكيــة الشـاعر لاشعاره لا يحدث لصالح تملــك آخر فردي . والواقع ان الراوي هو عامل التملك الجماعــي من قبل القبيلة . والــدور الرئيسي الذي تقوم به القصائد التي تمجــد مآثر القبيلة وتهاجم اعداءهــا بضراوة، يبين انها تمارس وظيفتين مختلفتين : وظيفة ادلجة « Idéologisation » (تأمين استمرارية العادات والتقاليد) وظيفة سلاح في الحرب بــين القبائل (لحظة سلمية في الحرب) .

وعلى مستوى نقل الشعر يترتب على ذلــك نتيجة مهمة : القصائــد المكونة من ابيات مستقلة على مستوى المعنى . ونظرا لان عدة صيغ للبيــت مقترحة (١/٨٨) فيمكن ان تنتج عدة صيغ للفظة او اكثر .

وهناك حرية تامة في تعديل القصيدة من قبــل الشاعر ، والراوي ، وجميع اعضاء القبيلة الذين يستمعون اليها (« الجمهور ») . لكن هــذا لا يؤدي الى محو صيغة لصالح اخرى لانه لا يبرز اي مرجع بصفته حائزا شرعيا لمعنى متميز . وهكذا سنرى تكاثرا لروايات لن تتغلب احداهما على الاخرى قبل تدخل قواعد البلاغة في القرن الثالث (الهجري) ، وهي القواعــد التي ستضع الخطوط الفاصلة بين الروايات أي اعطاء الافضلية لبعض منها .

هل هذه ميزة الشفهي بالنسبة للكتابي ؟ لقد بيَّن بارت « Barthes » (٦) كيف يتعاطى الكتابي ، بخلاف الشفهي ، مع نص واحد ، لانه يتيــح امكانية محو وشطب النص . اما الشفهي من جهة ، فلا يسمح الا بتصحيح افقــي يكتفي بزيادة صيغ الى جانب اخرى . لكن تجاور الصيغ كان هو ذاته في النقل الكتابي ، ولم يكن ناتجا عن اختلافات فونيتيكية « Phonétiques » فقط بل خطية « Graphiques » ايضا (٧) . قد يكون الامر يتعلق هنا بنسخ كتــابي لميزات خاصة بالشفهي ، ومع ذلك ففي صناعة الكتب كان يمكن للنساخ ان

(٦) R. Barthes ر. بارت في مجلة تيل كيل Tel quel عدد خاص عن بارت .

(٧) « لقد تم بالاضافة ذكر التغيرات ذات المنشأ الكتــابي (الخطــي graphiques) المستحيل تفسيرها باختلافات شفهية ، والتي نجدها في القصائد القديمة . ونظرا لانه من الصعب بل من المستحيل اثبات ان هذه التغيرات هي معاصرة للشاعــر او سابقة للروايات المثبتة ابتداء من القرن التاسع الميلادي ، لا يمكن ان نعتمــد على هذه المعطيات » . بلاشير ، المرجع ذاته ، ١\٩٠ .

يدخلوا اخطاء طالما ان الوسائل الفنية لنقل النسخ غير ممكنة (٨) . وكان يؤدي الامر حينئذ الى عدة صيغ لا تمتاز اي منها عن الاخرى .

ان العامل الحاسم لعملية التجميع « الشفهية » قد ينتج عن عامل لا علاقة له بطبيعة التسجيل، اي وجود ذات حقوقية «Sujet de droit» تستملك الاموال والاعمال في وقت معا او غيابها ، او استعمال اساليب نسخ امينة ، او وجود سلطة تحدد المعنى وتخضعه لقواعد ذات طابع حقوقي .

٢ ـ وضع الشاعر

ان وضع الشاعر سيتحول شيئا فشيئا خلال القرن الاول للهجرة . فظهور سلطة مركزية تسعى لاقامة هيمنتها على القبائل باضعافها الحكم القبلي لصالحها واستخدامه للصراعات التقليدية سيقلب المعطيات رأسا على عقب . وسوف ينفصل الشاعر تدريجيا عن قبيلته ليتبع اكثر فاكثر السلطة المركزية.

في مرحلة اولى ، يصبح الشاعر كوسيط بين السلطة والقبيلة التي ينتسب اليها . واذا كانت جماعته معارضة تقليديا للحزب اليمني ، فانه يهاجم هذا الحزب على طريقة الشاعر الجاهلي مع الاحتفاظ بهامش يسمح له بالانعطاف (٩) . وفي الحالة المعاكسة . لا يكون ولاؤه للحكم فرديا فقط ، بل لصالح قبيلته التي تسعى بواسطته للتحالف مع الحكم وللافادة منه (١٠) .

---

(٨) قبل ظهور المطبعة في اوروبا كانت مضاعفة النسخ الامينة لنص ما تضمن بواسطة نظام صاغته الجامعة . كانت تنقل النسخة الاصلية l'exemplar وهي « نسخة اساسية » « تعود بعد نقلها الى الناسخ الثابت الذي كان حينئذ يؤجرها مرة اخرى» . ل. فيفر وهـ. ج. مارتن . ظهور الكتاب.
L. Febvre & H.J. Martin.

(٩) يدافع جرير في البدء عن القيسيين ضد اليمنيين (بلاشير ، المرجع ذاته ، ٣-٤٨٤) وإثر ذلك قدم الولاء لعبد الملك وللحجاج (٣ ـ ٤٨٥) اثر سحق مصعب بن الزبير في العراق (في ٣ ـ ٧٢ هـ و ٢ ـ ٦٩١ م) .

(١٠) « ان جريرا والفرزدق والكميت والطرماح هم حقا الناطقون بلسان قبيلتهم او حزبهم لكن صوتهم يصل الى ابعد من ذلك بكثير وقد يصل دويه الى الملوك او ممثليهم الولاة . وعلى نطاق أوسع يتجدد حدوث الظاهرة التي لوحظت من قبل في عهد لخميي الحيرة او في عهد غساسنة جلت في القرن الرابع الميلادي : كان الشاعر يترك أهله بصورة دورية ويأتي بحثا عن رزقه الى البصرة والكوفة او المدن

ان ذهاب الشاعر وايابه من قصر الخليفة او والي الاقليم الى قبيلته همـا المؤشر الى الوضع الانتقالي الذي كان وضع الشاعر . وفي الوفود «البرلمانية» للقبائل ، التي يستقبلها الخليفة ، يكون الشاعر هو الناطق بلسان قبيلتـه (بالمعنى الحرفي) والمدافـع عن مصالحهـا . وتستطيع السلطـة ايضا ان تستخدمه مباشرة لمنفعتها وتسعى للحد من تردداته ، ومن هنا نشأ مـوقف متصلب سيؤدي الى اخضاعه بشكل فعال .

ان تراكم الثروات في ايدي السلطة قد جعل الشعراء رهنا بالمعونات. وهذه نقطة الانطلاق التي بدات منها عملية الاستملاك الفردي للقصائـد اذ انها اصبحت قابلة للبيع لقاء بعض الامتيازات الممنوحة من قبل السلطة . ولذلك لا تهم معرفة مدى تأثير الموضوعات الدينية في شعر القرن الاول ، بل بالاصح ان تكشف في الموضوعات التغيرات التي حدثت في موقع الشاعـر ، وفي العلاقة بين الشعر واشكال السلطة الجديدة .

ولا شك في انه ابتداء من هذا العهد يُنظر الى الشاعر بصفته مؤلفا ، وان كان لا يزال تابعا لقبيلته . ومن جهة اخرى ، فاذا كان الراوي لم يختف في شكله السـابق فقد نشأ نموذج آخر للناقـل لا علاقـة له بالشـاعـر ، بل بنموذج خاص لهذا الاخير نشأ عـن صلة بالناقل في القبائل الاكثر احتكـاكا بالمدن . « وهذا التيار تطور عند بني عجل وبني تميم ، وقد استمر يتعزز حتى منتصف القرن الثاني / الثامن . والشعراء الذين يمثلونه هم كلهم في الواقع على صلة بمركزي البصرة والكوفة والعديد منهم اصبح، في آخر هذه الفترة ، طيعا لـ « الوحي اللفاظي » (١١) وينظم بناء على طلب بعض سكان المدن حيث تبدأ الابحاث في قواعد اللغة . ان الاعمال التي ولدت تحت هذا الدافع قد تفحّصها واضعو المعاجم بدقـة » (٣ / ٥٢١ ــ ٥٢٢) . وهذا

السورية وفي هذه المدن كان يجد مجـددا « جاليات » من بني تميـم وبنـي أسد والعديد من قبائل شبه الجزيرة التي تستقبلـه وتستخدمه في صراعاتها المحليـة وتجهد ليبلغ رجال السلطة (...) وكانت الصراعات بين القبائل تستمر تحت عينيه وهو يشترك فيها لكنه يميز فيها تأثيرات سياسيـة ذات اهميـة اكثر شمـولا . والنزاعات بين اليمنيين والقيسيين تستأثر باهتمامه لكنه كان يـدرك ان العمليـة تتخطى هذا الوضع القديم » (المرجع ذاته ، ٣ ــ ٥٤٠) .

(١١) نسبة الى لفاظه lexicologie علم الالفاظ وهو قسم من فقه اللغة يعنيبالمفردات وترابطها من حيث علاقتها بالمجتمع الذي تعبر عنه (ملاحظة من المترجم) .

النتاج الجديد الذي يتحكم به النقلة نوعا ما يتكيف مع وضعهم الجديد ولا يعود يجد مكانا له داخل التنظيم القبلي .

٣ ـ النقــل

كيف يصف بلاشير عملية نقل الشعر؟ انه لا يحتفظ بفرضية تقول أن فكرة « جمع مستمر » للاعمال ظهرت في اطار القبيلة (١/٩٣) . فهذا الجمع منشؤه « عوامل مصادفة » :

أ ـ تكوّن دولة ، بالمعنى الحقيقي للكلمة ، والتنظيم الاداري الـذي يرافقها » (١/٩٤) .

ب ـ ضرورة اقامة سلالات للتمكن من تقاسم الثروات، تصبح «بمثابة وثيقة ، ليس لنا ان نختار : فكل شيء يقتصر على قصائد ، كمقاطع ، وبيت تم فيه ذكر الاصول ، والتحالفات ، والانقسامات ، وهجرات الجماعات العربية .. انه العهد الذي أرسل فيه الخليفة الاموي دغفل الشهير الى الشام الذي عمل فيه صهر ، يعتبر كل منهما سيداً في علوم السلالات » (١/٩٤) .

جـ ـ « الخصومات السياسية ـ الدينية » التي كان من شأنها دفع كل جانب للبحث عن القاب مجدها (المفاخر) وألقاب خصمها (المثالب) .

د ـ « فضول الماضي » (١/٩٥) .

في الاعوام الاخيرة من القرن الاول (بدء القرن السابع الميلادي) ظهرت « واقعتان » جديدتان حوّلتا ، حسب قول بلاشير ، شروط النقل : ظهور التدوين المكتوب للاعمال الشعرية ونوع جديد من « النقلة » : أ) «الواقعة» الاولى يبدو أنها لم تبدأ الا في نهاية القرن الاول (١٢) وهي تكمن في مجرد نقل الشفهي فيما يتعلق بقصائد عمر بن أبي ربيعة (١/٩٨ ورقم ١) أو القصائد والاخبار التي طلبها الخليفة الوليد لنفسه (بين ٨٦ / ٧٠٥ و ٩٦ / ٧١٥) .

(١٢) « يجب الوصول الى الشاعر عمر بن ابي ربيعة (المتوفي حوالي ١٠١\٧١٩) للحصول على البرهان القاطع المقدم من مضمون العمل نفسه ، على ان الكتابة تستعمل في نقل نص « شعري » (أ ـ ٩٧ ـ ٩٨) .

ب ــ الواقعة الثانية توصف بأنها خطر (« الخطر الاكبر » ١/٩٩) من حيث حفظ أصل القصائد وهو ظهور الرواة (جمع « راوية ») ابتداء من الربع الثاني للقرن الثاني (٧٤٢ ميلادية) حتى نهاية القرن الثاني / الثامن الميلادي . و « النقلة الكبار » مختلفون عن الرواة :

١) انهم « من اهل المدن » (١/٩٩) .

٢) انهم من أصل عربي (الكلبي واعوانه) او من اصل أجنبي (من الموالي) (١٣) .

٣) ولكن نظرا لانهم غير مرتبطين بقبيلة محددة فهم لا يتخصصون في شاعر واحد او في شعراء عشيرة واحدة « فهم يحفظون كل عمل شعري ، شرط ان يكون مرموقا » (١/٩٩) .

لكن الكتابة لا تلعب بعد أي دور في هذا النوع من النقل واذا تدخلت ــ وهي لا تتدخل الا مع الجيل الثاني (١٤) ــ فليس بمثابة **انتاج** مكتوب بل كاعادة تدوين تحكمه قواعد نظام الشفهي .

لكن الفرق القائم بين الراوية والراوي لا يمنع بلاشير من التعرف في الناقل الكبير الى مرحلة جديدة ــ سلبية جزئيا ــ لنقل الشعر ، شبيهة بعملية تدخل الكتابة من حيث التقدم المستمر للتنقيح بالمقابلة بين نسخ مختلفة . لكن يبدو انه يتكون مع الراوية شيء جديد تماما لا علاقة له بوظيفة الراوي . ان الشعر الذي ينشره هذا يحتل مكانة خاصة في تعزيز العلاقات بين أعضاء قبيلة ما ، ويمثل في الوقت ذاته شكل علاقة ساد بين مختلف القبائل . وحين يتحرر الشعر من هذه الروابط ، فمن الوهم التفكير بأنه قادر على التحرك والانتشار دون أن تحمله قوى اجتماعية وتجد في ذلك مصلحتها . ونحن نملك ، من جهة أخرى ، مؤشرا الى طبيعة المصلحة التي

---

(١٣) « وغيرهم ، مثل حماد وخلف ، هم ابناء موالي غامضو الاصل ، وكثيرا ما يكونون من الفرس وهم يتعاملون مع عائلات عربية كبيرة مستقرة في المراكز العراقية او الحجازية » (١ \ ٩٩) .

(١٤) « لم ينسخ الكلبي هو بذاته القصائد بل ولده هشام هو الذي دونها . وكذلك لم يدون حماد شيئا . وهذه التقاليد الشفهية سوف تستمر حتى منتصف القرن التالي ، وبخاصة عند الاعرابي » (المتوفي حوالي ٢٣١ \ ٨٤٥ ميلادية) .

تعود الى النقلة عبر الشعر . ان هذا الشعر كان يكتسب أهمية منذ اللحظة التي اعتبر فيها تحقيقا للغة . ولم يُشرع في تنقيح الشعر ودراسة قواعد اللغة لانه اريد **حفظ** الانتاجات الادبية العربية ، بل لان اكتساب اللغة كان قد اصبح اساسيا من وجهة نظر السلطة ، فجرى الالتفات نحو الشعر والقرآن . ان لا مبالاة الروايات ازاء المنشأ القبلي للقصائد يمكن ان يفسَّر بانتقال وظيفة هذا الشعر .

قد نفهم انطلاقا من هنا لقاء ناقل القرآن و « قارئه » بصورة مؤقتة في افراد انبثقوا من فئة اجتماعية واحدة .

والواقع ان هذا اللقاء تم في مدن العراق اكثر منه في مكان آخر (١٥). يبقى رغم التفاصيل التي تفوتنا في العملية ان التطورات الملازمة للقرآن قد شملت الشعر ، هذا ما تفيده النزعة العامة : وهكذا كانت ثمة علاقة ممكنة بين اصلاح الكتابة الذي قام به يحيي بن يعمر (المتوفي في عام ١٢٩/٧٤٦) وتطور الدراسات النحوية (١٦) ، وقد جرى تطبيقهما (الكتابة والنحو) على الشعر اثر ذلك .

ونقدم عن وظيفة الراوية الفرضية التالية : ان الظاهرة التي أطلقت عليها عبارة « النقل » لا علاقة لها بوسائل **صيانة** الثقافة . بل بالعكس ، فان التحريف العام الذي طرا على شعر نقّحه حمّاد وخلف ، اللذان أفتن الناس فيما بعد في وصف سوء أمانتهما ، مردّه الى عميلة تكون لصالح **تمركز** السلطة وان بدا لأول وهلة مستقلا عنها . وهذا التحريف هو ، في

---

(١٥) ربما كانت حالة ابن عمرو بن العلاء (المولود حوالي ٧٠/٦٨٩ والمتوفي حوالي ١٥٤/٧٧٠) نموذجية . فقد كان في الوقت ذاته « مؤسسا لمدرسة البصرة النحوية » و « قارئا » للقرآن وعارفا في الشعر القديم وفي اخبار العرب (يقول ابو عبيدة : « كان ابو عمرو اعلم الناس في « قراءة » القرآن ، وفي اللغةالعربية، وفي « ايام العرب » وفي الشعر » . (وارد في ١٠٢/١ ، الحاشية ٢) . وكان تلميذه ناقلا كبيرا وهو « خلف » .

(١٦) « هذا النشاط مرتبط من جهة اخرى ، باصلاح للكتابة جرى شطر كبير منه ، بحث من والي العراق الحجاج . ان الدور الذي قام به ، في البصرة ، النحوي – القارىء يحيي بن يعمر ... على صعيد اصلاح الكتابة وعلى صعيد البحث النحوي يبدو لنا ذا اهمية اولية » .

الوقت ذاته ، تحويل وتملك للشعر من قبل طبقة جديدة آخذة في التكون خارج التجمعات القبلية وباتصال مباشر مع السلطة .

هذه الحركة معقدة وتتخذ مظهرين :

ـ تخصص متنام : « بعض العلماء مثل سيبويه والخليل يحصرون انفسهم في علم النحو والمعجمية (صناعة المعاجم ، علم تأليف القواميس ـ lexicographie) عكس ابي عبيدة ، الذي ، يهتم أكثر بفقه اللغة وبالاخبار في حين ان الاصمعي يؤلف على الاخص أبحاثا نحوية وفقهية لغوية (فيلولوجية) . واخيرا فهناك بعض العلماء ، أمثال عمر بن شبا والهيثم بن عدي والزبير بن بكار يقتطفون معطيات تاريخية وسيرية : ان نشاطهم يكمل نشاط فقهاء اللغة النحويين وكثيرا مايتاخم نشاط علماء الحديث » (ص ١٠١) . ورغم اننا لا نوافق على التقسيمات التي يراها بلاشير (النحو، المعجمية الخ) بالنسبة لمعاصري الخليل (انظر فيما بعد فصل «الجدولة») فمن المؤكد ان الفروقات سوف تظهر بسرعة بين فروع النشاط الادبي ـ منذ القرن الثاني ، وتظل دراسة عملية تمأسس (١٧) التخصص ضرورية رغم ذلك .

ـ نشوء تعليم في المساجد (١٨) . واستمرت الحركة حتى «منتصف القرن التالي » (القرن الثالث / الرابع) وكانت لها علاقة وثيقة جدا بتعزيز الادارة التي قدمت لها شيئا فشيئا قاعدة لاختيار الموظفين .

اذن ، فشكل التنقيح لا يمكن أن يُعدّ شكلا قديما لانه يقيم أشكال علاقة بين الشعر والشاعر مختلفة عن تلك التي أقامها الراوي المحصور في قبيلته . ومن جهة النظر هذه ، فان الانتقال من الشفهي الى الكتابي يندرج في انفصام اكثر عمومية بين ممارسات ممركزة وغيرها ذات استقلال ذاتي ، دون ان توافقها بالتحديد .

ان المقاومة المبذولة ازاء استخراج الرواة (ج راوية) للمعرفة هي

(١٧) التمأسس، تحول الشيء الى مؤسسة : ملاحظة من المترجم institutionnalisation

(١٨) لم يكن هناك علاقة بين التعليم الابتدائي الذي كان الكاتب يقدمه بوفرة وتعليم المعلمين الكبار في اللغة والحديث والفقه الخ .

المؤشر على كيفية فهم المعاصرين للمعرفة وعلى نمط العلاقة التي اقتضتها. لقد افسح التنقيح المجال امام سلوكين من جانب رواة البصرة : جمع الكلمات والاشعار في السوق (المربد) والجمع في قبائل الصحراء . وقد ارادوا ان يروا في هذين الموقفين تقدما في وسائل التنقيح . وفي مرحلة اولى ، استمر التنقيح لكنه لقي عقبات في الارادة السيئة والتحريف المقصود من قبل البدو . وقد ادى هذا الواقع الى فساد لغتهم بسبب اقاماتهم الطويلة في المدن . ولتعويض هذه التأثيرات السلبية ، يقال ان الرواة اخذوا يبحثون عن قبائل لم تتصل ابدا بسكان المدن .

ان ما وصف بكونه امانة اكبر في البحث التجريبي يمكن على كل حال فهمه بصورة مختلفة : فيصبح الامر متعلقا بعملية استخراج المعرفة القبلية واتساع سيطرة المعرفة الجديدة على مطلق ظاهرة كانت مستقلة حتى ذلك الحين . و « التحقيق » في الصحراء لن يكون سوى نفاذ مقولات التصنيف ونفاذ تراتب ظاهرات اللغة ، المصاغة من قبل ولصالح طبقة مدينية جديدة الى اعماق شبه الجزيرة . ومن جهة اخرى ، فان تحريفات البدو هي ، كما يبدو ، نمط مقاومتهم على هذا المستوى من التدخل الذي هو اللغة . انهم يردون على « النحاة ــ المعجميين » سواء بالسخرية أو بالتلاعب بالالفاظ (١٩) ، او اخيرا بتراكيب خاطئة .

ان العلاقات بين هؤلاء « النحويين » والبدو قد طرأ عليها تحول . في البدء ، كان الاوائل هم الذين يأتون للاستماع الى الآخرين في الاسواق ولتسجيل ما يسمعونه على لوحات . وتدريجيا ، ومع تدعم صفوف النحويين ، تحول البدوي الى صورة فريدة سوف يلجأ اليها لحاجات الاثبات ، وستفضح اخطاؤه المقصودة منها وغير المقصودة . وفي ذلك الحين ، في مرحلة وسيطة ، حدثت مبارزات خطابية حقيقية كانت ذريعة لـ « النحوي » لممارسة تفوقه اللغوي (٢٠) . وهذا التحول البطيء في علاقات « النحوي » بالبدوي يسجل مراحل بناء مؤسسة يستقل عملها أكثر فأكثر ، وتصبح قابلة لان تتكرر في شكل التعليم . من المؤكد ان

---

(١٩) بالنسبة للحالة الاولى انظر النادرة التي اوردها الشلقاني ، ص ٧١ حيث يرد البدوي بمزحة ، وبالنسبة للحالة الثانية انظر ص ٧٣ ، حيث يرد البدوي على سؤاله في النحو بمفارقة .

(٢٠) مثال لمبارزة بين الاصمعي واحد البدو (الشلقاني ، ص ٧٧) .

استقلالية التعليم هي نسبية تماما بما انها تظل متمفصلة بقوة على السلطة، ومن خلالها أو دونها ، على مصدر المعرفة . ولكن بعد تأسيس آلية انتزاع المعرفة ، يصبح بامكانها ان تجدد انتاج ذاتها بذاتها حتى ولو تم « وصلها » بصورة مختلفة . واذا كان استخراج المعرفة في القرن الثاني يتجـه نحـو الصحراء ويستمد مادته من القبائل ، فانه « سيتصل » في القرن الثـالث بالارياف تبعا للعملية التي أوضحناها في كليلة ودمنة. وهكذا ومع ان شكل المعرفة في القرن الثاني كان انتقاليـا ، فقد كان لحظة اساسيـة للتأسيس وسوف تستمر تأثيراتها عبر بعض المؤلفات التي نقوم بتحليلها هنا .

القسم الرابع

الجدولة

الفصل الاول : جدول الكلمات

١ ـ مقدمة
٢ ـ نسق الدلالة
٣ ـ مدونة (١) ك. العين (٢)
٤ ـ قواعد ((البناء)) وقواعد ((القراءة))
٥ ـ تشكل المعرفة .

الفصل الثاني : جدول الجمل

١ ـ مقدمة
٢ ـ أ ـ اللغة ، موضوع المقال .
ب ـ القواعد المعيارية

٣ ـ أ ـ معنى ولا معنى
ب ـ ((اللفظ)) و ((المعنى))
ج ـ ((مكان)) و ((بناء))
د ـ تراتب ((الكلمات)) .
هـ ـ ترتيب الجمل
٤ ـ استخلاص .

الفصل الثالث : جداول اخرى للكلمات

---

(١) المدونة هي مجموع الاصطلاحات في علم او فن .
(٢) كتاب العين .

« يجري التلخيص دائما
حين تنتهي قصة معينة »

م. سير M. Serres

في القرن الثالث للهجرة تكوّن شكل للمعرفة يعمل بوحدات استطرادية ويبدو مباحا لتوسع الموضوعات على انواعها . قبل ذلك كانت هنـــاك اعمال مدهشة من حيث ترتيبها الداخلي ، فظهرت بصورة انتقالية ، وكانت تتناقض بترتيبها مع اعمال الفترة السابقة .

لكن ترتيبهـــا ليس « ترتيبـــا عقلانيـــا » ، وهو لا يتجلى كأنــه انبثاق لـ « عقلانية »« ratio » في الفكر العربي ، ستختفي بعد بضعة عقود . ولا يتم الحديث عن تحولات اصابت اشكال المعرفة على صعيد « منطق » الاعمـــال الداخلي وحسب . والاصح ان التغيرات الحادثة كانت حاسمة في نظام الاشارة وانتجت اعمالا متميزة من حيث ترتيبها .

ان النصف الثاني للقرن الثاني هو فترة انتقالية حفلت بالمؤلفات التـــي اراد ان يرى بعضهم فيها اعادة لتجميع المعطيات الثقافية العربية : الشعر ، الالفاظ ، صيغ الجمل والعبارات ... ولـــدى تحقق اعادة التجميع هـــذه تأسست عليها تحليلات .

ومن جهتنا ، فقد حرصنا على تحليل عدد المؤلفات التي تسيّرها منظومة الاشارة ذاتها وتطرح تباينا على صعيد المظهر دون ان يُشكك في انتسابها الى شكل المعرفة ذاته . وهذا الشكل سيزول بسرعة كبيرة ، وهو على كل حال لم يكن يتحكم بجميع الاعمال في العهد ذاتــه . ان شخصا كالجاحظ ، عـــاصر القرنين الثاني والثالث سينتج اعمالا لا تنتسب الى المعرفة ذاتها . ونحن نشير

بسرعة في ختام البحث الى منظومة الاشارة التي تكونت في بدء القرن الثالث (للهجرة) .

في معرفة القرن الثاني لم تكن اية سميولوجيا (١) ممكنة بسبب البنية الخاصة للاشارة . لكن العنصرين اللذين تتكون منهما الاشارة ماثلان في نص سيبويه : وهما اللفظ والمعنى . ان التعبير (او اللفظ) هو عربي بالاساس . وهكذا سيقارن في بدء القرن الثالث بالخط .

ان العلاقة بين « اللفظ » و « المعنى » تعرض عدة خصائص مهمة :

١ ــ انها علاقة مباشرة بين العنصرين لا يتطلب اية احالة الى عنصر ثالث من شأنه ان يتيح الربط بينهما . ومع « اللفظ » تتم تأدية المعنى او « المعاني » حتى حين يكون التعبير مختلا او ناقصا جزئيا . ويمكن ان يكون « اللفظ » مستعارا ويستعيد حالته الاولية (اصله) باعادة العنصر الناقص دون ان يقتصر التعبير عن « المعنى » على ذكر الاصل ، ويتم التعرف الى المعنى في حالتي اللفظ ، مع ان الافضلية تعود للاصل . والادراك لا يتطلب بالضرورة العودة اليه ، ففي هذا النظام لا يمكن أن ترد فكرة اشتقاق للالفاظ .

٢ ــ ان « اللفظ » لا يشمل كلمات وحسب ، ولا مجمل الفاظ اللغة (راجع كتاب العين) . ويمكن ان يقوم على مبدأ مجاورة الكلمات لبعضها بعضا وبذلك يستدعى عنصر اساسي : الحركة الاعرابية في آخر الكلمة .

في جدولة الكلمات ، يواجه « المعنى » « اللفظ » على السطر نفسه ، ولكن متى تعلق الامر بعدة كلمات تشكل جملة ، لا يعود « المعنى » قائما في عبارات مترادفة بل في اعادة ترتيب توحي به الحركة الاعرابية . وستكون هذه هي الكاشفة عن « المعنى » ان لم تكن هي « المعنى » بالذات .

وسيعبر المتكلم عن قصده بواسطة المصوتات . وعلى مستوى الجملة يكتسب مفهوم الترتيب اهمية اساسية . والواقع ان ثمة ترتيبين مختلفين ،

---

(١) sémiologie دراسة تطور ودور الاشارات الثقافية في حياة الجماعات ، والنظرية العامة للاشارات ويقال احيانا sémiotique (ملاحظة من المترجم) .

احدهما يمثل التعاقب الخطي للـ « الفاظ » ، والآخر يقوم في المصوتــات . والنظام الثاني ليس مستترا ، وهو مباشر كالمعنى في كتاب العين . ويمكن احيانا أن يوافق الترتيب الاول ، والا فان نقل « الفاظ » من موضعها كافيــا للوقوع عليه . ان الترتيب الاول هو ترتيب اللفظ ويملك الطابع الخطي للشفهي بالتعارض مع الكتابي .

٣ ـ ان القرابة بين فكرة الترتيب وفكرة المعنى تُدخل انقساما كبــيرا ينبذ اللامعنى في اللاترتيب . وفيم يقوم هذا اللامعنى ؟ عند ابن المقفع ، كــان العقل يتعارض والهوى بمقدار ما يعبر هذا الاخير عن الفوضى والاباحيــة في المجتمع .

واذا كانت المعرفة العربية قد تكونت ابتداء من هذا الانفصال ــ معنى / لا معنى ، عقل/هوى ، ترتيب/فوضى ، فان لهذا نتائج اساسية :

على المستوى السياسي : (او السياسي ــ الديني) . ان كل معــارضة للسلطة وكل تشكيك فيهــا كسلطة (وليس من قبيــل حيازتها الشرعيــة) يعتبران فوضى وجهلا . ويمكن ان نميز حينئذ نمطين من المعارضة : الاول وموضعه عبر الخط الفاصل يهاجم النظام ، والقانون ، والمعنى ، والثــاني دون هذا الخط ويفترض انه قد حاز على المبادىء الثلاثة الاولى . وينبغــي تحليل عمل هذه القسمة بالطريقة التي تم من خلالها التفكير في معارضةالقانون معارضة جذرية وذلك منذ حركة الخوارج حتى الزندقة . ألم « يُحدد المقنعية بصفتهم **رافضية** ومباحية لا يعترفون مطلقا بمحظورات القانــون » (اشارة التأكيد منا نحن) (٢) ؟.

على مستوى الفكر والكلام (وهما في هــذه اللحظة متلازمان لا يمــكن الفصل بينهما) لم يعد يمكن التفكير في التناقض من داخل العلاقة معالسلطة، اي في الايديولوجية التي تنتجها اجهزة الدولة . لكن كل معارضة سيــاسية تتهم اسس السلطة يجب ان تطرح نفسها بشكل التناقض .

وهكذا وعي الفكر العربي نقيضه **الاخر** بصفته فوضى وتناقض . وهذا

---

(٢) Laoust — Chismes , p. 72 , 74

ما سيكون مكوّنا للمعرفة العربية في تنوعها ، وتظهر الاختلافات الأخرى على خلفية هذه القسمة الكبيرة وابتداء منها .

واذا كان بعض الاعمال فقط يظهر ترتيبا منطقيا ظاهرا الى حد ما ، في حين تبدو اعمال اخرى غير منتظمة ، فان اغلبها يُظهر مَميزات متماثلة بعضها مشترك بين كل تصنيف .

(١) السلسلة « Sériation » . ان بنية الاشارة الثنائية وترتيب عناصرها المتناظر ينتج وحدات المقال مستقلة ، منفصل بعضها عن البعض الاخر . والربط بين الوحدات حين يتحقق ، يتم بترتيب اللقطات تحت عنوان مشترك . وهذا العنوان يمكن ان يكون اما مُعطى ، او ان يبنى ابتداء من منظومة للتصنيف .

ان سلسلة « الالفاظ » هي نشاط كتابي **خطي** لا غير . وهو يؤدي الى تدخل سلسلة من العمليات البسيطة الغريبة عن المقال **الشفهي** . والواقع ، ان السلسلة التي يتعلق الامر بها هنا تقوم في تراكب علاقات تعادل مماثلة تسمح باعادة التجميع تحت مؤشر واحد لعناصر تقع في الناحية نفسها من العلاقة .

لكي يكون هذا التراكب (٣) ممكنا ، يجب ان يكون للنسب طابع **التزامن**: « ان التفوق الوحيد ، ولكن الكبير ، الذي يسجله ليس الكتاب فقط ، بل كل كتابة ، على جميع وسائل التسجيل المباشر ، الاكثر امانة ، هو النشر المتزامن تحت اعيننا لما لم يكن بوسع آذاننا ان تلتقطه سوى بالتعاقب » (٤) . لكن تزامن الخطاب الذي يقدمه التسجيل المكتوب لا يختصر وحده ميزة السلسلة الخطي وان كان هو شرطها المادي الذي لا غنى عنه . ان الافضلية التي تقدمها الكتابة يمكنها في الواقع ان تخدم انماطا اخرى من المقال بالطريقة نفسها : انها

---

(٣) اذا كانت لدينا النسب : اا ــ با ، اب = بب ، أج = بج ، توجب ان يكون ممكنا اعادة التجميع (اا ، اب ، اج ..) و \ ا و (ب ا ، بب ، بج) ان عملية الترتيب كثيرا ما تترك احد العناصر .

(٤) Michel Butor — Répertoire II — Le Livre comme objet p. 104 .

ليست سوى وسيلة تسجيل . وقد يكون ثمة تسجيل خطي لنصوص كلامية دون ان تكون هذه محددة بالكتابة التي لا تلعب هكذا سوى دور النسخ المرئي (والمقروء) للكلام المسموع . ونحصل حينئذ على نقل خطوطية «linéarité» الخطاب الشفهي المكتوب (٥) ، الاسطر والصفحات تحدث تقطيعات في اماكن معينة من « الخيط المتصل » . ومع السلسلة «sériation» نجد ان استمرارية الخطاب هي التي تقطع لصالح تراكب وحدات ، اذ تصبح التقطيعات منتظمة ومتجانسة . والسلسلة تكون نمطا جديداً من المقال لا يلفظ بل يقرا فقط ، ومقروئيته هي من جهة اخرى خاصة جدا لانها لا تعترف للمقال ببداية ولا بنهاية . ان التسجيل الخطوطي «linéaire» للقول الشفهي ينطوي على نقص اساسي « والمزعج هو اننا حين نريد البحث عن كلمة او عن تفصيل من هذا المقال ، والتحقق من شيء ما ، نضطر لبسط هذا الخط بكامله ، ونكون بالتالي خاضعين للديمومة الاولى (٦) . ومن هنا ضرورة نقاط الاستدلال التي كوّنها « النقلة » العرب للشعر . ان وجود نقاط الاستدلال ليس مهما الا في الحالة التي لا نحرص فيها على قراءة الكتاب من اوله الى آخره ، بل مراجعته لا غير . والحال ، فان السلسلة تعطي الافضلية لترتيب الوحدات تحت نقاط استدلال يسهل العثور عليها . ان عناوين الفصول ليست في هذه الحالة سوى مشيرة تعني ان « اللفظة » التي نبحث عن معناها هي فعلا هنا . ان السلسلة لا يمكن تصورها بدون نقاط استدلال تسمح بالترتيب « rangement » .

(٢) الشمولية

ان كل تصنيف ينطوي على طابع شمولية ليس خاصا بالمكتوب . ويمكن ان نجد امثلة على ذلك في مجتمعات جد مختلفة . ان التصنيف الذي يصفه

---

(٥) يمكن وصف المقال الشفهي بالطريقة التالية : « كل كلمة فيه تتبع كلمة واحدة اخرى ، وتسبق كلمة واحدة اخرى . وهي تتراتب بالتالي على طول سطر يحييه معنى ، على طول محور . وافضل وسيلة ، في الواقع ، لتخزين مثل هذا السطر ، هو « الخيط » بأقل ارتباك هو لفه » ــ المرجع ذاته ، ص ١٠٥ .

(٦) المرجع ذاته ، ص ١٠٥ .

مثلا «Levi-Strauss» (٧) يضع في المرتبة الاولى مفهوم المحل او المكان (الذي نجده عند سيبويه بتعبير : الموضع). ذلكلان التصنيف هو اولا ترتيبيسعى لان يحدد لكل شيء ولكل كائن مكانا في منظومة « كل شيء مقدس يجب ان يكون في موضعه » (واردة ص ١٧) « بل يمكن القول ان ذلك هو الذي يجعله مقدسا بما ان الفاءه ، ولو بالفكر ، يجعل ترتيب الكون الكلي ينهار ، فهو يسهم اذن في حفظ هذا الترتيب باحتلال الموضع المحدد له » (ص ١٧) . وسيكون هناك مظهران اساسيان للتصنيف : جميع الكائنات ينبغي ان تحتل مكانا في صنف (٨) ومن جهة اخرى ـ نتيجةلذلك ـ فان المنظومة التي تتمفصل على هذا النحو يجب ان تكون « كاملة » (ص ٢١) . وهذه خصائص نجدها مجددا في مؤلفات القرن الثاني (للهجرة) ، ودون الحكم على القيمة العلمية(٩) يمكن القول بان النحويين العرب ، بعد سيبويه ، لم يقولوا اي شيء جديد . لكن شكل شمولية هذه المؤلفات يختلف الى حد ما بمقدار ما يبقى مرتبطا ارتباطا مباشرا مع السلسلة «Sériation» ذاتها . ان اغلاق موضوعها يتوقف على المبدا الذي ينتج السلاسل وهو واضح«Explicite»الى حد ما ، ونجد هذا النوع من الشمولية في كتب الفترة اللاحقة (كتاب الاغاني مثلا) لكنه ليس مرتبطا كما هو كتاب العين بعملية ترتيب معبر عنها ، ولا بتنظيم صنافي (١٠) يجعل لكل حالة مكانا .

ان الانتقال من الشفهي الى الكتابي كان ولا شك حاسما بمقدار ما كان

---

(٧) Levi—Strauss — La Pensée sauvage الفصل الاول .

(٨) « عدم ترك اي كائن او مظهر يفلت . لاجل تعيين مكان له داخل صنف » المرجع ذاته ، ص ١٧ .

(٩) يقصر Levi Strauss التصنيف على مزج لعناصر ، وهذا يسمح له باقامة تماثل بين العلم والسحر . وهو يرى ان الامر يتعلق في الحالتين بوضع في بنيتين لا تختلفان من وجهة شكلية . « ان التغيير العلمي يطابق دائما اكتشاف « ترتيب » ــ وكل محاولة من هذا النوع ، وان استوحت مبادىء غير علمية ، يمكن ان تلتقي بترتيبات حقيقية » (المرجع ذاته ، ص ٩) .

(١٠) من صنافة Taxinomie وهي علم قوانين التصنيف

يشجع اعادة تجميع او مركزة النصوص الشفهية ، لكن « الجدولة » ، داخل هذه الحركة ، كانت مرحلة جديدة لم تكن توافق الانتقال من الشفهي الـى الكتابي . ان « الجدولة » تعمل فقط في حدود العنصر الثاني للمزدوجباحداث تمييز بين الخط (التعبير الخطي graphie) ، والكتابة « l'écriture » . علما بان التعبير الخطي هو مجرد تدوين في مظهره المادي ، والكتابة هي نمط جديد في تنظيم المعرفة .

الفصل الاول

جدول الكلمات

« ان للفظة قاموس ابعاد لفظه كتاب المبهمة » —
Dubois —Introduction
ص ٧

أ ــ ان العديد من كتب القرن الثاني/السابع وصف بأنه مؤلفات لفاظية على الرغم من عدم تحديد المميزات الشكلية التي قد تسمح بجمعها تحت عنوان واحد. ولقد اشرنا سابقا الى الصعوبات التي اعترضت محاولات تصنيف نماذج النتاج في القرن الثاني للهجرة . فمن الطبيعي اذن ان نتوجه الى علم الالفاظ الحديث وان نمتحن طموحه الى « وصف مطلق نشاط معجمي »(١).

ان الكتب لا تطرح نفسها دائما على انها معجمية ، وبعضها يتعدى على هذه الصفة ، لذلك يتعين على التحليل اللغوي ان يحدد الميدان الخاص بالمعاجم ، وفي الوقت ذاته ، ان يذكر قواعد انتاجها الداخلي دون التوقف عند « خواص النص الاشد ظهورا » (٢) .

والتحليل اللغوي يستطيع ان يعمل حسب نموذجين كبيرين للتحليل : فمن وجهة نظر اولى يعد المعجم **مقالا** فيوضع في لائحة الابحاث التربوية بقدر ما يخضع للقواعد البلاغية ذاتها (٣) . ومن وجهة نظر ثانية يعد **نتاجا** مدرجا « ضمن سياق صناعة عام » (٤) لا بد من عرضه وهكذا يبدو التحليل موزعا

---

(١) A. Rey , Typologie , p. 53

(٢) « ينتمي المعجم الى **فن الادب التعليمي** ، وفي هذا الصنف تكون للبيان enoncé المعجمي خواص **المقال التربوي** الاساسية » —
Dubois & Dubois,introduction , p. 49

(٣) المرجع نفسه ، ص ٩ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ١٤ .

بين مستويات عدة نكتفي بتقريبها عند القيام بوصف المعجم وصفا شاملا . هذا الامر ليس خاصا بالمعاجم : فكل نتاج قابل لتحليلات متعددة « تخلط المعايير السوسيو ـ ثقافية الخارجية بالمعايير اللغوية الخارجية » (٥) .

قد يكمن تعدد القراء وتباين وجهات النظر عند هذا الحد في غياب وحدة النتاج وفي تناثره الى مستويات متعددة تتجاور في حيز مادي وموقت لا غير . من هذا المنحرف تقام روابط جديدة تستطيع على المدى البعيد ان تنفي عن المعجم مطلق حق في الخصوصية (٥) وهكذا يصعب على علم الالفاظ ان يبقى في حيز ضيق يعرّضه في كل لحظة لنشاطات نقدية عديدة : السميولوجيا « Sémiologie » والنقد الادبي ، ودراسة تطور اللغة (٦) « Etudes diachronique » ، الخ ...

ان التباين في معايير التحليل ينعكس في صنف المعاجم فقد اخذ باربعة نماذج مثالية حسب الوظيفة الثقافية والاجتماعية :

ـ ان وظيفة الترجمة تنتج المعجم المزدوج اللغة او المتعدد اللغات .
ـ ان وظيفة الترجمة الى قانون مختلف « Transcodage » (٧) تنتج المعجم التقني او العلمي .

ـ ان وظيفةامتلاك وسائل التعبير (٨) تنتجمعجم لغة (ذاتلغة واحدة) .
ـ ان وظيفة توسيع المعرفة تنتج المعاجم الموسوعية .

سننظر من ناحية في وظيفة المعاجم السوسيو ـ ثقافية في الاساس باعتبارها وسائل **اتصال** بين جماعتين وسندرس من ناحية اخرى الصلة بين

---

(٥) « هكذا نتعرض لمضاعفة المعايير غير المتجانسة حتى نلم بمجمل المعاجم وبكل مظاهرها وحتى نعطي تحديدا لمؤلفات لم تعد معاجم بعد » المرجع نفسه ، ص ١٥ .

(٦) J. Rey-Debove — Le domaine du dictionnaire , p. 4

(٧) « ترجمة اللغات التقنية او الاجتماعية عند جماعات مختلفة اجتماعيا او ثقافيا الى قانون مختلف وعلى اساس ضابط مشترك » Dubois , ibid , p. 7

(٨) « ان المعجم يساعد على تقويم التصرفات الشفاهية في مجتمع تحتل فيههذه الاخيرة مركزا مميزا اجتماعيا » . المرجع نفسه ، ص ٧ .

المعجم وبين المعرفة المعاصرة له . هذا التصنيف يعكس الى حد كبير التسلسل التاريخي الذي سمح بالانتقال من شكل المعجم المزدوج اللغة (معجم المصطلحات) الى المعجم الاحادي اللغة (٩) .

ويمكننا من جهة اخرى احالة الشكل الثاني الى الشكل الاول بمدى ما نتعرف في وجود اللغات الوظيفية الى « وضعية ازدواجية اللغة » (١٠) . وفي جميع الحالات يظل المعجم « عامل **ايصال** » في مجتمع انتج فيه تقسيم العمل تمايزا لغويا (او على حدود هذا المجتمع اي نقطة التقائه بمجتمع آخر) .

يأخذ التحليل الداخلي على عاتقه بعض مقترحات النقد الادبي، فالمعجم بالنسبة له شكل ومضمون . يكون **شكلا** بقدر ما يقيم علاقة حتمية بين عناصره ويأخذ مجراه وفق مخطط مقرر سلفا متجل في المصطلحات والمداخل المعجمية والمشتقات الخ . . . ويكون **مضمونا** : بقدر ما ينقل المعرفة المعاصرة (المعرفة العلمية والمعرفة اللغوية) ويعكس ايديولوجية الطبقة المسيطرة (١١) فيجعلها معيارا ثقافيا .

ب ـــ والسبب في ان معجم الخليل لا يجد مكانا له بين التصنيفيات المختلفة (التي درست تكوّن الكتاب او امتنعت عن ذلك) (١٢) والتي وضعتها اللفاظية ليس في خصوصية مدونته بقدر ما هو في انتمائه الى تاريخ آخر يعين له موقعه « ووظيفته » وتعدد تحديداته .

---

(٩) A. Rey :Le dictionnaire انظر اللمحة التاريخية السريعة عن المعاجم ص ١٦٩ ــ ١٧٠ .

(١٠) « ان ظهور المعاجم يستجيب لوضعية ازدواجية اللغة » ، ص ٣٤ . « والمعاجم ذات اللغة الواحدة او الاحادية اللغة تفرض بدورها وجود وضعية ازدواجية اللغة » دوبوا ، ص ٣٦ .

(١١) « . . . فهي شاهد حضارة . وهكذا فان المعجم الاحادي اللغة (أو معجم اللغة) هو الكتاب دون منازع وعلى اعتبار انه مودع « الكنز » المشترك الذي تقدمه اللغة فهو نوعا ما امين « محفوظاتها » والمرجع المميز للدراية وللمعرفة اللغوية والثقافية». المرجع نفسه ، ص ٨ (انظر ايضا الفصل الحادي عشر « المعيار الثقافي ») .

(١٢) « راجع معايير التصنيفية السبعة عند A . Rey in Langages ص ص ٥٣ الى ٦٥ وملاحظات Dubois — introduction ص ١٤ ـــ ١٥ .

من السهل ان نتعرف في كتاب العين الى المميزات العامة المشتركة بين المعاجم فـ «حالة ازدواجية اللغة» سابقة لظهور الكتاب خاصة في المقاطعات حيث كان احتكاك العرب بالسكان الاصليين مستمرا ـ وفي الواقع يمكن رد حالة مقاطعات بلاد الاسلام الى ازدواجية لغوية بسيطة نظرا لاستعمال لغتين مختلفتين كالعربية والفارسية في مدن العراق مثلا ، هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى نظرا للتحولات الهامة التي كانت قد طرات على اللغة العربية وخاصة في منهجها الاعرابي (١٣) . وهكذا يكون المعجم قد اتى ليموه اختفاء اللغة الكلاسيكية او جهل الموالي التام لها . وهو الى جانب كونه عامل ايصال، قد يكون لعب دورا هاما في صهر جماعات مختلفة وفي الحفاظ على لغة هي في طور التحول . وقد يكون المعجم من ناحية اخرى قد وجد في وضع مختلف نظرا لانه يربط لغتين مختلفتين الى حد ما ولانه ، كسواه من الكتب التي نجمعها هنا ، نتاج افراد من اصل ايراني لكنهم مرتبطون بالقبائل العربية(١٤) . انطلاقا من هنا قد نتمكن من ان نعثر في طوبوغرافيا المدن كالبصرة على بنية متماثلة اذ ان السوق (المربد) الواقع خارج المدينة والذي هو نقطة التقاء المدينيين والبدو تجاريا وثقافيا في آن معا يحتل موقعا وسطا بين المدينة والصحراء .

وسوف نشير فيما بعد الى كيفية تصحيح وجهة النظر هذه واعادة مفهوم الترجمة الى موضعه . ولكن قبل الشروع بتحليل كتاب العين ينبغي تفادي مفترض اساسي تستخدمه اللفاظية (١٥) يستند الى فكرة « الخيار المعجمي » . ونجد هذا المفترض في كل التمييزات المعتمدة في تصنيف المعجم (المعجم الاحادي او الازدواجي اللغة ، المداخل الطويلة تقريبا ، نموذج المدونة ..) فالمقصود دائما هو العثور على فاعل فردي أو جماعي له سلطة

---

(١٣) « لقد صعب على الغرباء الذين اضطروا الى استعمال اللغة العربية ان يتبعوا قواعد النحو المعقدة في العربية القديمة » « Fük « Arabiya ص ٩ . (راجع ايضا الفصل الثاني بكامله) .

(١٤) حتى ولو كان المؤلفون عربا فان وضعيتهم الجغرافية والاجتماعية تجعلهم في وضع متوسط .

(١٥) « في الواقع ان اختيار نموذج (سوسيو ـ ثقافي ، ومحدد سلفا) للمعجم هو سابق للاختيارات اللغوية الاساسية والضمنية والتي تحدد هذا المعجم وتجعله ممكنا » A. Rey — Topologie ـ ص ٥٣ .

تقرير شكل المعجم انطلاقا من عدم كما لو ان تحقيق المعجم الاول يحمل نواة الاشكال اللاحقة . هذا يكشفه ادعاء يجمع معاجم من القرن السادس عشر واخرى من القرن العشرين تحت راية واحدة . لقد تناولت « حركة الاستشراق » كتاب العين ، لكننا لن نتوقف عندها لان انحصارها في تمييز الصح عن الخطأ غريب بالنسبة لتأريخ يعيد المعرفة الى معالمها الخاصة ويمتنع عن **الحكم** عليها على ضوء معرفة معاصرة . ولسنا نهتم الا عرضا بمعرفة ما نجح الخليل وسيبويه او فشلا فيه (١٦) . ولا فرق بين قياسهما بمعرفتنا والاندهاش امام معرفتهما: فمعرفتنا هي معيار معرفتهما وحدّها الفاصل(١٧) من هذا المنظار يعترف للخليل بفضله في تأسيس معجمه على « نسق منطقي للغاية » (١٨) دون التساؤل حول منشأ هذا النسق (هل في الامر حدس عبقري ؟) ولماذا كان سريع الزوال .

ان كتابا عربيا يعرض قواعد بنيانه يبدو استثناء صغيرا لا ينبغي التوقف عنده طويلا وذلك في الاضطراب الذي يسود النتاجات العربية . اما نحن فسوف نخاطب كتب القرن الثاني للهجرة وخاصة كتاب العين من موقع آخر معدلين وجهة المسائل حسب المنهجية التالية :

(١) ـ بدلا من سؤال : ما هو صحيح وما هو غلط عند الخليل ؟ يكون

---

(١٦) هذا ما يقوم به Pellat : le milieu basrien : فيحذف راسا الكلمات الاحادية الجذر ولا يبقي الا على جذور ثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية . وهو مع شعوره الغامض بأن التوازن في اللغة العربية كان يقوم على ثلاثة عناصر صوامتية لا يستخرج من منهجه كل النتائج المنتظرة كما يقع في الغلط عند تفسيره الكلمات الثنائية الجذر المهملة » ، ص ١٣٣ (نحن الذين اكدنا) .

(١٧) هذه النزعة الاوروبية الوسطية ثابتة في حركة الاستشراق التقليدية ولا بد من ذكر النقد الذي وجهه Levi - Strauss لعلم السلالات (راجع la pensée sauvage ـ الفصل الاول) والذي يؤكد على « نضوب المتوحشين الفكري » .

(١٨) Pellat المرجع نفسه ، ص ١٣٣ . ان نسق المعجم بالنسبة لـ Pellat شبيه بمنطق رياضي (ص ١٣٣ : « شبيه بالجذور المحصلة رياضيا ») ويستحسن هنا ان نقول حسابي لان الامر يتناول « التوافيق » اضافة الى ان طريقة الخليل لا توجب الاستعانة بعلم الحساب كما سنرى . بقي ان نعرف ما هي الحسابات (او المحاسبة) المستعملة في ممارسات اخرى (القياس ، الوزن ، الحسابات الادارية او غيرها) والتي نقلت الى هذا المجال وما هي السياقات التي اتبعتها .

السؤال : حسب اي نسق تتم المعرفة في كتاب العين ؟ وما هي علاقة هذا النسق بموضوعه الخاص ؟

(٢) ــ وبدلا من سؤال : هل ان المعجم مقال تربوي وما هي قواعده البلاغية نطرح سؤال : الى اي تشكل معرفي ينتمي كتاب العين وما هو مركزه فيه ؟

(٣) ــ وبدلا من سؤال : اية حاجات اجتماعيةيلبي كتاب العين، نسأل: ما هي تأثيرات هذه المعرفة على مختلف الممارسات ؟ وحسب اي خط فاصل تعمل ؟

٢ ــ نسق الدلالة

غالبا ما تذكر التوطئة في الكتب العربية الاصل (الاسطوري‌او الحقيقي) او الظروف (حوار او طلب) التي حثت المؤلف على الكتابة . اما كتاب‌العين فيعرض لنا قواعد بنائه المنظمة التي بالرغم من عدم تكاملها ، تقيم علاقة وثيقة بين نظام الاصوات وبنيتها ونظام الكلمات وبنية هذه الاخيرة والبحث عن وضع الدلالة لا يكون على هذا المستوى الواضح بل على اكثر المستويات بداهة واقلها اثارة للتفكير اي مستوى البيان .

أ ــ « اللفظ » و « المعنى » .

يضع البيان لقطتين كلاميتين في مواجهة بعضهما بعضا . ولنأخذ مثل الحالة البسيطة اي « كلمتين » فمن وجهة نظر الالسنية تفترض اقامة العلاقة بين « كلمتين » تصورا سابقا لبنية اللغة باعتبار هذه الاخيرة « لائحة كلمات » (١٩) . وفي حالة معجم احادي اللغة يجب أن تكون مجمل الكلمات

---

(١٩) « يفترض عدم اختلاف لغة النص أ عن اللغة ب التي هي لغة القارىء من حيث لائحة الكلمات . هذا الامر ينطوي على فرضيتين : فاما ان يعتبر نحو اللغتين‌مشتركا وانهما لا تختلفان الا في المفردات واما ان يحلل معنى النص كما لو كان مجموعة معاني الكلمات التي يتألف منها ، فيقلل من اهمية النحو على اعتبار انه تركيب بسيط من وحدات اللغة النحوية » Dubois «Morphèmes المرجع نفسه ، ص ٣٤ .

المستعملة في التحديدات محددة بدورها وبصورة عامة ، عندما لا يكون هناك جملة تفسيرية اي تركيب نحوي يتبنى الكلمة المراد تحديدها يلعب عدد قليل من الكلمات دور « المحددات definisseurs » (٢٠) أن كل الكلمات المستعملة في كتاب العين ، باستثناء الحرف ، هي جزء من اللغة العربية . اكثر من ذلك يجب ان تذكر مبدئيا كل الكلمات في الكتاب . وهذا مباين جوهريا للمعاجم الحديثة التي يتعلق حجمها بعدد كلماتها الاقل تداولا ، فبقدر ما يتوفر من هذه الكلمات تأتي المدونة طويلة . ان كتاب العين غريب كليا عن فكرة معرفة تجمع الكلمات انطلاقا من اعتبارات احصائية نوعا ما . من هنا نفهم دهشة الذين اكتشفوا في كتب الغريب كلمات كثيرة التداول (٢١) .

ومع ذلك فان كتاب العين يحدث ظاهرة فصل أقل وضوحا مما لو كان الامر يتعلق بمعجم ازدواجي اللغة لكنه ذو نتائج ليست أقل واقعية . وهو يفترض وجود كلمات قد اختلط معناها ليعرفها (٢٢) . ان التواجه بين كلمة وبين شرح يكوّن علاقة بين « لفظ » للتحديد وبين معنى يعتبر كلاهما « **متكافئا** » (٢٣) . لكنهما مختلفان عن التعبيرين المستعملين في الالسنية (الدال والمدلول عليه) . تعادل التركيبين الاسميين قد يجد مبرراً له في الالسنية اذ يحال كلاهما الى المدلول عليه ذاته .

« تحصر الممارسة المعجمية برنامج التحديد بأن تقابل بين وحدة معجمية تفترضها مجهولة او غير معروفة تماما ، وبين وحدات تنتمي الى نسق لغوي واحد ومنظمة وفقا لبنى هذا النسق التعبيرية التركيبية ومن المفترض اولا ان يكون هذا النسق قادرا على الاحالة الى المدلول عليه ذاته وان يتعين ثانيا تشكيل المفهوم لدى القارىء او السامع » (ذكره Dubois — المرجع نفسه ص ٨٥) . بعض الملاحظات تحملنا على الاعتقاد باننا نعثر في الكتب العربية

---

(٢٠) المرجع نفسه ، ص ٨٦ .

(٢١) الشلقاني — رواية اللغات ، ص ٨٩ .

(٢٢) A. Rey , le dictionnaire — ص ١٦٩ .

(٢٣) وبالرغم من عدم ورود اللفظ والمعنى في نص الخليل فاننا نبرر استعمالها على اعتبار اننا امام نموذج من العلاقة نجده عند سيبويه (راجع في مكان لاحق « جدول الجمل ») .

على النسق نفسه من « المرادفة المعجمية » ويظهر ان سيبويه يميز بين كلمتين لهما شكل واحد (٢٤) لكن معناهما مختلف (مجانس) «لاتساع الكلام عندهم» (عند العرب) ، (٢٥) اي ان هناك فائضا في الالفاظ بالنسبة للمعنى وهذا ما يسمح بتقابل لفظتين . لكن «المعنى» في كتاب العين عكس المدلول عليه ماثل في **النص** ولا يحيل الى شيء ابدا . الدلالة كما تعمل في مؤلفات القرن الثاني للهجرة تنحصر بنيتها في العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى والتي سندل عليها بعلامةالتقابل (☰) . ويمكنأنتضاعف العلاقةعندما يكونالتعبير مستخرجا من مدونة ذات قيمة ثقافية محددة كالفكر الجاهلي ويكون ممكنا عندئذ اعتبار المثل والشاهد حدي تقابل يشمل الاول الى حد ما : اللفظ ☰ **المعنى**

الشاهد ☰ المثل

وميزة هذا الرسم انه يدلنا على مدى امتداد الخط الفاصل بين اللفظ والمعنى (بين الكلمات الغريبة والكلمات الشائعة) وعلى العلاقة بين الشاهد والمثل فذكر الشاهد ليس لتفسير الكلمة ، المثل وحده يؤدي المعنى دون ان يستعين « بالمعنى » (٢٦) . واذا ورد الشاهد في النص على اساس انه قاعدة ثقافية ولغوية (٢٧) فان المثل ، عكس ذلك ، يمثل اعادة ادراج الكلمة المعيارية في اللغة الشائعة . وفي المثل تستبدل الكلمة المعروفة بالكلمة المجهولة ، و « المعني » بـ « العبارة » ، فالكلمة المعروفة هي اذن موضوع تنحية نسبية يضعها في اسفل مرتبة اللهجات مبقيا على الشاهد في القمة .

ب ـ التفاوت بين « المدخل المعجمي » وبين « اللفظ »

يرتبط اللفظ بترتيب المعجم (اذن بنظرية الاصوات والكلمات التي تحكمه) بيد ان المدونة ليست تسلسل « الفاظ » بل تسلسل « كلمات معجمية » مجردة (٢٨) . هناك تفاوت (وكذلك ثمة علاقة) بين كلمة « معجمية » و « لفظ » سنحاول تحليله .

---

(٢٤) سيبويه ـ الكتاب ـ ص ٢٤ .

(٢٥) ابو عبيدة ـ مجاز القرآن ـ ص ٢١ .

(٢٦) كتاب العين ، ص ١٠٧ ، ان كلمة معروفة جدا مثل عم ليست مفسرة فيكتفي بالقول انها تجمع على اعمام .

(٢٧) راجع **Dubois** الفصل **XI** المرجع نفسه .

(٢٨) تتكون الكلمة المعجمية في **كتاب العين** من كلمات بحروف عريضة في طبعة ١٩٦٧ .

ان تحليل «Dubois» يقدم لنا بعض خواص مجردة « للمدخل » قد تلقي الضوء على طبيعة « الكلمات المعجمية » في كتاب العين .

يحدد « Dubois » المدخل على انه :

١ ــ كلمة خطية . « لكن مداخل المعاجم تتميز عن الكلمات الخطية في بعض النقاط » (ص ٦٢) .

٢ ــ وحدة نظرية . « تسمية فئات كلمات او انواع اسماء علم » نفسه) .

٣ ــ وحدة سلوك ثقافي . « ان ما يحدد المدخل ليس فقط الطبقات النحوية بل خواص الدلالة » ص ٦٣ .

ولنحتفظ في البداية بطابع التجريد النظري « للكلمة المعجمية » . السؤال الذي يطرح هو معرفة العلاقة القائمة بين « الوحدة النظرية » ووحدة المقال ، وما هي طبيعة « التجريد » وطبيعة الحدين اللذين يعمل بينهما . على هذا المستوى يظهر الفارق الاساسي بين المعاجم الغربية المعاصرة وبين كتاب العين .

ما هي « الكلمة المعجمية » عند الخليل ؟

(١) ــ انها كلمة مصاغة ، وهي لا تطابق الوحدات التي تقع عليها في التجلية «performance» الشفوية (٢٩) . الامر الذي لا يظهر في المعجم

---

(٢٩) لقد اتت اللفاظية بالاثبات التالي الهام : « في التجليات الشفوية لا تختلط « الكلمات » التي يقطعها المتخاطبون كليا بالوحدات التقنية المعدة « كمدخل معجمي » Dubois ــ ص ٦١ (ان مفهوم « التجلية » هو نظير مفهوم «الجدارة» compétence حسب مصطلح Chomsky وقد اخذا هنا بالمعنى نفسه :
« الجدارة (اللغة) تمثل معرفة المتكلمين الغلويبة ، والنسق النحوي المفترض توفره في كل دماغ (Saussure) » .
N . Ruwet, Introduction à la grammaire, générative R. 18
«الجدارة (الكلام) تمثل عكس ذلك تحيين actualisation هذا النسق او تجليه في عديد من الافعال الحسية والدائمة الاختلاف » ، المرجع نفسه .

الغربي (٣٠) الا في أماكن خاصة هو هنا حاضر من اول الكتاب الى آخره . ففي الحالة الاولى تتفق قاعدة تنظيم المداخل بصورة أفضل مع تحول الكلمات الطفيف الذي لا يمس في الغالب سوى علامات الافعال أو علامات الصيغة . الحاصل في كتاب العين هو عكس ذلك .

(أ) ـ ان اغلبية « المداخل » ليست وحدات للمقال . واكثر ما يبدو ذلك في ما يختص بقسم الكلمات الثنائية الجذر : في الواقع ان المداخل تقدم كلمات ثلاثية الجذر ولا يكون للاولى اي معنى مطابق لها . ونجد الظاهرة عينها في قسم الكلمات الثلاثية الجذر . من ناحية أخرى فان « المدخل » مكوّن من الجسم الصوامتي للكلمة لا غير ، في حين لا يدخل التصويت الا في « الالفاظ » الواردة تحت مدخل واحد ، لذا فلا يمكن **لفظه** او **قراءته** . الصوامت المجردة من كل مصوّت لا يمكنها ان تتعلق الا بالتعبير الخطي ، وان انتاج « المداخل » انطلاقا من تزاوج الصوامت يؤدي الى صفها خطيا فقط طالما انه ليس هناك رابط صوتي يعطيها مادية تلفظ على اساسها . اذن فالتفاوت بين « المداخل » و « اللفظ » هو في آن معا تفاوت بين كلمة مجردة غير موجودة ومقطع في المقال واعادة تنظيم **القول** في تصنيف **المكتوب** .

(ب) ـ والحرف ليس مرتبا في اقسام المعجم حتى ولو تمثل خطيا في « مدخل » ما كما هي الحال في « عن » التي تقدم معجميا مبتدئا ب«عنّة» (ص ١٠٣) وكذلك في « مع » المستخدمة في ادخال « معمعة » (ص ١٠٨) وفي «على» الخ... ومع ذلك فالحرف موجود في المقاطع الشفوية ويستعمل في شروح اللفظ دون أن يكون له كيان الكلمة . ونستطيع ان نتساءل عما اذا كان تقطيع المقال الى وحدات وظيفية يتوصل الى ادراجه في معرفة لها نظيرها في كتاب العين الا في حال كان الحرف أسهل المقاطع منالا أي ذا معنى بلغت بداهته حدا يستحيل معه اللجوء الى اي شرح . وتحدد كتاب العين حسب الفرضية الاولى نظرية في وحدات اللغة ، خارجة عنه ، تفرض عليه تنحية الحرف . أما في الفرضية الثانية فان الحرف لا ينتمي الى حقل الرؤية الذي حددت اطاره معرفة الخليل . (وسنرى فيما بعد ما هو الحال عند سيبويه) .

---

(٣٠) راجع امثلة **Dubois** ـ ص ٦٤ .

(٢) ــ انها اسم طبقة .

لا يجب البحث عن قرابــة في الاشتقاق او في الدلالة بين « المدخــل » و « اللفظ » : « فالكلمة المعجمية » تدخل نصا معجميا جامعا بين « الفــاظ » مختلفة لا يبدو نموذجها (اسما كان ام فعلا) وتسلسل ظهورها غير محددين. انها نظرة اخرى وتشكل آخر للمعرفة ــ في القرون المقبلة ــ يبحث في المشتقات التي يعرضها الحرف خطوطيا عن المجموعات او المجموعات الصغيرة المحــددة في الوجهة الدلالية والوظيفية والتي تربطها ببعضها قواعد الاشتقاق . . .

لا شيء من هذا القبيل في كتاب العين ومن يتوهم العثور على مخطط مألوف لتصنيف « الالفاظ » يكون قد عبر مسبقا مراحل عديدة مــن المعرفة واسقطها على « اصل » كان لها . وليس مستهجنا الظن بانه عثر بين سطــور الخليل ، بعد قرن او قرنين ، على قواعد اشتقاق . ان كتاب العين يقــدم بالتالي صفحة متجانسة ظاهريا وشاملة تتيح البحث عن قواعد الوصل بــين المشتقات ، انطلاقا من معرفة ما ، وهو يشكل اللحظة الاولى من عملية تجميع نسقية تتناول المعرفة اللغوية وتلاحقها حسب قواعد محددة . على اساس هذا الفعل الاول يتتالى المقال اللاحق كله . علينا اذن ان نبقى على سطح النص وان نأخذ بعين الاعتبار تفريقاته وتجميعاته الخاصة .

امثلــة

في الصفحة ٩٧ يقدم لنا جمــع حرف العين وحــرف الراء نموذجــا من الاشتقاق حيث تبدأ سلسلة اولى (متجانسة على مستوى الدلالة) بكلمة (عرّة) وهي اسم يليها : فعل مضارع (عر) ثم فعل ماض (عررته) فاسم مفعول (معرور) . بعد ذلك تبدأ سلسلة أخرى بنوع من الاستطراد يحدثــه طابع تعدد معاني الكلمة الاخيرة . والى ذلك يبدو الاستطراد تبيانة عــامة للمرور من سلسلة دلالتية الى اخرى .

مثال آخر على الاشتقاق : الاسم (عزة) ــ اسم الفاعل (عزيز) ــ فعل مضارع (يعز) ثم نماذج من افعال ماضية (عز ، اعزة ، اعتز) .

ان الثوابت تخدعنا في الواقع : فاذا كانت هناك اعادة تجميع للمشتقات في سلاسل دلالتية (٣١) فليس هنــاك أي ربط لقواعــد الاشتقــاق بتعيين

(٣١) هنالك عرف في المعاجم الحالية يقسم السلاسل الدلالتية الى مقاطع صغيرة مستقلة اذا تعلق الامر بكلمات متعددة المعاني ومن ناحية اخرى فان مشتقات داخل مقطــع واحد تأتي حسب نظام اتفاقي دقيق .

وحدات المقال وظيفيا . وقد نشير الى صحة التجميع عند الخليل الا ان ذلك لا يفيدنـا : تستطيع كل صنافـة (*) ان تحيط بالواقـع وتنجح الى حد ما (٣٢) .

وهكذا فان المداخل تعمل كعناوين فصول تسمح بتجميع (أو بتنحية) « الفاظ » ضمن اطار منظـم بحيث يمكننا القـول انهـا « نتيجة لاسمية » «nominalisation» (٣٣) اذا عنينا بهذه الكلمـة تعيينا اصطلاحيا وليس وظيفة نحوية .

الا انه لا بد من وجود علاقة بين «المدخل» و «اللفظ» تسمح باسقاط عبارة في صنف دون آخر .

جـ ـ مشكلـة « الجـذر »

ان المصطلح الذي استعمله الخليل يصادره النحاة اللاحقون ليوهموا بأن علاقة « المدخل » « باللفظ » (او بين « لفظ » ومشتقاته) قابلـة لأن تعقل بعبارة الجذر والزيادة (٣٤) . وكما في القرنين الثالث والرابـع فان

(*) علم قوانين التصنيف Taxinomie (المترجم) .

(٣٢) « اذا قلنا مسبقا بأن عدد البنى محدود فقد يضفي ذلك فعالية باطنية على عملية الوضع في بنية مهما كانت المبادىء والطرق التي يستوحيها » Levi - Strauss ـ المرجع نفسه ، ص ١٩ .

(٣٣) Dubois المرجع نفسه ص ٦٤ ـ تكون « الاسمية » اشد بروزا بمدى ما تقوم بالتحويل على اساس وحدات بعيدة عن شكل الكلمة النحوي : الفعل (محـولا الى صيغة المصدر) ، النعت ...

(٣٤) نأخذ على سبيل الاشارة الفرق بين لغة هندية ـ اوروبيـة وبين لغـة ساميـة . « ففي الواحدة كما في الاخرى جذر يعطي المعنى وتغيراتـه التي تشير الى وظيفة الكلمة في الجملة . لكن في الهندية ـ الاوروبية يشكل هذا الجـذر عندما يتسع الى اصل ، كتلـة متراصة ثابتة نسبيا وتضاف اليهـا بادئـات (ادوات تصدير) ولاحقات تكون دلائل الوظيفة » . « ان ما يظل ثابتا في الكلمة السامية هو ما يطابق الفكرة وليس الوظيفة ، فهو ليس كتلة مادية من الصوامت والمصوتات ، بل هـو مجموعة من الصوامت المجردة » . J.Fevrier- Histoire de l'écriture ص ٢١٠ .

الخليل يتكلم عن أصل وزائد (٣٥) لكن بمعنى مختلف تماما فالمركز الـذي يحتله الجذر « الاصل » في علم الخليل وسيبويه وسواهما لا يرد مطلقا الى المركز الذي سيحتله في القرن الثالث للهجرة . لا بد من فعل مجموعة من التحولات بالمعرفة لكي تتطور نظرية في الزيادة (٣٦) مرتبطـة بالبحث عن المعنى في جذر الكلمة : «أصلها» . وهذا ما فعله ابن جني مثلا ولطالما عبر السبيل الذي يقود من مطلق نقطة في اللغة الى المعنى ــ « الاصل » . بالرغم من وجود التفاوت بين « المدخل » و « اللفظ » بالنسبة الى الخليـل فان العبور من الواحـد الى الاخر مختصر . وهكذا فالالحـاق يقـرأ مبـاشرة بمعنى الاشتقاق (انتقال من « المدخل » الى « اللفظ ») او بمعنى التحجيم (انتقال من « اللفظ » الى « المدخل ») . ان الاعتراف بقرابـة الوحدتين يأتي من عمليات بسيطة فيطرح الحروف وجمعها دون أن تكون هذه الاخيرة حاملة لمطلق معنى هي طرق ترتيب وحسب .

فئتان من العمليـات

(١) ــ تكرار صوامت الجذر وادغاقهـا " gémination» . كلمـات القسم المخصص للثنائي المضاعف تقع بمجملها ضمن هذه الحالة . يذكـر الخليل نموذجين كبيرين : التثقيل (مثلا صلّ) والمضاعفة (صلصل) وهي تصلح ايضا كعنوان لقسم الثنائي المضاعف (٣٧) . وهذا ما يترك مجموعة الحالات الجزئية دون تصنيف مفصل : في هذا المجال غير المنظور والـذي لا يلزم تحقيقه يقوم جهد النحاة اللاحقين الذين سيمدوننا بتجميعات اخرى مرتبطة هذه المرة بالمعنى : ــ تكرار الصامت الثاني (رمزه : ١ ، ٢ ، ٢) ــ مضاعفة الصامتين (الحالـة : ١ ، ٢ ، ١ ، ٢) الخ ... وقد يكـون الالحاق ذريعة لتكرار ولمضاعفة الجسم الصوامتي .

(٢) ــ الالحاق بحصر المعنى :

يحدث انطلاقا من مجموعتي حروف : ــ مجموعة اولى تقرب بطريقة

---

(٣٥) **كتاب العين** ، ص ٥٥ .

(٣٦) تؤخذ كلمة الزيادة هنا في المعنى الواسع بما في ذلك مضاعفة الصوامت (راجـع ما سيلحق) .

(٣٧) حول المضاعفة عند الخليل ، ص ٦٢ .

ما المصوّتات الطويلة وتحوي أربعة حروف متصلة (٣٨) وتحتل مركزا خاصا في تسلسل الاصوات كما يضعه الخليل وهي : الهمزة والألف اللينة والياء والواو . وتوصف بالمعتلات بالنسبة الى باقي الصوامت الصحاح .

ـ مجموعة ثانية من الحروف تضم تشعبين للصوامت وهي الشفوية والذرلقية (أ) ، وهي الحروف التالية :

أ ـ الذلقية (أ) : ر ل ن و .

٢ ـ الشفوية : ف ب م . وامكانات التركيبات التي تقدمها هذه المجموعة من الحروف تفوق بكثير تلك التي يقدمها الاشتقاق الموجود فعلا في كتاب العين . ومن ناحية أخرى فاننا لا نجد ذكرا لالحاق كالتاء بالرغم من كثرة استعماله . (على سبيل الاشارة يمكننا المقارنة بالحروف المستخرجة في كتاب «Fleisch-Traité de philologie»

البادئات : همزة ـ ى ـ ت ـ م

اللاحقات : ـ يّ ، ن ، ات ، ل ، م) .

نجد في تعداد الخليل ان الفاء والراء حشو بينما تشكل الهمزة جزءا من الحروف « الموصولة » . وبالاضافة الى هذا الجانب فان الصرف سوف يميز بين نماذج مختلفة من الملحقات بعضها سيكوّن قسما من الهيكل الصوامتي بينما تبقى الاخرى علامات وظيفية وحسب .

يمكننا اذن أن نتساءل عما اذا كانت قواعد الخليل كافية بذاتها لانتاج متسلسلة من المشتقات انطلاقا من « جذور » والا فما هي طريقة التصنيف الفعلية التي سمحت لها بجمع مشتقات تحت جذر واحد ؟

هكذا نرى بطلان مطلق محاولة تأتي لقياس الخليل بالواقع اللغوي . وبعد ، فهل يجب التنويه بأن عمله غريب عن الابتكار ، ابتكار « قواعد واضحة تعدد الجمل الصحيحة نحويا لا غير » (Ruwet ص ٣٢) . ونسق

---

(٣٨) وهي الهوائية ـ المرجع نفسه ، الجزء الاول ، ص ٢٣٢ .

القواعد في كتاب العين لا يعمل الا كاطار لتصنيف كلمات اللغة ، تصنيفا ممكنا . فهذه القواعد خالية من كل علاقة بالوظائف الصرفية او النحوية وناتجة عن فكر يحسب ويصنف بواسطة أسلوب بسيط من الجمع والطرح . ويجب أن تؤخذ كلمة « زائد » بمعنى الاضافة الحرفي دون تغيير معناها أو تثبيتها في تصنيفية صرفية . بقي القول أن الالفاظ لم تصنع بل رُتبت ، فهي ليست منتجة داخل سلسلة من الاشتقاق الخطوطي (نسبة الى خط) بل يُسلّم بانتمائها الى طائفة ما .

ان الصلة التي تربط « المدخل » « باللفظ » واهية جدا وغير قابلة لحمل معنى ما ، وحدّها (اي المدخل) لا يزال فارغا وخطيا لا يلفظ ولا مكان له في مقال ما بل في ترتيب الكلمات ترتيبا مفيدا . وما يقوم هنا مقام الاصل يتحول فيما بعد الى جذر مشحون بالمعنى يمتزج وجوده بعد تحصله بجهد أولي نشيط بأصل كلمات اللغة المفترض ضمن هذا الاطار يكون الكلام عن الاشتقاق ممكنا .

٣ ـ مصطلحات كتاب العين :

في المقدمة تعاكس مدونة (٣٩) معجم الخليل الترتيب الابجدي الذي تعتبره اعتباطيا (٤٠) . فهي مبنية على علاقة المادة الصوتية « phonique » بالعضو المنتج للصوت . الترتيب الطبيعي يعاكس الترتيب الاعتباطي ونعثر على هذا الشكل « الطبيعي » من الترتيب في مؤلفات اخرى (كتب الحصان، كتاب النبات وكذلك تاريخ العرب قبل الاسلام للاصمعي ...) وهو ترتيب مُعطى ومبرّر دائما لكنه لا يُعقل والأصوات مرتبة حسب علاقة من نموذج ادخل / أرفع وأقرب / أبعد .

أ ـ المدونة هي اذن على علاقة مباشرة بنظرية في الاصوات وبنظريـة في الكلمات .

(أ) ـ نظرية الاصوات : لا نجد عند الخليل ما يمكن تسميته بلغـة حديثة تحليلا « صوتيا » « phonétique » للأصوات . واذا كانت الاصوات(٤١) مسماة ومرتبة حسب نظام محدد يبدو دقيقا فلا علاقة لذلك بطابع الاصوات **الفيزيائي بل بمصدر** النطق . ان التسلسل يعيد تشكيل نظـام « خروج » الاصوات مـن الفـم : ١ ـ الحلقيـة ، ٢ ـ اللهويـة ، ٣ ـ الشجرية ، ٤ ـ أسلية ، ٥ ـ نطعيـة ، ٦ ـ لثويـة ، ٧ ـ ذلقية ، ٨ ـ شفوية ، ان التحديد الدقيق لمناطق تكوّن الاصوات يسمح بتجميعها وباثبـات تسمية

(٣٩) « المدونة اذن سلسلة متناهية من المداخـل » . Dubois ـ المرجـع نفسه ، ص ٥٧ .

(٤٠) يبدو ان معجما موضوعا حسب الترتيب الابجدي كان قيد الاستعمال في مصر في زمن الخليـل .

(٤١) تبقى مسألة الاصوات معلقة ونقدم الفرضية التالية : السؤال المطروح هو معرفة ما الذي جعل تحليل اللغة الى اصوات ثم الى كلمات ممكنا . ان اثر ترتيب الاصوات هو مجانسة الفوارق اللهجية المنتشرة في شبـه الجزيرة العربيـة وتوحيدهـا . تتكون تحت فروقات الاشكال وحدة الصوت التي تسير في اتجاه المركزية الاداريـة والتي لا تستطيع الا ان تكون نتاجا لها . ومن ناحية اخرى فان هذه الاصوات تجد مستقرا ماديا في خط ازداد دقة في تلك الحقبة بعد تجديـد التنظيم الاداري في عهد عبد الملك . وتظهر الكتابة بالنسبـة الى الفروقات في اللفظ كعنصر ثابت لا يتأثر باللكنات في قلب حركة المركزة قد تخضع الكلام لسيطرة الكتابة باعتبارهـا صارت مع القرآن علامة على وحدة امبراطورية ممزقة الى مناطق مستقلة نسبيا .

المنطقة المقابلة لكل مجموعة ، ويبقى للمجموعـات الصغيرة ان تلعب دورا في قواعد تشكل الكلمات .

(٢) ــ يجب ان تخضع بنية الكلمة الداخلية لقاعدة إدغام الاصوات في قلب الكلمة . فما هي طبيعة هذه القاعدة ؟

امثلة : يقول الخليل انه من غير الممكن في اللغة العربية ايجاد كلمة رباعية او خماسية لا تحتوي على حروف شفوية او ذرلقية (ص ٥٨) وانه لا توجد كلمة حروفها اقل من ثلاثة ، الخ ...

لا تستند هذه القواعد الى تحليل صوتي للكلمة وليس لها من اثر سوى **التعرّف** الى الكلمة اي معرفة ما اذا كانت الكلمة عربية أم لا . وامتناع السامع عن تطبيق هذه القاعدة يمكنه من معرفة اصل الكلمة : « أعلم ان هذه الكلمة ليست من كلام العرب ، محدثة مبتدعة » . ص ٥٨ . وبالنسبة للاصوات فاننا نجد فاصلا من النوع ذاته بين اصوات ذات معنى واخرى لا معنى لها . لم تكن هذه القواعد لتُعتمد في بناء المعجم نظراً لعجزها عن انتاج كلمات لكن باستطاعتها ان تحفظ تحت شكل معياري « normatif » نتائج متفرقة من تصنيف الكلمات في الكتاب او ان تستبعد اخرى (٤٢) . هنالك « شواذات » (ص ٥٩) لا تطرح ضآلة عددها مشكلة ، بالاضافة الى انها سهلة الحفظ ويسهل بالتالي التعرف اليها .

ب ــ بعد ان ينتهي الخليل من تعداد القواعد يقدم المبدأ العام في ترتيب معجمه . ان قاعدة بسيطة من **التوفيق** او من **الادغام** تنتج « المداخل » في البداية يفوق عدد هذه المداخل ضرورات التصنيف بكثير ثم تُنقص بالتتابع مع امتلاء الاصناف . وهكذا فقد ترجع المدونة الى جدول يبنى شكله وخاناته تجريديا ويتطلب امتلاؤه عملا تدريجيا . لذا فقد تجد امامنا خانات فارغة واخرى مملوءة، وقد حذفت الاولى. خمسة وعشرون صامتا قد تم ذكرها، ومع العلم انه لا يوجد سوى اربعة نماذج من الجذور (الثنائي ، الثلاثي ،

---

(٤٢) ان القواعد محدودة في عددها وفقيرة جدا بسبب طبيعتها . وبما أن التصنيف هو المقصود فان القواعد تعمل على مجموعات صغيرة كاملة باحثة فقط عن التوافقات بعد التعرف الى وحدات المقال (ان اصل الكلمة العربي او الغريب لم يكن موضوع تكتم في زمن الخليل) .

الرباعي والخماسي) فان صيغة التوفيق الحسابي تمدنا برقم الاصول النظري والاجمالي . اما الخليل فينهج بطريقة مختلفة لكنه ، عاجز عن الوصول الى الرقم الاجمالي انطلاقا من حسابه في حال اراد ذلك . والصيغة الحسابية تسمح بحساب عدد كل الجذور الثنائية ثم الثلاثية فالرباعية واخيرا الخماسية . هكذا نتحاشى ورود احد الاشكال عدة مرات ... والخليل يتناول كل صامت على حدة : فللحصول على جذر ثنائي يُركب كل صامت بطريقتين وعلى جذر ثلاثي يركب بست طرق (٢ × ٣) ، وعلى جذر خماسي بـ (٢٤ × ٥) . هذا حساب بسيط يعطينا ترتيب اصفر فئة من المجموع لا غير ويتنبأ بتقسيم الكتاب الى خمسة وعشرين جزءا (لذلك اطلق على القسم الذي وصلنا عنوان الصامت الاول) . يبقى ان بساطة هذا الحساب لا تبرر استخدامه . ان ما يجب معرفته هو الطريقة التي سمحت بنقل ممارسة احصائية مهما بلغت بساطتها الى ميدان اللغة والكتابة (ان الحساب لازم الممارسات الادارية وغيرها حتى ان لم تكن المعرفة الرياضية امراً ملحا) .

توضيح : ان القسم الذي وصلنا من كتاب العين ينتهي مع الجذور الثلاثية . في الجزء المخصص للجذور الثنائية يجب ان يُركب الصامت الاول مع الاربعة والعشرين الباقية : الاربعة الاولى لا تنتج اية حالة ممكنة (خانات فارغة) . لا ينتج عن التقاء صامتين سوى حالة واحدة ، وينتج عن الباقي حالتان . الحاصل : ٣٩ حالة .

ماذا تنتج هذه القواعد من آثار ؟

ـ اثر اسهاب . تتكرر كل كلمة مرة على الاقل بالتأكيد في المعجم . قاعدة القراءة التي يعرضها الخليل تؤكد ذلك اذ يكفي التعرف الى حرف للتمكن من ايجاد المدخل في المعجم . (لا نستطيع تكوين فكرة دقيقة عما يلي ذلك لان الكتاب وصلنا ناقصا ، ومع ذلك فلا شيء يناقض فرضيتنا) .

ـ اثر شمول والذي هو مشترك بين المدونات الابجدية (٤٣) . لا تستطيع

(٤٣) « يظل نظام المعجم اكثرها موافقة ودقة : ان ممارسة بيانات الترتيب collocations والارجاعات الترادفية والتماثلية تقلل من نقصه . ومن ناحية اخرى فان العرض الابجدي ضمانة للشمول فهو يمكن من التحقق بسهولة من وجود شكل في المعجم ».
H. Mitterand ذكره Dubois المرجع نفسه ، ص ٥٧ .

مطلق كلمة عربية الافلات من الاحصاء الذي يبدو مبداه هنا اكثر منهجية من الترتيب الابجدي كونه لا يجيز النسي (الناجم عن استعمال محصور) . يقابل اثر الشمول اثر تنحيه . فكل كلمة لا يذكرها المعجم ليست عربية . في حين ان « انقطاع الترتيب الابجدي » ضروري لمعجم لا يريد ان يغطي الا جزءا من مفردات اللغة، لا يترك كتاب العين مكانا الا لتنحيه واحدة تشير اليها الخانة الفارغة في اللوحة .

٤ ـ قواعد البناء وقواعد القراءة .

يبني كتاب العين وهمين : يحمل شرح قواعد الترتيب على الاعتقاد بوجود سبيل خطوطي ينطلق من الاصوات ليبلغ « الالفاظ » (قواعد التركيب + قواعد الاشتقاق) . ويبدو من ناحية اخرى ان القراءة يجب ان تتبع سبيلا معاكسا : صعودا من « اللفظ » الى الاصوات .

لقد رأينا انه ليست هناك قواعد اشتقاق تربط « المدخل » « باللفظ » هناك انقطاع هام يجعل « البناء » غير متجانس : الطريق من الصوت الى « الكلمة المعجمية » متصل وينتج جدولا كاملا من الخانات القابلة للامتلاء . كيف يتم هذا الاخير ؟ المقصود هو التحقق من ان « لفظا ما » هو جزء من طبقة صغيرة معينة ، وذلك من خلال تحليل « اللفظ » صوتيا .

اشار فوكو «Foucault» في كلامه عن معرفة اخرى تعنى ايضا بالجدولة الى « انه على الجدول ، تحت وظيفته التحليلية ظاهريا ان يوزع المرئي داخل تشكل مفهومي **سابق** ولا دور له فيما عدا ذلك . لا يكون العمل اذن في وضع علاقة متبادلة بل في اعادة توزيع بسيطة لما سبق ان اعطي بامتداد مدرك في حيز مفهومي محدد سلفا . انه لا يقدم اية معرفة لكنه يسمح في الاكثر **بالتحقق** من شيء » (٤٤) .

هكذا تنهج القراءة : تجزئة الكلمة تقودنا الى « استشارة » الكتاب ـ الجدول (٤٥) . «فالتعبئة» ليست اذن ظهر «القراءة» ، انهما تمتزجان

(٤٤) Foucault نشأة العيادة ، ص١١٤ .

(٤٥) « بالنسبة للقراءة او بالاحرى لحل الشفرة décodage اذ ليس المقصود قراءة حقيقية بل شكل خاص من **الاستشارة** اي من التقابل بين معرفة خاصة وبين معلومة يمكن التنبؤ بها ومعدة لان تكملها وتحددها وتحل محلها » .

A. Rey - Typologie , p. 49 .

عندما تبنى الخانات . وهكذا قد تكون هناك عمليتان من طبيعة مختلفة كليا : يتم وضع المدونة حسب ترتيب لا يمكن ان يكون الا مكتوبا ، وينتج وحدات نظرية **وخطوطية** لا تلفظ . وعملية ترتيب « الالفاظ » في الجدول يتعلق بادخال الكلام (الكلام المنطوق) في الكلام المكتوب ، اي بتصنيفه الخطوطي .

ان كتاب العين يسجل اذن سيطرة الكلام المكتوب على الكلام المنطوق، سيطرة الواحد على المتعدد (تعدد اللهجات) .

٤ ـ تشكل المعرفة

(١) ـ **البحث عن المعنى** : تستند المعرفة في كتاب العين الى تفتت المعنى في نهايات فروع الجدول . ولا حاجة للانعطاف او للسير من اجل اكتشاف المعنى فهو لا يزال في متناول من يعرف **اين** يجب البحث عنه (في اية منطقة من الحيز الخطوطي) ، وهو لم يحتجز بعد في قواعد ولم يحتكر في نص يجب حل رموزه . فالمعرفة هنا ليست مكتومة . واذا فضلنا في هذا المجال الكلام عن تعميم اللغة او عن ايصالها (٤٦) فلا بد من اعطاء هذه المفاهيم درجة معينة من النسبية .

ان « علم الاصول » ليس واردا في نطاق هذه المعرفة لان المعنى ليس موضوعا في جذر او تحته ولا في المسافة التي تقود اليه . والذي لا بد من معرفته هو كيف اصبح « علم الاصول » كما نجده مثلا في لسان العرب ممكنا، هذا بغض النظر عن مظهره الكيفي . لكن من المؤكد ان عمل الجدولة بمجملته الذي تم في القرن الثاني للهجرة شكل الى حد كبير شرطا لامكانية تحقق « علم الاشتقاق » في الاجيال اللاحقة (٤٧) .

(٢) ـ قواعد الادماج التنحية

لقد تدرجنا شيئا فشيئا لجعل فكرة المعجم نسبية باعتبارها عامل اتصال بين الجماعات أو بين طوائف مختلفة ، وآثرنا الدلالة على تفكك المعجم

---

(٤٦) « فالمعجم الاحادي اللغة هو اذن عامل ايصال ، وهو يسهل عملية تبادل الفهم بين الافراد » . Dubois ـ المرجع نفسه ، ص ٣٦ .

(٤٧) يجب البحث عن كيفية « قراءة » الاجيال اللاحقة للخليل ولسيبويه .

الى عدة مسطحات وعلى عدم توافق قواعد « الاشتقاق » مع الاساليب المعتمدة بالفعل .

وتلعب القاعدة هنا دورا نوعيا رغم انها ليست « علمية » وقد تبدو غير نافعة (٤٨) ان طابعها الالزامي يجعلها لا تستند الا على ذاتها ، لكنها تنتج آثارا خاصة في المقال . اذا صدقنا ادعاء القواعد المصرح به فانه يتعين عليها أن تتيح الكلام عن امكانية وجود كلمة ما في المعجم والا فان الخانة الفارغة تكون بحد ذاتها معبرة عندما نضطر الى استشارة المعجم .

القاعدة هي اذن قاعدة ادماج/تنحية كلمات التجلية الشفوية . انها تعمل على توزيع اللغة وذلك باحداثها اثرا تمييزيا مناقضا لاثر الايصال (٤٩) ان الدافع وراء دراسة العربية وانجاز معجم من قبل عناصر فارسية لا يعود اذن الى كون الترجمة او امتلاك اللغة العربية امرا لازما .

(٤٨) « ان القاعدة تفترض نشاطا معياريا وتقريبيا في الوقت نفسه (الامر سواء) : وقد يقال انها متناقضة بقدر ما هي عاجزة عن تبرير نفسها ومضطرة بالتالي الى اخذ معاييرها التي تعجز عن تكوينها من مكان آخر » ، ص ٢٢ .

Macherey - Pour une théorie de la production littéraire .

(٤٩) بعد ان يذكر دور المعجم « كعامل ايصال » (ص ٣٦) يؤكد لاحقا انه يبدو انه يلعب « دورا تمييزيا اساسيا » . انه علاقة وجود اثرين متناقضين بالفعل . Dubois ـ المرجع نفسه .

الفصل الثاني

جدول الجمل

١ -

مقدمة

ان تاريخ الافكار يود ان يتعرف الى اصل يكون لكل ميدان معرفي مُحصى . فهو يبحث في فعل مؤسس ، عن مضامن « شكل » حاضر ابدا عبر التاريخ ، جاهز لاستيعاب مضامين متنوعة واضافية آتية .

ومما لا شك فيه ان تاريخ الافكار يتوصل من خلال تاريخ بدايات علم القواعد الى حجب المسبقات التي تربط تحليلاته بطريقة افضل تجعله يتجلى بصورة بداهة لا تتزعزع . أو ليس امرا طبيعيا ان تعطي حضارة لنفسها قواعد لتعقل لغتها ، ان يولي الناس انتباههم للظاهرات اللغوية . لماذا يجب البحث في هذا الامر عن سبب آخر سوى رغبة طبيعية بحتة بعدم فقد هذه اللغة ! قد يكون تثبيت القراءة والكتابة قد سلك ايضا مسلكا طبيعيا « حرصا على عدم تحريف القرآن ، وعلى قراءته قراءة صحيحة وفهمه ، وادراك معناه ادراكا تاما » (١) .

لنطمئن اذن الى ان فكرة الدقة العلمية قد وجدت دائما وعلى التاريخ ان يحاول معرفة ما اذا كان الذي كتب الكتاب **امينا** ام لا . وهكذا « يبدو ان سيبويه وكذلك استاذه الخليل كانا قد عملا بصورة **مستقلة** : لقد جمعا الامثلة المستقاة من القرآن ومن الشعر القديم وبحثا عنها ثم استخرجا منها القوانين » (٢) (نحن الذين نؤكد) ولسنا بعيدين عن منهج العالم المعاصر .

---

(١) G. Wiet - Introduction à la littérature arabe ص ٦٥

(٢) المرجع ذاته ص ٦٧

تستند فكرة نشوء قواعد اللغة الى عدد معين من المنطلقات :

الحافز ، الابتكار ، (عبقريا كان ام لا) ، التأثيرات ، والقانون الحافز: « درس العرب لغتهم استجابة لحاجة ملحة . (...) كان لا بد من تلاوة القرآن دون غلط وعلاوة على ذلك كان ينبغي تفسيره على يقين باعتبار انه مع الحديث اساس التشريع القرآني . وشعر العرب ايضا بحاجة الى امتلاك دقيق لقواعد لغة القرآن اذ انهم لاحظوا بسرعة ، وفي نقاط عديدة ، التفاوت بين لهجاتهم المحلية وهذه اللغة المقدسة بالنسبة لهم . من ناحية اخرى حصل انخراط الجماعات من غير العرب والتي كانت تحتاج الى تعلم اللغة العربية وتعلمها بصيغة صحيحة » (٣) .

ان « التلاوة **دون غلط** » ــ و « التفسير **اليقيني** » ــ و « الامتلاك **الدقيق** » ــ والتعلم **الصحيح** » ــ هي مفاهيم نقلت الى معرفة قد لا تنطبق عليها . فالغلطة مثلا لا تظهر الا عند وجود قاعدة لا يمكن تخطيها . فقواعد اللغة هي مكونة الغلطة ولا يمكن ان تنتج قواعد لغوية عن شعور بالخوف من الغلطة .

وتكمن فكرة الابتكار في تشخص اللحظة التاسيسية لتلك القواعد . فالخليل « قد ابتكر منهج العروض العربي والف اول قاموس » (٤) وهو « المبدع الفعلي لعلم القواعد » (٥) . لكن طابع الدقة هذا في الابتكار يفقد كل واقعية بمجرد ان تطرح مشكلة تحليل النتاج وتركيبه الداخلي وقواعده الخ .. عندها يرده التاريخ الى « تأثيرات » متنوعة : يونانية ، هندية ، او عربية (Fleisch ص ٢٣) (٦)يبعثره الى مفاهيم يبحث لها عن اصل بعيد وغالبا فرضي . هكذا تم مثلا « نقل مفاهيم عامة » يونانية ، لكن علماء القواعدالعرب، « الذين تزودوا بهذه المفاهيم الارسطية الاولية التي قدمتها البيئة استعملوها بذهنية عربية ، فان وصف مقولات القواعد كان عربيا وكذلك ترتيبها الى حد يمكن القول معه ان القواعد كانت اقل العلوم الاسلامية خضوعا للتأثيرات

---

(٣) Fleisch- Traité ص ٢٦ .
(٤) Wiet ـ المرجع نفسه ص ٦٦ .
(٥) Fleisch– المرجع نفسه ص ٢٨ .
(٦) المرجع نفسه ص ، ٢٤ انظر هذه المفاهيم ص ، ٢٣ رقم ٢

الخارجية وبقيت ذات طابع عربي خالص » (٧) .

هناك اذن تارة نوع من الخلق الخالص وتارة اخرى « عمل » « تنظيمي » لعناصر وُجدت سلفا .

وفيما يتعلق ب « اصول » القواعد العربية تجد هذه النظرة الى التاريخ نفسها مضطرة الى ابداء « دهشتها » (لكن سرعان ما تموهها بفكرة «العبقرية» او « تاثير المنطق اليوناني ») :

« لقد عرف تقنين مشاكل القواعد حله الاكمل منذ سيبويه ولم يضف اليه شيء اساسي مما يجعل هذه الظاهرة مدهشة باعتبار ان أعمال التاليف في هذا المضمار تظهر بشيء من البطء وبعد نقاشات طويلة . هذا الامر يسمح لنا بتبيان عبقرية هذا الشيخ الجليل في دراسات القواعد » . (G · Wiet — ص ٦٧) .

« ان سرعة تطور القواعد العربية هي السبب في استمرار الغموض الذي يكتنف أصولها ، فالتقاليد النحوية تكون عادة بطيئة التكون ولا تنتج مؤلفات تركيبية الا بعد مرور فترة من النقد والمناقشة ، الا أن كتاب سيبويه يقدم مؤلفا فيه تقنين لكل ما هو جوهري في اللغة العربية . لذلك تم البحث عن التأثيرات التي عجلت في هذا التطور » Fleisch — ص ٢٣) .

بالرغم من ذلك ، ومحافظة على مخطط العمل التأليفي هذا الذي حوّله التاريخ نفسه الى سخرية سوف يعود « تاريخ الاستشراق » الى أصول اخرى مثل « عبدالله بن ابي اسحاق » (٨) الاب الفرضي للقواعد كما يذكر سيبويه ، او الى عمل اجيال عديدة لا نعرف عنها الشيء الكثير .

٢ —

لم نتبع « حركة الاستشراق » في سياق اصبح بديهيا لكثرة ما رُدد . ولم نحاول معرفة ما اذا كان للقياس المعنى نفسه ، في المنطق الارسطي . ولا

---

(٧) المرجع نفسه ص ، ٢٥

(٨) يقال عنه انه « المنشيء » و « الانسان البارز الذي عرف كيف ينظر في الابحاث المترددة الخاصة بعلم ناشيء » Fleisch— ص ٢٧

اذا كان الحرف منقولا من اليونانية ، بل حاولنا الاجابة على سلسلة اخرى من المسائل .

لقد بدا لنا ان نسأل المصنفات عن شروط امكانية ظهورها لا عن اصلها. فالنتاج يحتل حيّزاً محددا ضمن ممارسات متنوعة تحتمه سلفا حسب سببية متعددة . فهو ليس مجموعة افكار يمكن احصاؤها ولا صفحة بيضاء تنطبع عليها ذاتية مفرطة بل انه يتلقى من الخارج الانتظام الذي يحدد بنيانه وذلك على مستوى ما تخفيه من الاشياء التي تبدو اشد ظهوراً من غيرها فالنتاج لا يصرح باصله ولا بالمكانة التي يحتلها ضمن الممارسات .

ا ـ اللغة كموضوع مقال

ان طرح مسألة ظهور قواعد اللغة في القرن الثاني الهجرة يعني السؤال عما جعل البحث في اللغة ممكنا وعما جعل اللغة تظهر كموضوع للتحليل . ولم يكن هناك بالطبع اي تفاوت زمني بين اللحظتين وفي دراسة اللغة ذاتها يكمن تكونها كموضوع للمعالجة . هذه الممارسة الجديدة كليا بالنسبة لممارسات تنقيح الشعر الجاهلي او نقل الاحاديث ما كانت وجدت الا بشرط اساسي هو أن تصير اللغة العربية موضوع صراع بغض النظر عن تحققها في مدوّنة محددة فلا ينبغي الاعتقاد بوجود استمرارية بين زمن استعمال اللغة لتلاوة القرآن وزمن تحولها الى دراسة « الاداة » التي ظل استعمالها يتم بلا وعي حتى ذلك الحين . فان التاريخ الواقعي لا يخضع مطلقا لسياق التجريد العلمي . كان لا بد من شيء آخر غير عملية فكرية بسيطة . كان لا بد من ظهور ممارسات مؤسسية جديدة من شأنها ان تعزل اللغة .

يجب البحث دون شك عن مقدمات عزل اللغة في الشروط التي تحكمت بتعريب الادارة في خطوات هذا التعريب الملموسة . لقد راينا ان التعريب كان تدبيرا يسعى الى مركزة السلطة وموجها ضد الاستقلالية النسبية التي كانت السلطات المحلية لا تزال تتمتع بها ، لذلك كان لا بد لهذا التعريب من انتاج اثر نوعي : فبينما كانت الصراعات حول السلطة بين مختلف القبائل تولد مجابهة بين الاحاديث (كان الرهان فيها هو مضمون التقليد وليس اللغة نفسها) نجد اللغة العربية هنا في مواجهة مع لغات اخرى (فارسيه او يونانية) بالاستقلال عن المضمون (الديني او العملي) نظرا لان الامر يتعلق

بالمحاسبة وبالمراسلات الادارية . ومن ناحية اخرى سيكون لهـذا التـدبير سلسلة اخرى من النتائج :

ــ بينما كان تعلم العربية في السابق وسيلة تبادل بين العرب والمستوطنين الاصليين وحسب اصبح الآن مركزا للصراع. فتعلم العربية بالنسبة للكتّاب الفرس مثلا يعني الابقاء على مكانتهم كوسطاء بين السلطة المركزية والفلاحين المكلفين بالضريبة كما يعني استمرار تمتعهم بامتيازاتهم .

ــ كانت العربية لا تزال تابعة للهجات وللفروقات في اللفظ ، والحـال ان تدبير تعريب الادارة المؤسسة على الكتابة كان لا بد من ان يقود الى تحسين التعبير الخطي وبطريقة غير مباشرة الى تجانس اللغة . وهكذا يمكن طـرح مشكلة العلاقة بين التعبير الشفهي والتعبير الكتابي الى جانب مشكلة تحليلات اللغة .

لكن هذا العامل لم يكن الوحيد ، ونحن لا ندعي هنا حل هذه المشكلـة المتعددة الجوانب . فوحدة التحليل التاريخي الدقيـق الفترة الممتدة حتى منتصف القرن الثاني للهجرة يسمح بتعيين حدود هذا السياق المعقد والمتعدد الذي ادى الى ظهور بحث حول اللغة . ويمكن ان نذكر تاريخ « قواعد بـور رويال Port - Royal » على سبيل المقارنـة . لقد استطـاع الاصلاح التربوي في القرن السابع عشر مثلا ان يولد نتائج ابستمولوجية هامـة عـلى صعيد تحليل اللغة (٩) اذ فصل اللغة التدريسية عن مستوى اللغة المدّرسة .

« ستكون لغة التعلم اكثر اللغات الفـة وطبيعية بالنسبـة للتلميذ ، وستكون اللغة المتعلمة تلك التي يتطلب تعلمها منه تحصيل العناصر اذا كـانت لغة غريبة والمبادىء اذا كانت لغته هـو ، يتطلب التعليم في جميع الاحـوال الانتظامات : فالقاعدة يجب ان تصاغ في لغة المتكلم ، ويجب ان يفهمهـا وان يألفها في لغته والمثل سيوضح التطبيق » (١٠) .

(٩) « كان لا بد ان يبرز التفاوت القليل بين اللغة المدرسة واللغة التدريسية الشكل السائد حتى تتمكن نظرية اللغة من الاستقلال وحتى تتحرر من الضرورات التربوية المبـاشرة ومن هموم التفسير او من النزاعات الفلسفية على حد سواء » ــ مقدمـة
Grammaire générale et raisonnée - Foucault,pp Ix- vIII

(١٠) المرجع نفسه ص **vI**

لسنا نحاول هنا اقامة مماثلات في البنية مع « كتاب » سيبويه بل نشير فقط الى نموذج السببية الذي يحدد ، انطلاقا من ممارسات متنوعة ، وغالبا من الخارج ، تحولات معرفة ما . المدركة وغير المدركة . وهكذا نجد ان تأريخ القواعد يبقى عقيما اذا ما اقتصر على النصوص وعلى ابرز مظاهر نموها، الذي يقيس الاكتشافات على ضوء العلم الحاضر ويحكم في نتائج تطورات المعرفة نحو الحقيقة (١١) . والاكتفاء بالقول ان سيبويه قال كل شيء وان ما اتى بعده كان تردادا وحسب يعني جهل انتماء الكتاب الى شكل معرفي مختلف عن الشكل السائد في القرن الثالث وان مقارنتهما غير كافية .

ب ـ القواعد المعيارية

من المحتمل ان يكون هنالك في اللغة مقال نجهل طبيعته بالضبط تطور قبل كتاب سيبويه الذي يبدو انه كان اول كتاب في تشكله كصرف معياري مؤسس على **قواعد** . وسوف نقيس حداثته من خلال تحليل مفصل يتناوله . لكن تجب الاشارة مسبقا الى الآثار الرئيسية التي تركتها عملية فرض قواعد للكلام .

ان وضع علاقة بين لغة وبين قواعد يعني فك القربى التي كانت تربط اللغة بالمقال والاشياء والناس . واللغة العربية كانت مرتبطة اصليا بعرق غدا مسيطرا في الدولة الجديدة يعمل كطبقة مغلقة مجددة بمداها الجغرافي اكثر منه بوحدة لغوية قائمة (١٢) .

ورد كلام حول لهجة شعرية سادت قبل الاسلام (**Koine**) الا ان اللغة

---

(١١) «انتاريخنمو القواعد قد لا يلتقيبقواعد بور روايال الحديثةلانمعظم تحليلاتهذه المدرسة تدخل تماما فيتقليد نحاة النهضة ، وبعضها يعود الىفترة اقدم : تجديدات محدودة جدا في تحليل الصيغ (...) ومع ذلك فان نتاج لانسيلوودارنو يسجل تحولا في المعرفة النحوية ، فقد كون نمطا جديدا لظهور الموضوعات النحوية فيتحليل الكلام في مجال ابستيمولوجي جديد .. » ـ المرجع نفسه ص ، **XXVI - XXV**

(١٢) « بالنسبة لمسلم ما قبل الثورة العباسية كان العرب طبقة مغلقة وراثية ، الانتماء اليها يعطي امتيازات ويفرض واجبات . كانت موحدة من جراء نشأتها في مكان مشترك وليس **بسبب سلالة** مشتركة » .

Poliak - l'Arabisation de l'Orient sémitique , p.73 .

لم تكن قد احتلت خلال القرن الاول مركزا حاسما في وسط صراعات الفرق وحركات العصيان المحلية . ولم يكن فصلها عن اللهجات المختلفة ممكنا وظلت تحت اشكال مختلفة مستثمرة في مدونات معترف بها مثل القرآن (انظر على سبيل المثال وجود « قراءات » مختلفة) . كان لا بد من عدد معين من التحولات لتنفصل اللغة عن العرق وبالمقابل ليتغير كليا مفهوم كلمة « عربي » فلا يعود يعني طبقة مغلقة تسيطر على سكان مختلفين عرقيا وحسب .

يجب تأريخ تناثر اللغة العربية هذا ليس فقط من حيث مظهرها الكمي بل من حيث الطريقة التي قبل بها المعاصرون هذا اللسان او تخلوا عنه أو حولوه ، وكذلك من حيث الطريقة التي ماثلوه بها بالعرق العربي او فصلوه عنه. ولا بد لنا الان من الاكتفاء بالتوقف عند آثار هذه الظاهرة الاكثر سطحية.

من المؤكد ان بداية العصر العباسي تسجل انفصال التكلم بالعربية عن الانتماء الى العرق العربي . وفي هذا العصر ايضا ستنتشر العربية بسرعة فائقة وستأخذ شكل لغة موحدة ، وبنوع اخص شكل لغة غريبة .

واذا أعدنا الكتاب الى هذا الاطار نفهم عندئذ ان فرض قواعد اللغة يوثق العربية برباط اشد من قبل . وتكلم العربية سيكون تابعا لمعرفة تذكر قواعد الكلام ، ولن يتمكن المرء من ان يظهر بطريقة لاواعية انتماءه الى مجموعة ما عبر لهجته . ان تدرجا جديدا سوف يفرض من داخل اللغة قوانين الزامية ليست مؤسسة على فروقات في اللهجات بل على تميزات في درجات الغلط في قواعد اللغة . صارت معرفة القواعد الآن كافية لتكلم العربية ولم يعد ضروريا ان يولد المرء عربيا او ان يكون مولى قبيلة وهكذا فان اللغة العربية تحجب تحت وحدتها الظاهرة الانقسامات السابقة ، لكن قواعدها تتيح في الوقت نفسه ، نموذجا جديدا من التمايز الاجتماعي يستند الى معاقبة التكلم السيء .

كيف نفسر اذن ما سمي « بالتأثيرات الغريبة » ؟ وما كان دور المقولات المنطقية في عملية مفهمة «Conceptualisation» اللغة (او القانون) ؟

لقد تم التعرف في « القياس » الى مقولة ارسطية استوعبها النحاة العرب وارتقت شيئا فشيئا الى رتبة نهج عام في المعرفة . وحاول بعضهم العثور على المفاهيم المأخوذة من اليونانية الا ان ذلك كان خاصة لقياس

« الثغرات » بالنموذج الاصلي (وهكذا فقد تكون قواعد العربية قد اغفلت مثلا تحديد المسند اليه والمسند) (١٣) . لقد آثرنا عدم اقتناء اثر القياس ووضع جدول مقارن بين المنطق الارسطي وقواعد العربية ، معتقدين انه من الافضل اقامة وزن لتنظيم النسق الخاص ولعلاقات عناصره الداخلية وروابطه بالخارج . ان استعمال العرب للمنطق اليوناني او حتى معرفتهم لنصوص كاملة منه لم يولد آليا اثر « تقنين » ومع ذلك يبدو كتاب سيبويه من حيث اشد الترتيبات ظهورا اكثر « منطقيا » من المؤلفات اللاحقة رغم المكانة المتفوقة التي كان القياس قد وصل اليها . فكيف نفسر في هذه الحالة نضوب المنطق في شكل المؤلفات في وقت صار المنطق اليوناني فيه معروفا اكثر فاكثر .

لم يعمل المنطق اليوناني على احداث تغيير في معرفة لم تكن تنتظر غيره لتنتظم ، لقد اندمج في تنظيم للمعرفة باحتلاله المركز الذي هيأته له هذه المعرفة دون تحويل معطياتها الاساسية .

وتجب الاشارة من ناحية ثانية الى ان القياس لم يستطع احتلال مركز خاص الا بمدى ما تحول الى اداة تحليل بغض النظر عن مجال تطبيقه (في القانون ثم في قواعد اللغة) . لسنا نكشف عند سيبويه وكذلك عند الخليل عن تأمل المقال لذاته . لقد بدا ترتيب المقال حول اللغة طبيعيا ولم يعقل ذاته كمنطق مطبق على ميدان خاص . كان ذكر قواعد اللغة يمني ببساطة ذكر كيفية التفكير وكيفية الكلام دون ان يعترض كلاهما اي تفاوت وان كان ضئيلا .

ان دراسة دور القياس في القرنين الثالث والرابع للهجرة تعود اذن في آن معا الى طرح مسألة طبيعة القياس كأداة لتحليل اللغة (او في مجالات اخرى) والى طرح مسألة التحولات العلومية «épistémologiques» التي تدخلت في المعرفة وجعلت المقال يتضاعف ويفكر نهج تحليله بمقولة القياس .

---

(١٣) **Fleisch** - المرجع ص ٢٤ ـ « ان ثغرة كبيرة عندهم ، قوية بدلالتها : ليست عندهم نظرية عامة في الجملة . لقد ميزوا بين جملة اسمية وجملة فعلية لكنهم لم يفسروها بواسطة المسند والمسند اليه .

٣ -

أ ـ المعنى واللامعنى

هناك نسق بكامله من الفواصل والفروقات يحصر الصلة بين « اللفظ » و « المعنى » ويثبت مركز اللغة (صحيحة كانت ام لا) والشعر الجاهلي .

والطريق من « اللفظ » الى « المعنى » متعدد ومتنوع دون شك، لكن عبوره لا يستغرق وقتا طويلا . انه لا يطلع بعقبة ولا يصب في مسألة المنشأ ثم ان هناك لغة تسقط من البداية في اللامعنى او بالاحرى ، في المعنى المتناقض، وذلك دون توفيق او تعويض ممكنين. انها لغة مستحيلة تعارض اللغة الحسية اي اللغة التي يتماسك معناها بالمعنى الحرفي للكلمة .

ان نقول : « اتيتك غدا » (الكتاب ص ٢٥) يعني أن نشد الكلام باتجاه معنيين : الفعل الذي يفيد الزمن (١٤) الماضي ، و « غدا » التي لهما معنى المستقبل . ومن ناحية اخرى فان اضافة كذبة الى المستحيل او الى العبثي تضخم عدم توافق الصلة بين لفظ ولا ـ معنى. في هذا اشارة ايضا الى امكانية مجاورة العقل للاعقل في الكذب او في الخارق (الشعري ؟) . على هذا الانفساخ الاول بين المعنى واللا معنى سوف تتكون وقفات اخرى ، لكن لنر اولا ما هي العناصر التي يستعملها . يعطينا سيبويه بعض الامثلة (ص ٢٥ ـ ٢٦) .

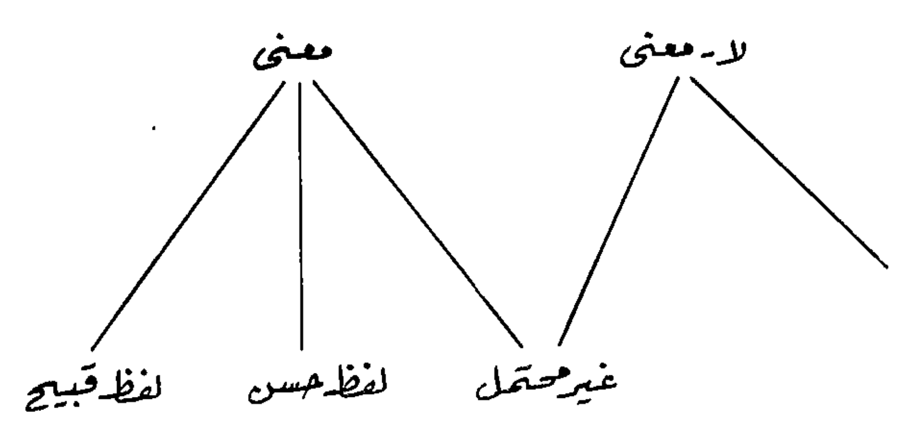
١ ـ المستقيم الحسن : اتيتك امس
٢ ـ المحال : اتيتك غدا
٣ ـ المستقيم الكذب : حملت الجبل
٤ ـ المستقيم القبيح : قد زيدا رأيت
٥ ـ المحال الكذب : سوف اشرب ماء البحر امس

ان الانفساخ بين الحالة الاولى والحالة الثانية مبني على المعنى . اما في قلب اللغة السليمة فان التمييز بين الحسن والقبيح يحصل فقط على مستوى « اللفظ » « ان تضع اللفظ في غير موضعه » ص ٢٦ . عكس الحالة رقم (٢) فان الانفساخ لا يغرق في اللا ـ معنى لان المعنى لا يتفجر . اما ما يأتي مشتركا بين الحالتين (اي المستقيم والمحال) فهو غير المحتمل الذي يلازم حدهما .

---

(١٤) الكتاب ص ٣٥ ـ الفعل يدل في الوقت نفسه على الحدث وعلى الزمن وعلى المكان .

وعلى الرغم من انتماء الحالة رقم (٣) الى اللغة المستقيمة بمدى ما تستعير منها لفظا متماسكا فهي ترث من اللغة العبثية ضعفا في المعنى ، وهكذا تستطيع ان تظهر على شكلين :



قد يكون من الافضل بغية الابقاء على التناظر اضافة حالة سادسة : محال قبيح . لكن ما ان تسقط اللغة في اللا ـ معنى حتى لا يعود اللفظ الحسن او القبيح موضع اهتمامها (وهل نستطيع وصف لفظ لا معنى له بانه حسن؟).

بالنسبة الى كتاب العين يشكل هذا الانفساخ بدعة ليس لانه غير مصرح به بل لانه لا يجد مكانه في جدولة الكلمات . ان جدول الكلمات يؤسس ، في الواقع ، قواعد تجيز اسقاط كلمة باعتبارها لا ـ معنى . وحتى يعترف باللا ـ معنى بالطريقة هذه كان يجب ان تنتج عملية دمج الاصوات في كلمة ، كلمة غير ملفوظة بوضوح او غير قابلة للتفسير . الا ان الكلمة تبقى واقعا لا يختزل ، واقعا معطى ، غير مركب ، يجب الاكتفاء بترتيبه . وعكس ذلك يعود اللا ـ معنى في الكتاب الى ترتيب مغلوط للكلمات في جملة ما . البدعة هنا بالنسبة لكتاب العين هي في وجوب ترتيب الكلمات للحصول على جملة وأن هذا العمل صادر عن ذات تختار عباراتها ومعناها .

من ناحية اخرى ، ان هذا الانفساخ لا يحيل ضمنا الى اي منطق قد يكون اثرا جزئيا له ، فانه لا يجيز مضاعفة المقال او امكانية تفكير تفاضلي يتناول آلية الاستدلال . ليس لهذا اية صلة بلا ـ معقولية السفسطة ، « فالمعنى » راس في « اللفظ » وليس بينهما اية فسحة تجيز لعبة الجناس . وقد يكون من الخطأ في الواقع الكلام عن « لا ـ معنى » اذ قد نكون بالاحرى امام حالة لا يتطابق فيها معنيان حقيقيان ومفهومان . ان الادغام نفسه يقع

على اللغة المستقيمة وعلى اللغة المحالة وهو الذي يبقى فيهما اللـفظ مرتبطا « بالمعنى » .

نجد ترددا على صعيد المفردات اذ يقال لنموذجي اللغة « كلام » بيد ان العبارة تنطبق ايضا على لفظ لا يكون الا ذا معنى حسنا كان هذا اللفظ ام لا ـ وهكذا يبدو خط القسمة غير أكيد لكنه يضع اللغة المخضعة للدرس ازاء المعنى مباشرة لن يبقى بعدئذ الا تمييزات لغات حسنة عن اخرى قبيحة وعلى اساس مسألة « مركز » المفردات في الجملة وليس الصلة بين المفردات ذاتها .

ب ـ « اللفظ » و « المعنى »

رأينا ان العلاقة بين « الالفاظ » ليست على نمط واحد . وقد تكون هناك علاوة على ذلك حالة « العوارض » التي لا تقحم المعنى ولكنها تطال اللفظ بالذات .

اللفظ والمعنى يلائم بعضهما بعضا على الدوام وهذا هو نسق الدلالة المشترك لقطاع كامل من معرفة العصر . ان تعقيد الجمل الاكبر (التي يعالجها الكتاب) بالنسبة الى الكلمات (في كتاب العين) يدخل مشاكل التركب ويظهر جانبا ظل مضمرا في كتاب العين : الالتقاء بين « الالفاظ » و « المعاني » . يحصل هذا الالتقاء في المعجم اما على شكل المرادف الذي يحدد كلمة او على شكل تعدد المعاني . فكيف يعقل هنا في الترادف والمجانسة ؟ يعدد الكتاب الحالات الثلاث التالية :

١ ـ الفرق بين « الالفاظ » وبين « المعاني » .
٢ ـ الفرق بين « الالفاظ » وتطابق « المعاني » .
٣ ـ تطابق « الالفاظ » والفرق بين « المعاني » .

لنلاحظ في اول الامر ان المجانسة مأخوذة كالتقاء « عبارتين » في حين يظهر الترادف وجود المعنى ذاته تحت عبارتين مختلفتين . ينتج عن هذا امر اساسي : في حالة الترادف لا خطر من فقد المعنى عند قلب الالفاظ ، اما في الحالة رقم ٣ فانه من الضروري التحقق مسبقا من لفظين مختلفين . ان اللفظ لا يتوصل مطلقا الى ان يحقق انفصاله كمادية مستقلة عن المعنى يكون ركنها من طبيعة مختلفة .

من هنا ان الصلة بين « اللفظ » و « المعنى » لا تعقل ويستحيل كذلك استخراج نظرية في الاشارة تبين كيف ان « اللفظ » يدل على « المعنى » . (لن

نشهد تكون سميولوجيا الا في اواخر القرن الثاني وفي مطلع القرن الثالث) . وبالتالي فان نظرية في الكلمة ليست ممكنة طالما ان « اللفظ » و « المعنى » لا يعقلان ضمن وحدة مادية . علاوة على ذلك ، ان عدم امكانية فصل «اللفظ» عن المعنى تمنع تحقيق قفزة من « معنى » الى آخر في المجانسة . هذا ما يثبت لنا من جديد استحالة علم اصول كيفي أم لا ، يكون اساسه تحول مادية « اللفظ » . يبدو ان المعنى يسبق « اللفظ » دائما بقليل ويحدده سلفا بعزم، واذا جاز استعمال صورة لتصوير علاقتهما فلن يمثل اللفظ على انه حاوي لسناد « المعنى » بل اداة يستعملها « المعنى » . ان المفردات المستعملة تظل على كل حال قريبةجدا من الفكرة المألوفةعند انسان يعبر عن قصده («معنى») بالكلام (« اللفظ ») هذا ما تشير اليه فكرة « العارض » لانه يحصل فقط على مستوى « اللفظ » ولا يبدل سوى السطح وذلك حسب ثلاثة انماط مختلفة :

ـ حذف حرف من كلمة (حذف) .

ـ استبدال حرفين (« الاستغناء بالشيء عن الشيء »)

ـ حذف حرف والتعويض بآخر (العوض)

ان هذه الاشكال الثلاثة « للعارض » لا تطال المعنى الذي يبقى سليما ولا يحتاج اطلاقا الى ان يكون منتجا او مفسرا . ولن تكون القراءة بحثا عن اسباب الانتقال من « اللفظ » السليم الى « اللفظ » المنقوص . فالاصل مُعطى مباشرة ولا ينغرز في النص . انه مرتبط باللفظ وليس « بالمعنى » ، بالطريقة نفسها المتبعة في كتاب العين والتي كان يبحث فيها عن المعنى من ناحية « الالفاظ » وليس من ناحية « الجذور » (بالرغم من اختلاف هذه الحالة قليلا فان المعنى يعطي « للفظ السليم » وللفظ المنقوص في آن معا) .

هذا الضعف في « اللفظ » يطبع مقالا خاصا هو الشعر . يذكر سيبويه حالات (ص ٢٦ الى ٣٢) لحق فيها العبارة تغير بالنسبة الى الاصل لكن المعنى فيها جلي الى حد يغني عن ذكره في كل مرة .

ان الجوازات المسموح بها في الشعر غير مقبولة في اللغة : (ص٢٦) «اعلم انه يجوز في الشعر ما لا يجوز في الكلام » . وهكذا يرتسم اول فاصل بين الشعر واللغة في الوقت ذاته . وسوف نجد فيما بعد نموذج انفساخ آخر .

ج ـ الموضع والبناء

ليست الجملة مجرد تجاور لالفاظ عانية لا صلة بينها . وما ينبغي أن يعقل اثناء تحليل للغة انما هو العلاقة بين الالفاظ . ان عرض تنظيم « قواعد » سيبويه مهمة بالغة الصعوبة وذلك لان المفردات التي يستعمل قد استثمرها ماض بكامله من التحليلات الصرفية التي افرغتها من معناها الاصلي . يجب ان نلزم سطح المقال عند سيبويه بمنهجيته فنلقي جانبا كل ما قدمه الينا التعليم المدرسي في قواعد العربية على انه بديهي، ونعيد الى الكلمات والتحاليل مجالها الاول الذي لم يعد مجالنا والذي ينتمي الى تاريخ آخر والى معرفة اخرى ترغمه حتميا .

هل يجب البحث عند سيبويه عما يشبه النحو أو عن نظرية في وظائف قواعد اللغة ؟ وهل ان في كتاب سيبويه « قواعد » « كما نفهمها اليوم ؟ ولكن ما « القواعد » ؟ هل هي فقط مقال يحدد قواعد اللغة ؟ المجازفة هنا هي في ان نجمع تحت راية واحدة مؤلفات لا تخضع للمنطق ذاته وتاريخها غير مستقل ولا متواصل » .

ان كتاب سيبويه لا يدع مجالا لأن يعقل تحت مقولة « القواعد » كما فقدت لفظة « معجم » دلالتها السائدة عندما طبقت على كتاب العين .

يتمفصل « اللفظ » و « المعنى » في الكتاب حول مفهومين اساسيين : مفهوم نظام ترتب الكلمات في الجملة ومفهوم « بناء » الكلمات بعضها على بعض (بالمعنى الذي نبني فيه حائطا بوضع حجر على آخر) (١٥) .

سنتكلم فيما يلي على « موضع » الالفاظ في الجملة وعلى « بناء »كلمات الجملة (اننا « نضع » كلمة **قبل** او **بعد** كلمة اخرى/و « نبني » فعلا **على** كلمة او العكس) .

ان الانتقال من الكلمة الى الجملة يدخل طرفا جديدا لم يكن واردا عند

---

(١٥) راجع معنى لفظة « بنى » في لسان العرب الجزء ١٤

ان مفهوم « بناء » جملة يوحي بفارق الصلابة اللازم عن المعنى الخاص ، فهو يشير الى شيء من الاستمرار عكس التحول .

معالجة الكلمات بمفردهـا (او « الالفاظ ») وهـو حركـة الاعراب في آخر الكلمات . لنذكر انه كانت لهذا الطرف زمن سيبويه (وقبله بكثير دون شك) اهمية عظمى بمدى ما كان اول من تأثر بالتحولات التي لحقت باللغة المحكية .

ماذا كان دور الحركة الاعرابية الختامية في نظام سيبويه ؟ وهل كـان انعكاسا او اشارة الى وظيفة صرفية ؟

لنأخذ جملة مركبة من طرفين نسميهما اتفاقا اسما وفعلا : ضربت زيدا (يسقط الضمير من الحساب) . انطلاقا من العوامل المذكورة سالفا (الموضع والتركيب والحركة الاعرابية) يمكن الحصول على عدة تركيبات مع المحـافظة بالطبع على معنى العمل مهما كانت التحولات الحاصلة (يظل المعنى : ضربت زيدا) . العاملان المنظوران هما الموضع والحركة الاعرابية لا غير .

عامل اول : الموضع : نحصل على ترتيبين ممكنين انطلاقا من كلمتين : ضربت ، زيد ــ زيد ، ضربت .

عامل ثان : الحركة الاعرابية : حركتان اعرابيتان ممكنتان هنا : فامـا الضم او الفتح . يستطيع هذان العاملان انتاج اثر خاص مـن التعويض او الابدال في حالة خاصة يكون فيها الفعل « مبنيا » على الاسم . نضيف ضميرا وهو حرف الهاء الموصوف لاحقا بالمضمر (١٦) .

على مستوى اول تذكر اربع تركبات (شكليا هناك اكثر من ذلك) :

(١) ضربت زيدا (٢) زيدا ضربت (٣) زيد ضربته (٤) زيدا ضربتـه . التركبات تتكون حسب مبدأ « بناء » مميز .

ندع الآن جانبا الحالة الرابعة اما الحالات الثلاث الاخرى فيمكن جمعها حسب نموذجي بناء :

اولا : ان « بناء » الاسم على الفعل (الحالتان الاولى والثانية) يدخـل

---

(١٦) لو ان نظرية في الاشارات كانت ممكنة في نسق **الكتاب** لامكن ان تجد نظرية الضمير وميزاته التمثيلية مكانا لها هنا .

القاعدة التالية : يبقى « موضع » الكلمات في الجملة لا مباليا ازاء بناء ما (ص ٨١) . كيف نستطيع التعرف الى « البناء » في هذه الحالة؟ يكون ذلك بواسطة اشارة مميزة تجيسمه وهي الحركة الاعرابية . بفضلها سنعثر وراء موضع الكلمات المتغير ، على نظام اكثر ثباتا يكون البناء ومعناه في آن معا . هنا يأخذ مفهوم « المعنى » مدلولا جديدا بمدى ما يشمل عدة اطراف ويحيط بعلاقاتها.

« البناء » « والموضع » متمادان ، كلاهما مقروء في الكلام دون اية مداورة وفكرة « البناء » سترث من فكرتي الترتيب والمعنى مع غلبة الثانية على الاولى في عبارة مثل ضرب زيد عمرا للاسمين قابلية الانقلاب من حيث الترتيب، في حين يظل « معنى » الفعل هو نفسه طالما لن يلحق الحركة الاعرابية اي تحول. هكذا نرى كيف تترابط المفاهيم الثلاثة : المعنى ـ البناء ـ الحركة الاعرابية . ولكن الموضع يقترح البناء بمدى ما يكون هناك شكل يجعل البناء اشد وضوحا بفعل تطابقه مع الموضع : المثال الاول .

ثانيا : « بناء » الفعل على الاسم ، وله حالة واحدة (الثالثة) . يرتبط هذا النموذج بقاعدة تجعل اضافة حرف الهاء الزامية (القاعدة ص ٨١) .

ومن ناحية اخرى ، اذا بني الفعل على الاسم يأتي الاسم مرفوعا بالضرورة . بعد وضع هذه القواعد ـ علاقات البناء/الموضع ، التركيب/ اضافة الهاء ـ يستحيل مبدئيا تكون تركبات اخرى دون تخطي هذه القواعد. ومع ذلك لا بد من دراسة الطريقة التي تعيد ادخال حالتين يجب حذفهما من الكلام من حيث المبدأ وهما الجمل التالية : زيد ضربته (الحالة الرابعة) وزيد ضربت (الحالة الخامسة) .

ان الحركة الاعرابية وحرف الهاء في الحالة الرابعة هما في وضعية متناقضة :

الحركة الاعرابية تدل على ان الاسم « مبني » على الفعل في حين يدل حرف الهاء على العكس . وبالرغم من ذلك ستدخل الجملة في جدول الحالات المعالجة سابقا والتي تمثل الكلام الحسن . ان عملية الاستثناء او الفصل بين الكلام الحسن والكلام القبيح سوف تتخطى هذه الحالة . وسيبويه سيتبع برهنة تحفظ معنى الحركة الاعرابية في كلمة زيد بان يجد لها « بناء » وهميا على فعل اضماري فنحصل على : ضربت زيداً ضربته (ص ٨١) وهكذا تظل

القواعد محترمة . الجملة الجديـدة المحصلة ستكون نوعا ما منشأ الحـالة الرابعة لكنها ستحترم كمال المعنى من ناحية وطبيعة الصلة بـين العامـلين (الحركة الاعرابية والهاء) ثم « البناء » من ناحية اخرى . لا تستطيع الحركة الاعرابية اذن ان تتحمل تعددا في المعنى ، فهي تحتوي في ذاتها على سماكة في المعنى لا يمكن التنازل عنها .

البرهنة التي اوردناها لا تدخل طريقة قياس مختلفة عن التي ذكرناهـا آنفا ويمكن وضع الصلة بين الحالة الرابعة ومنشئها تحت عنوان «الاعراض» التي تلحق « بالالفاظ » من جانب واحد دون ان يتأثر « المعنى » . الحالـة الرابعة هي التي ترسم « الالفاظ » وضمن هذه الحالة يرتسم « الموضع » في حين ترسم الحركة الاعرابية « المعنى » .

من المفيد تسجيل الطريقة التي تم فيها توضيح هذا التصنيف فـي النص . لم تدخل استشهادات من القرآن ومن الشعر الجاهلي الا فيما يختص بالحالة الرابعة . ان برهنة سيبويه تفسح المجال للتعرف الى صحة « قراءتين» ممكنتين تتناولان الجمل المذكورة ، فهما تتعلقان اما بالحالة الثالثة او بالحالة الرابعة . كل واحدة من هاتـين القراءتين مربوطـة بنموذج من « البنـاء » ومندمجة في جدول للحالات تحتل فيه موضعا تحكمه قواعد ، ان الاثر الناتج ليس اذن اثباتا لشرعية القراءات وحسب بل هو كذلك وخاصة اثبات لمراتبية لا يحدد موقعها نسبة للحقيقة (معرفة ما اذا كانت قراءة ما صحيحة ، واذا نطق النبي فعلا بهذه الكلمة) بل نسبة للكلام الحسن . تزيل هذه المراتبيـة الجديدة نوعا ما مفعول الابعاد السياسية الدينية الخاصة بهذه القراءات .

ونعرف من جهة اخرى ان الذي اتاح تعدد القراءات هو قصور الكتابـة وغياب الحروف الصائتة . انما تثبيت هذه الحروف (الحركة الاعرابية) في تركيب يسجنها في شكل منظور ، لم تعد اذن رهينة الكلام ومصادفاته .

وحدها الحالة الخامسة تقع في المغلوط وسترسم حد الكلام المنظم ، مع العلم انها وجدت كالحالة الرابعة في شروح شفوية : شروح الشعر الجاهلي .

لكن ليس في كتاب سيبويه اشارة الى منهج تجريبي ولا الى بناء قواعد تذكر قوانين اللغة كما تظهر في التجلية الشفوية . ان الخط الفاصل الاول الذي كان قد اسقط في اللاـمعنى شكلا من الكلام يوصم هنا بالضعف رغم احتفاظه

بمعنى يبديه . ومرد ذلك الى غياب الضمير والى استحالة افتراضه بحالة الاضمار كما كان الحال مع الفعل في المثال الرابع .

يقع الشعر احيانا في هذا الضعف ، غالبا عند حدود الجائز ، وهذا الضعف مسموح به عندما تسببه قافية تعتبر قسرية (ص ٨٨) ، لكنه يشابه الكلام الهزيل في حال غياب اي سبب من هذا القبيل (ص ٨٥) . وفي حال كان القياس لا مباليا تجاه قانون الحروف الصائتة .

ان تصنيف الجمل لا يعمل فقط في حالات مسالية تطرحها « القراءة » فالمجال نفسه موجود في بديلات التعبير . لذلك يمكن القول « من كان أخاك » او « من كان اخوك » ص (٥٠) لكن قصدا مختلفا ينظم معنى المتكلم وتركيب الجملة في كل حالة ... قد تكون بدت فكرة البناء عندما اشرنا الى الموضع الذي تحتله في نسق الكتاب قريبة من فكرة النحو بقدر ما استطاعت ان تتماسك وان تجد في حركة الاعراب تعبيرها الخاص .

هكذا بدا فيما بعد انه لا بد للوظيفة الصرفية من الانعكاس في قانون الحروف الصائتة لكن « البناء » عند سيبويه لا يمكن ان يعقل بمعزل عن اية احالة الى المعنى . واكثر من ذلك ايضا فان المعنى يسند « البناء » بمعزل عن عوارض المقال الممكنة . اي دور محدد يلعبه « البناء » في هذه الحالة بالنسبة « للمعنى » ولم يكون وضع « المعنى » في « بناء » امرا لازما ؟ ان « البناء » هو عامل تنظيم جوهري في المقال . قد يبدو هذا الاثبات غريبا لان هذه الوظيفة تتطاول على العنصر الذي تعرفنا اليه بصفته « الموضع » . كيف نوفق بين اثباتات مثل : يستوي تقديم او تأخير لفظة ، وبين القاعدة التي تنص على انه بعد فعل « كان » « لا يبدأ » باسم نكرة .

مرد الامر الى ان المعرفة التي نتناولها هنا تدور كلها حول مفهوم الانظمة المميزة . الم يضطر الخليل الى استبدال نظام معطى وكيفي مثل الابجدية بنظام يظهر كأنه طبيعي ؟ الكتابة مضطرة هنا ايضا لكي تستعيد المعنى الى استبدال نظام الكلمات بنظام الجملة الاصلي .

والقراءة هنا كالتفكير فهي تعمل على تصنيف الحدود ونقلها . وهذه عملية نظرية لانها لا تصل الى تحويل فعلي للجملة . هناك فرق عند سيبويه بين القراءة والتحليل . هذا الاخير يعمل دائما على قاعدة مخطط مرجعي

تعقل الحالات فيه بصفتها انحرافات . وتقوم عملية التوضيح عند سيبويه بعملية على تحويل حالة الى اخرى . من هنا الثبات في الرجوع الى التماثلات وتكشف هذه الاخيرة دائما عن الابعاد وعن الفرق الذي سيجيز الترتيب . اما القراءة فانها تبدو تعاقبية (١٧) لكن الابعاد لا يعني ان للحالة الاولى في صنف ما تميزا خاصا ببلوغ المعنى الا فيما يتعلق بقروئيتها المباشرة بينما ينبغي اخذ الحالات الاخرى من جانب القواعد .

ان موضع اللفظات في الحالة المذكورة اعلاه (الامثلة ٦ و٧) هو نفسه من زاوية « اللفظ » (مفردة « اللفظ » مستعملة في الصفحة ٤٨) في حين تكشف الحركة الاعرابية عن « بناء » مختلف سيربط مطلق جملة بمعنيين مختلفين متعذري التبسيط . وهكذا فبدلا من مضاعفة القواعد تضاعف المعاني وتعطى مصوتات اللفظة مادية لا تفسخ . ولا ترفض قراءات « القراء » المختلفة (ص ٥١) بسبب الالتزام بقاعدة قد تأتي على مستوى موضع العناصر في الجملة بل يتم اثباتها بالاحالة الى معنى وبناء .

وتزداد المسألة تعقيدا امام حالة يسميها الصرف التقليدي « العطف » وحيث يستند هذا العطف الى وجود عناصر او وظائف متشابهة يتحاشى تكرارها. وفي الكتاب لا تأتي هذه المسألة بأي عنصر جديد فهي معالجة كالباقي بالمنطق ذاته .

في مثال سيبويه (المثال الثامن) ضربت وضربني زيد ، كلمة زيد هي في الوقت عينه مفعول به للفعل الاول وفاعل للثاني . ان وجهة النظر التي تتوهم بوجود وظائف صرفية عند سيبويه يصعب عليها ان تفسر برهنته بغير الغلط .

سوف نحاول التحقق من استمرار عمل التماسك الذي وجدناه في الكتاب ، دون اي التواء .

يميز سيبويه بين مستويين مختلفين : مستوى « اللفظ » حيث الاسم زيد موضوع على صلة بالفعل الثاني لا غير ، ومستوى « المعنى » الذي تدرك

(١٧) تجدر المقارنة بقراءة « القارىء » التي تسرد معناها دون ارجاع الى أي معيار .

فيه علاقته بالفعل الاول . (ص ٧٣-٧٤) : « فالعامل في اللفظ احد الفاعلين واما في المعنى فقد يعلم ان الاول قد وقع » . (يعني وقوع الفعل على المفعول من جهة المعنى) .

علام تقوم هذه المعرفة المباشرة ؟ وقبل ذلك ، ما هي القواعد التي تعمل في هذه الحالة ؟

قاعدة اولى : ان الحركات الاعرابية ليست جمعية . لا يمكن ان يأتي الاسم مرفوعا ومنصوبا في آن معا (ص ٧٤) .

قاعدة ثانية : في حالة وجود امكانيتين فان الحركة الاعرابية تثبت حسب **اولوية** تقوم على **قرب الجوار** . **الفعل الاقرب** هو الذي سيفرض الحركة الاعرابية . لكن هذا يفترض اننا ندخل في الحساب قاعدة نعرفها سابقا وهي قاعدة لا تناقض المعنى (ص٧٤- «وانه لا ينقض المعنى») لكن هذه القواعد لا تفسر الا تثبيت الحركة الاعرابية ، بقي القول لماذا لم تتكرر كلمة زيد نفسها . يستخدم النص مفاهيم ذات علاقة بفاعل متكلم . ان الفاعل المجرد في المثال (المستخدم هنا كتوضيح) غالبا ما يشمل « العرب » . فهو يستدعي « معرفة سامع » مجرد يكشف قصد الفاعل ، اي المعنى . في هذه العلاقة تدخل فكرة الاستغناء (راجع آنفا العارض الثاني للعبارة) . انه فاعل المثال الذي يستغني عن قول كلمة باعتبار ان السامع على اطلاع مسبق . وترتكز هذه المعرفة على عناصر المقال الحقيقية (لا يقصد هنا حدس ما) وخاصة على وجود اسم سوف يدل على الحركة الاعرابية الثانية :

« فوضع في موضع الخبر لفظ الواحد لانه قد علم ان المخاطب سيستدل به على ان الآخرين في هذه الصفة » . لا ينبغي ان نعتقد اننا هنا امام علامة مستقلة قد تعني اشياء عديدة . في حالات عوارض « اللفظ » كانت القراءة تهتدي الى المعنى من جديد وذلك في اللفظ المحذوف ، اما هنا فهي مهتدية اليه في ما يبقى من هذا اللفظ . ومن ناحية اخرى فان الفعل يعني العمل ويبعد خطر الابهام (راجع الامثلة الاخرى ص ٧٦) .

ان فكرة « التجاور » ليست قاعدة مطلقة ، انها تعمل ضمن شبكة من القواعد تثبتها في معنى حاصر .

يباشر النص في فحص متغيرات عدة انطلاقا من مثل هو من نوع المثل

السابق فيدخل الضمير وينوع في الحركة الاعرابية . وتستدعي هذه المتغيرات نموذج لائحة التركبات ذاته المذكور اعلاه (الامثلة ١ الى ٤) .

لقد كان الاسم في الجملة الثامنة فاعلا للفعل الثاني ، والفعلان كانا يدلان على عملين معكوسين (ضربت) و (ضربني) زيد . ونظرا لاستمرار قاعدة التجاور في عملها فان قلب الفعلين يستتبع تغيرا في الحركة الاعرابية فتأتي كلمة زيد مفعولا به للفعل الثاني : (٩) ضربني وضربت زيدا . في حالة استعمال فاعل يكون بصيغة الجمع تنتج العملية المعاكسة جملة قبيحة اذا ما غيرنا في الحركة الاعرابية كما في زيد . لكن لنتبع تدرج الحالات في النص نفسه .

انطلاقا من جملة من النموذج (٨) ضربت وضربني قومك (١٠) ، هل من الممكن تغيير الحركة الاعرابية للاسم (من الرفع الى النصب) من غير ان نحرك مفردات الجملة : ضربت وضربني قومك (١١) . قد يصير الاسم هكذا مفعولا به للفعل الاول . وما يمنع حدوث حالة كهذه ليست قاعدة «التجاور» بل قاعدة الضمير وهي تصاغ على الشكل التالي : « الفعل قد يكون بغير مفعول ولا يكون بغير فاعل » (يكون اسما او ما يحل محل هذا الاخير) (ص ٧٩) .

هكذا ينبغي على المنصوب ان يدخل بالضرورة بدلا من الاسم فنحصل على : ضربت وضربوني قومك (١٢) . ونفهم بالمقابل ان المفرد (الحالة ٩) يحتوي ضمنا على فاعل في الفعل الثاني ويكون الشكل : ضربني وضربتهم قومك ـ مقبولا لدى ادخال ضمير آخر كبديل عن المفعول به ، لكن هناك تفضيلا بسيطا من ناحية قاعدة « الجوار » وهو وضع الفعل الاول وفاعله جنبا الى جنب : ضربني قومك وضربتهم (١٣) . هكذا اذن نرى كيف ان « البناء » هو الذي يتحكم دائما وذلك من منحرف الحركة الاعرابية اذ يدمج « التجاور » كعامل ثانوي .

يذكر سيبويه حالة الاسهاب (استعمال ضميرين : ضربوني وضربتهم قومك (١٤)) الا انها ، الى جانب عدم اغفالها في الحالات الضعيفة، مصححة على الشكل التالي : ضربوني وضربت قومك (١٥) .

وهكذا نستطيع ان نفهم استحالة تغيير الحركة الاعرابية (من الرفع الى النصب) عند قلب الفعلين ، اذ ينقص فاعل الفعل الاول .

لقد رتبنا الحالات في الجدول التالي حسب العوامل المختلفة (الموضع، البناء ، الضمير) للدلالة على ان النسق يعمل بترتيبات متوافقة مع المعنى . ان الضمير هو عنصر استبدال وحسب ولا يماثل مطلقا ضمير الفاعل او المفعول به .

الجـدول :

شكل تفضيلي	قاعدة البناء/الضمير	استبعاد (تنحية)	شكل قبيح
(١٠) ضربت وضربني قومك	(١٢) ضربت وضربوني قومك		(١١) ضربت وضربني قومك
(١٣) ضربني وضربتهم قومك او ضربني قومك وضربتهم	(١٥) ضربوني وضربت قومك		(١٤) ضربوني وضربتهم قومك
(١٦) ضربني وضربت قومك	(١٨) ضربوني وضربت قومك		(١٧) ضربني وضربت قومك

١ ــ القراءة عموديا : تظهر المقارنة بين السطر الاول والسطر الثالث ان موضع الفعلين لا يغير في الحركة الاعرابية ولا في ادراج الجملة في العمود (قارن بين ١٠ و١٦ ، وبين ١٢ و ١٨ وبين ١١ و ١٧) . والسطر الثاني قريب جدا من السطر الثالث، الفارق الوحيد يكمن في اضافة الضمير في(٣)و(١٤).

٢ ــ افقيا : ان الانتقال ، على كل خط من الحالة الاولى الى الحالتين الثانية والثالثة يستدعي قاعدة : البناء/الضمير ، كما ان تغيير الحركة

الاعرابية مرتبط باضافة الضمير ، وتكـون الجملة غير سليمة عند تجـاوز القاعدة .

يعمل الجدول على احداث فصل في قلب اللغة بين نماذج مختلفة مـن الجمل . والحالة (١٤) قد وردت رغم انها حالة خاصة الى حد ما ، ان غياب الضمير الكامل هو الذي تقره التنحية في (١١) و (١٧) .

ملاحظة

ان الجدول الذي رسمناه ليس فريدا ، فالكتاب بكامله يقوم في الواقع على اساس جداول صغيرة مرتبة الواحدة الى جانب الاخرى حسب نظـام محدد ، وكل منها يدور حول خط فاصل كذلك الذي استبعد الكلام القبيح من الكلام الحسن او الجيد . ولن نكثر من الامثلة لانها تخضع كلهـا للنسق ذاته . اما نظام ترتيب الجداول فيجب البحث عنه في الطريقة التي يتم بهـا التعرف الى وحدات المقال المختلفة .

د ــ مراتب « الكلمات »

نجد في الكتاب تقسيما لكلمات اللغة الى اصناف ثلاثة : اسم وفعل وحرف . البعض ذكر ان التقسيم موروث عن اليونان («Fleisch» ــ ص ٢٣، ــ ٢٤ ملاحظة ٢) واعتبروا بدهيا انه يعمل في معرفة كانت لا تزال غريبـة عنه . سنحاول من جانبنا معرفة ما تشمله فعلا تسميات الكلمات هذه ومـا دورها في تحليل اللغة عند سيبويه .

يبدأ سيبويه بمقطع يحدد فيه الاسم والفعل والحرف . وترد هـذه النماذج الثلاثة دائما مقرونة بنعوت لها هنا وظيفة خاصة وهي صلتها المباشرة بالحركة الاعرابية كما تسمح من ناحية ثانية باقامة مراتب بين الكلمات .

ويذكر للاسماء وللافعال عدة تشعيبات :

نموذجان من الاسماء : ١ ــ الاسماء المتمكنة ، ٢ ــ الاسماء غير المتمكنة (ص ــ ١٥) .

نموذجان من الافعال : ١ ــ الافعال المضارعة للأسماء ، ٢ ــ أفعال غير مضارعة .

ويتشعب النموذج الثاني الى نموذجين اذا اتت المضارعة تامة ام لا . ان المفهوم الذي يجيز الانتقال في مراتب الكلمات من « الاسم » الى «الفعل» هو المضارعة . بين النموذج الاول للاسم والنموذج الاول للفعل ينشأ تواز قائم على الحركة الاعرابية . وكلا النموذجين يستخدم الحركات الاعرابية المصوتة وعددها هنا اربع : الضم والفتح والكسر والوقف (١٨) . اما طريقة التعرف الى الصنف الاول من الافعال فلا صلة لها بوظيفة صرفية : المضارع هو الاسم الذي اضيف اليه اربع لواحق ممكنة (ص ــ ١٣) والفارق الوحيد بالنسبة للاسم يكمن في ان هذه الافعال لا تتبنى الحركة الاخيرة نفسها . يستطيع الاسم ان يأخذ الحركات الاعرابية الثلاث الاولى في حين ان الفعل يفتقد الكسر فيعوض عنه بالوقف . « وليس في الافعال المضارعة جر (١٩) **كما أنه** ليس في الاسماء جزم » (ص ــ ١٤ خط التأكيد منا) وميزة الجر انه يمكن الاسم من مضاعفة المصوت الاخير (التنوين) . ان البرهان التماثلي المستعمل في النص سوف يقرب الفعل من شكل خاص للاسم هو اسم الفاعل . فالتماثل يكمن اذن في امكانية قلب الفعل واسم الفاعل في الجمل التي تتحمل ذلك ، وفي استنتاج تقارب اكيد في طبيعة النموذجين . ومع ذلك ففي النص تأكيد واضح على ان الفعل لا يستطيع ان يشغل موضع الاسم (ص ١٤) .

ــ « لو وضعتها مواضع الاسماء لم يجز » .

ذلك ان التماثل الذي تبينه لفظة « كما » يرتكز الى تعاقب في المفردات يستطيع الفعل واسم الفاعل المثول في الجملة بعد الحروف نفسها (اللام والسين وسوف) . هناك اذن تمييز بين الموضع واللحاق . والفعل المضارع يرث شيئا من الاسم لكن ليس له صفات الاسم (التمكن) ولا موضعه في

---

(١٨) ان قواعد اللغة الحديثة تضع الحركة الاعرابية الرابعة جانبا لكن ليس في **الكتاب** أي تمييز بين الحركات .

(١٩) وليس ان يلحقها الجر باعتباره وظيفة .

الجملة ... ثم تأتي معالجة النموذج الثاني للاسم بعد معالجة الفعل المضارع، وتأتي بعد ذلك نماذج الافعال الاخرى واخيرا الحرف . المصوتات وحدها تشكل العنصر الفعال في الانتقال من نموذج الى آخر . فالاسم الاول موضوع في قمة المراتب طالما انه يجمع بمفرده الحركات الاعرابية الثلاث اي التحريك ، وتبقى الحركة الرابعة دليلا على الضعف . وكلما تدرجنا في مرتبة الكلمات ابتعدنا عن التماثل مع الاسم الاول حتى نصل الى الفعل الاخير الذي لا يعطي اي تماثل مطلقا (ص ١٧ : « لا تقع موقع المضارعة ») ، لقصور على الوقف .

لا موضع للحرف في هذا النسق ، وبالرغم من تمتعه بكل الحركات الاعرابية فانه لا يماثل اي حد في المراتب . اننا نستطيع دون شك ان نقدم فرضية تعبيره ثانويا في « بناء » الجملة اذ ان المتغيرات التي يقدمها يمكن ردها الى جمل ــ نماذج تنتجها الاصناف الاخرى للكلمات (انظر الجدول في الصفحة التالية) .

ان صلة المقارنة (اسم ــ فعل) تحكم ايضا دراسة تغيرات الصيغ مفرد ــ مثنى ــ جمع ومذكر ــ مؤنث . وستجد فروقات تصويت المفرد نفسها منقولة الى اطار فروقات اخرى متوافقة ، كما سيجري اسقاط الصوائت المعجمة على صوامت ضعيفة (ياء ، والف ، وواو) واسقاط تنوين الاسم على اضافة حرف النون . هذه الصلة الجديدة تقوي ازواج التعارض التي وصفت سابقا والتي تضم الاسم في الموقع الاول .

الاسم : أخف (+ أول) ؛ اشد تمكنا (+ تنوين) ؛ يستغني

الفعل : اثقل جزم لا بد منه

وتشكل الصلة الاخيرة نتيجة الصلتين الاخريين : يستطيع الاسم أن يستغني عن الفعل أما الفعل فلا يستطيع . وما نسميه نعتا لن يكون غير اسم يشابه الفعل («يضارع») فيصاب بسبب ذلك بنموذج الضعف عينه .

	رفع ضم	نصب فتح	جرّ كسر	جزم وقف	
١ - الأسماء المتمكّنة	+	+	+	−	+ التنوين
٢ - الافعال المضارعة	+	+	−	+	
٣ - الأسماء غير المتمكّنة	+	+	+	+	
٤ - الأفعال - المضارعة مضارعة ناقصة - التي " لا تقع موقع المعارضة	+			+	
٥ - الحرف	+	+	+	+	

هـ ـ تنظيم الجمل

سوف نحاول انطلاقا من بضعة أمثلة أن نلقي ضوءا على الطريقة التي ينتظم بها الكتاب . ولقد استطعنا ـ كما سبق ان بينا ـ معرفة قاعدة البناء ، اي محتوى الفقرات ، وهي تنتظم في جداول تدخل نسقا من القواعد البسيطة التي تنتج متغيرات جملة مطروحة في البداية ومختصرة في عنوان الفقرة . ان تسميات جديدة مثل فاعل ومفعول وغيرهما تظهر اعتبارا من

الصفحة (٣٣) . والقسم الذي يلي موضوع بمجمله تحت عنوان : «الفاعل»، كما ان اجزاء الجملة الثلاثة (الفعل والفاعل والمفعول) مرتبطة بمفهوم مركزي هو : التعدي وهو نوع من التخطي . فالفاعل محدد على الشكل التالي : « فاعل يتعداه فعله الى مفعول » . والتحديد يقتصر على الفاعل والمفعول فقط بينما يشكل الفعل جزءا من هذا التحديد . وهكذا ترد كل الحالات الممكنة : فاعل لا يتعداه فعله او يتعداه الى مفعول به واحد ، او اثنين، ومن ثم الى ثلاثة مفاعيل . وما قد نسميه «نائب فاعل» محدد كمفعول به لا يتعداه فعله ولا يتعداه فعل فاعل او يطاله . تطابق هذه الحالة الفاعل الذي يتعداه فعله الى مفعول به واحد لا غير ، اما في سائر الحالات فان التطابق يستمر بين « نائب الفاعل » « والفاعل » ، وهو يستند الى تماثل في المعنى ولا يأخذ في عين الاعتبار تغير الحركة الاخيرة في الانتقال من التعدي الى اللزوم . مرة اخرى نجد ان ما يحدد الفاعل والمفعول هما فقط الموضع والمعنى (حاضرا كان في الحركة الاعرابية الاخيرة ام لا) .

ومن ناحية ثانية نجد « الفاعل اللازم » مذكورا في الفقرة ذاتها التي تتناول « الفاعل الذي لا يتعداه فعله » (ص ٣٣ — ٣٤) على الرغم من الاعتراف بتماثله مع الفاعل الذي يتعداه مفعوله (ص ٤٢). ان هذا التنافر الظاهري يصلح في الواقع لتفسير حالة الرفع في « الفاعل اللازم » بتماثله مع « الفاعل المتعدي الاول » وليس لكلاهما مفعول به .

أما طبيعة المفعول به فسوف يوضحها صنف جديد هو اسم الفاعل. ان المقارنة بين جملة مركبة من فاعل ومفعولين وبين جملة مركبة من مفعول واسم فاعل تعطي الجملة الثانية في مظهر الاولى (ص ٤٤) والفرق بينهما يكمن في المعنى (انظر ص ٤٥) . ان للمفعول الثاني في الجملة الاولى واسم الفاعل في الجملة الثانية مدلولين مختلفين . في الحالة الاولى يعود كل مفعول الى شيء مختلف اما الحالة الثانية فالمقصود فيها هو الشيء عينه اي ان اسم الفاعل يدل على حالة مفعوله .

ليس من قبيل المصادفة ان يرد هذا المثال في هذا الموضع اذ ان اسم الفاعل ممثل بصفة ، فهو اسم مشابه للفعل ويأتي ترتيبه ثالثا في تسلسل الكلمات (راجع ما سبق) . وسيبويه ، بعد دراسته للجمل المحتوية على فاعل (اسم من النموذج الاول) وفعل ومفعول به واحد أو أكثر (من نموذج الفاعل نفسه) ، يستبدل اسما من النموذج الاول باسم من النموذج الثاني.

اما من ناحية الحركة الاعرابية ومن ناحية موضع الجملة فليس هناك اي تغيير . لذا فاننا نتوقع أن نجد الفعل ذاته مستبدلا بفعل من النموذج الثاني .

هذا ما يحدث فعلا رغم اننا لا نستطيع الجزم بأن الفعل « كان » هو من النموذج الثاني ويشير سيبويه الى أنه مختلف عن الفعل الى حد ما وان اعتبر كذلك (٢٠) .

وفي الواقع فان البرهنة ، تعمل من جديد بالمقارنات : أن الجملة المصدّرة ب « كان » قد تماثل جملة مركبة من فعل وفاعل ومفعول به . بل ، ان ل « كان » صلة بالزمن شأنها شأن الفعل . الفرق الوحيد ، وهو لا يختلف عن الحالة السابقة ، ناجم كذلك عن المعنى : يعود الاسمان الى الشيء ذاته . لكن ما يمنع المقاربة في هذا المجال يجيزها في مجال آخر مع نوع مختلف من الجمل المسماة جملا اسمية والمركبة من اسمين فقط (راجع الصفحة ٢٣) ، وهذا اول نوع من الجمل يذكره الكتاب ، وهو يجسد بشكل ما القاعدة التي تجيز استغناء اسم عن فعل وليس العكس . في هذه الجملة ، كما في الجملة المصدّرة ب « كان » ، من الضروري أن يسبق اسم معرّف اسما نكرة .

وننتقل من فعل « كان » الى سلسلة من الافعال مثل « ليس » ، « أن » ، و « ما » . بالرغم من كون « ما » بين الفعل والحرف (« وذلك الحرف ما » — ص ٥٧) فانها غير مميَّزة عن الفعل ، ولن يدخل عليها حرف الباء الا فيما بعد ، في جملة من نوع الجمل السابقة (ص ٦٦) . والجدير بالملاحظة في هذا المثال (ص ٦٦ — ٦٩) هو تحجيم دور «الحرف» الى حد اعتباره مجردا عن كل قيمة ، وحتى الحركة الاعرابية نفسها غير كافية لاقرار دور له . وذلك مرده الى أن **المعنى** لا يلحقه اي تأثير خاص فلا يتأثر اذا ذكر **الحرف** أم لا (ص ٦٧) .

وهكذا نكون قد بيّنا طابع تسلسل الكلمات العمال« opératoire »

---

(٢٠) تجدر الملاحظة بأن فعل « كان » يعالج وحده دون « يكون » اي المضارع . وهكذا فان سيبويه يحترم قاعدة الحركة الاعرابية للنموذج الثاني من الافعال بشكل افضل (راجع الجدول السابق) .

الذي ميزناه بتوسيعنا الائتلاث الكلاسيكي . وفي الفصل الذي يتناول « الفاعل » يتم الانتقال من جملة الى اخرى بواسطة استبدال لفظة باللفظة التي تليها في التسلسل لا غير . وهكذا ننتقل من منحرف اسم الفاعل (٢١) من الاسماء والافعال الاولية الى الحرف .

لكننا اذا لمسنا شيئا من التقدم والانتظام في تنظيم الجملة فهو لا يبلغ دقة المدونة في كتاب العين ولا سيما انه لا يتخطى كما يبدو مستوى الفقرات ، فالمتغيرات التي تكوّن تركيب الجمل الداخلي اكثر عددا مما لو كان الامر متعلقا بتركيب كلمات نظرية ، في هذه الحال كان يكفي وضع سلسلات تركيبات من خمس وعشرين صامتا في وحدات ثنائية، ثلاثية، رباعية وخماسية الجذر . اننا نجد اذن مخططا لرسم من هذا النموذج اذ يبدأ الكتاب في معالجة الجمل حسب التصميم التالي :

جملة مركبة من :

١ ــ اسم + اسم
٢ ــ فعل + اسم (فاعل) + مفعول به واحد او عدة مفاعيل) .

ان معالجة هذا الصنف من الجملة له طابع استنفاد أكيد (ص ٤١ : « واعلم أن هذه الافعال اذا انتهت الى ما ذكرت لك من المفعولين فلم يكن بعد ذلك متعدي ») .

٣ ــ فعل (كان) + اسم + اسم
ويعطى عن الفعل عدد من متغيراته (ص ٤٤ ــ ٤٦ و « أنّ » ص ٦٩ الى ٧٢) .

٤ ــ فعل (ليس) + اسم + حرف + اسم
٥ ــ فعل + فعل + اسم (ص ٧٣) .
والقسم الذي يبدأ بعد ذلك يدخل فكرة « التركيب » :

١ ــ فعل + اسم / أو / اسم + فعل (٢٢) . ومع ظهور الضمير

---

(٢١) يبقى النموذج الثالث للفعل والذي لا نجد له مثالا قبل الصفحة ــ ١٣٧ ــ .
(٢٢) يتمثل البناء في ترتب المفردات .

تدخل درجة جديدة من التعقيد اذ ينضاف الى الفعل ضمير ؛

٢ ـ جملتان متداخلتان : فعل + اسم + اسم + فعـل / او / اسم + فعل + اسم + فعل . ولكن التدرج يتوقف من جديد لصالحادخال ال التعريف على بداية جملة بناؤها كالحالة الاولى (اسم + فعل) .

وهكذا يتم ترتيب الكتـاب العـام حسب نظـام هش لان الوسائـل المستعملة تعتمد فقط على تقارب تعقل صلاتها بصيغة «الموضع» و «المعنى» (بناء) لا غير . بيد ان قاعدة البناء تبدو محكمة للغاية عند مستوى الفقرات . تعالج كل مقطع اشكال تركب العناصر في الجملة الواحدة وفقا للقواعـد التي حللناها وذلك بنتيجة الاشكال التي لا تخضع لهذه القواعد . وتظهر الفقرات المتعددة في الترتيب العمودي ، اي في اتجاه الجداول المبينـة في الاساس ، خاضعة لتماسك لا يستطيع ان يتحقق على المستوى الافقي . ان وجود نوع من استقلال المستوى العمودي بالنسبة للمستوى الافقـي يجيز المقارنـة بكتاب العين على نطاق واسع . لقد كانت «الكلمات المعجمية» في هذا الاخير مرتبة ومُنتَجة وفق مدونة (المستوى الافقي) لم تكن لها صلـة مبـاشرة بمحتوى « الفقرات » اي بالمشتقات (راجع طبيعة قوانين الاشتقاق) . أما في الكتاب فنجد عكس ذلك أن التماسك الاكبر للمستوى العمودي يعيـد توازن المستوى الافقي الذي نميز فيه رواسب ترتيب اي مقاطع متماسكة نوعا ما سرعان ما تبلغ حدود تعداد يختتمها .

قد راينا في ذلك استحالة انشاء نسق قَبْلي لترتيب الكلمات في قلب الجمل ، نسق قادر على تحديد نماذج جمـل انطلاقا من بضعـة متغيرات اساسية . تصطدم طريقة التركب هنا في كتاب العين بحـدين مختلفين . فمن ناحية اولى يمكن تركيب الجملة من عدد غير محدود من العناصر بعد العمل على اطالتها (فعل + اسم) باضافة مفعول ثم مفعولين فثلاثة مفاعيل ان الحد الذي تبلغه بسرعة يحملها بعد قليل على العودة الى الجملة الاولى لتعمل بشكل مختلف على الحاق فعل ثم الحاق جملة .

ومن ناحية اخرى ، ثمة نموذج تغير آخر يكمن في استبدال العناصر في الجمل مما يسمح بادغام نموذجي التغير فتؤخذ عدة جمل كقاعدة انطلاق. لكن الفرق بين كلمة نظرية وبين جملة ناجم عن كون استبدال كلمة بأخرى لا ينتج جملة بالضرورة ، من هنا فكرة « البناء » الذي يربط عناصر الجملـة

بقواعد المعنى . وعلاوة على ذلك ، لا يمكن ان يكون الاستبدال الا بعيداً عن الدقة نظرا لورود خمسة أصناف من الكلمات فقط دون فئات متميزة تسمح لها بمضاعفة التركبات .

٤ -

ان كتاب سيبويه ، مثل كتاب العين، يقوم بعمليات ترتيب بسيطة لكنها على درجة أعلى من التعقد . ويسمح طابعه التصنيفي بتجميع مبيّنات «énoncé» شفوية مقبولة واخرى غير مقبولة ، وذلك في جدول واحد . توضع المبينات في حيز مشترك ويهتدى اليها بمعايير قليلة نسبيا وسهلة الحفظ ترتبها على جانبي خط فاصل داخل التصنيف .

واذا كان الجدول يفترض مُسبقا التخلي عن جمل منعدمة المعنى فانه يعمل في داخله على احداث فصل هام بين (كلام حسن وكلام قبيح) وتمييزات طفيفة متعلقة بترتيب الكلمات التفاضلي في الجملة ويرتبط هذا التراتب بقواعد تبقى معيارية وان غير علمية ولا تحيط بكل ظاهرات الكلام، ويضع مقياسا حيث لم يكن هناك سوى مدونة غير مميزة ، او تجميعا لا يفرق بين الجمل (٢٣) . ان لعملية تراتب الحالات المختلفة هذه طابعا أساسيا آخر هو امتياز حاصل لبعض الحالات دون البعض الآخر ، وهيمنة شكل نتيجة لذلك .

واعادة تجميع جمل اللغة التي تقوم بها جداول الكتاب المؤلفة تتم بسيطرة احدى اللهجات على الاخرى . وهناك دائما بين الحالات المحللة في كل فقرة حالة منقولة الى الصف الاول من التصنيف يتطابق فيها «البناء» مع الحركة الاعرابية والموضع ، في حين تقاس سائر الحالات على الحالة الاولى اذا كان هناك تشابه في المعنى . وتحال بعض الاخطاء الصرفية (او ما قد نعتبره حاليا كذلك) الى الحالة الاولى وتفسر نسبة لها .

فما هو اتجاه هذه المركزية وهذه الهيمنة ؟ لا بد للاجابة على هذا

---

(٢٣) لسنا في معرض الحديث عن سيبويه بصفته قد « خلق » فروقات حيث لم تكن هناك فروقات بل انه بربطه الفوارق الموجودة بقواعد عمل على اسقاط الاولى في مراتب معينة .

السؤال من القاء نظرة على الواقع اللغوي في تلك الحقبة وعلى ميل اللهجات المحلية الى التوحد الذي يشكل كتاب سيبويه علامته . لقد شدد ج. فوك (J. Fück) «على ان كتاب سيبويه يظهر كيف تأسست قواعد اللغةالوطنية على العرف اللغوي عند البدو بطريقة مطلقة ، وهو يستند باستمرار الى « العرب » لدى تطرقه الى مسائل استخدام اللغة فيعود الى خصوصية لهجاتها المحلية ولا يتراجع عن تقدم لهجة الحجاز التي هي «الاولى والاقدم» (المرجع نفسه ــ ص ٤٤) . اذا صح ذلك ثبتت الفكرة القائلة بأن نشاط التصنيف هو خطوة هامة في تركز السلطة وهذه الخطوة اكثر تعقدا من اعمال تجميع الشعر والأخبار لأنها تقيم المراتب وتضع القواعد وتميّز ، الخ . . . الا انها تتكون في المجرى التاريخي الاول .

ومن ناحية اخرى يكون نموذج التركز هذا مؤشرا الى تفاوت حاصل، بقدر ما يأخذ على عاتقه قسما من المهام التي يتكفل بها جهاز الدولة القمعي (الجيش ، والقضاء ، . . .) . لا نقصد بقولنا أن هذا الجهاز قد قام بمهمته في التركز وانجزها خلال تلك الحقبة لكن تطورات الصراع الجديدة ضاعفت من مستويات الهجوم واستلزمت تدخلا معينا في اللغة الى جانب نماذج اخرى من التدخل . لقد حدثت بين حركة التمركز المتمثلة بفرض ترجمة وحيدة للقرآن قام بها الخليفة عثمان وبين نشاط التصنيف في النصف الثاني من القرن الثاني ، انتقال الصراع وتبعثره ضد السلطات المستقلة عن الدولة .

يفترض كتاب سيبويه اهمية الحركة الاعرابية الاخيرة لانه يمنحها حق اظهار « المعنى » في الجملة . وهكذا يستعيد عنصرا كان مأخوذا في نسق من المعارضات ليعالجه بطريقة مميّزة . بعد الفتح الاسلامي سرعان ما شهدت اللغة العربية تغيرات يسهل تسجيلها لأنها اصابت الضبط بالحركات نفسه (٢٤) . « في الثلث الاخير من القرن الاول ، أخذ ادخال عادات لغوية مابعد كلاسيكية تعود الى اللغة الشائعة ، في مجال العربية القديمة ابعادا بلغت حدا أصبح ممكنا معه سماع اغلاط لغوية حتى في الاوساط الاجتماعية العليا » (Fück ــ ص ٢٢) . ان استعمال الضبط بالحركات الصحيحة

---

(٢٤) حول الفترة التي اختفت فيها الحركات الاعرابية انظر وجهة نظر « فوك » ومناقشتها من قبل فلايش ، ص ٢٨١ .

هو الذي يرمز الى صحة الكلام . ولأن الحركة هي أول ما يطاله خطر الزوال في اللغة الشائعة فقد عوض عن ذلك باستعمال مفـرط لها : « ان حركـة الاعراب ليست في الغالب سوى تزيين باطل معـد لاضفاء طابع كلاسيكـي كاذب على نمط من التعبير ما بعد كلاسيكي من حيث شكله اللغوي الداخلي. والشكل اللغوي الداخلي هو الذي يقرر في بداية الامر طابع اللغة العربيـة الكلاسيكية الحقيقي . من هنـا صواب النظرية التي تعتبر ان التخلـي عن حركة الاعراب علامة اكيدة على لغة ما بعـد ـ كلاسيكية ، دون أن يكـون العكس صحيحا » (المرجع نفسه ، ص ٢) . سوف يصبح التحريك محور اكتساب من خلال القواعد . وهذا ما يصفه كتاب سيبويه (٢٥) وهو بذلك يتيح امكانية تعلم محرر من صلاته بالانتماء القبلي .

هذه هي الوظيفة الاساسية الثانية للكتاب . لانه مولود في قلب عملية استخراج المعرفة فهو يشارك في التمركز لكنه يؤسس في الوقت ذاته نموذجا جديدا من الممارسات : أ) فهو يعيد تجميع قراءات (او لهجات) مختلفة ، يدرجها ويصلها بقواعد ، ب) يجعل **تدريس** هذه القواعد ممكنا . وهكـذا يرافق التركز شكلا من احتكار المعرفة من خلال فرض تقنية معينة . معرفة التكلم صارت تستلزم الآن معرفة القواعد . هذا الميل حاضر على الاقل في نشاط الجدولة مع العلم ان هذه الاخيرة لم تأخذ في التطور الا خلال القرن الثالث .

يرسم هذا الشكل التنظيمي الحيّز الذي يجب ان تأخذ فيه مؤسسة تدريسية موضعها وان تترابط بادارة الدولة .

وهكذا نشهد خلال النصف الثاني من القرن الثاني للهجـرة تحولا في النشاط الادبي وفي اشكال التعليم ، كما نشهد نقلا لمركز الحياة الادبية من المربد الى المسجد (٢٦) . ويحدث في الوقت نفسه انفصال يتصاعد تدريجيا

---

(٢٥) « الى اي مدى مهدت صعوبات الحركة الاعرابية السبيل امام علم اللغة الناشيء . يشير الى ذلك المصطلح الذي صنف الظاهرات اللغوية دون اعتبار تنوع وظيفتهـا النحوية ، وذلك بطريقة خارجية تماما وفقا لحركة الكلمة الاخيـرة » Fück ـ العربية ـ ص ٩ .

(٢٦) هذا النقل ليس الا مؤشرا على التحولات البنيوية التي يجب تحليلها مـن حيـث صلتها بأجهزة الدولة .

بين بعض الوظائف الفكرية التي لم تكن مميزة في السابـق : فالكاتب (ولا نعنـي بذلك النمـوذج الفارسي للكـاتب بل المربي المُحتَقر في الامبراطورية البيزنطية (٢٧) يهوى في الرتبـة الدنيا ويـأخذ اجرا لقـاء تعليمـه الاولاد القراءة والكتابة والحساب ، ومنه تنتزع التمييزات الجديدة بين النحـاة وعلماء الدين ورجال القانون القابها الشريفـة . وهذه التمييزات تؤسس تدريسا يستطيع أن يُجهّز الادارة بالعنـاصر . لا بد من أن يُظهر تأريـخ مفصل كيف سمح ظهور ممارسات التدريس المنتظمة (مؤسسية الى حد ما) بدعم التمركز الاداري وبأي شكل ترابط هذا التدريس بالادارة وكوّن لها نمط اعادة انتاجها . يبدو انه لم توجـد مؤسسة تدريس في المجتمـع الساساني منفصلة عن الادارة ، التي ضمنها كانت تتم تهيئة الكتّاب (٢٨). ان السؤال المطروح بالنسبة للمجتمـع هو معرفة كيف تـم تأسيس الادارة العباسية وكيف ارتبطت أجهزتها الحكومية مباشرة باللغة (هذه أسئلـة لا نستطيع الاجابة عليها ضمن هذا الاطار) .

---

(٢٧) انظر : R. Guillaud - la vie scolaire à Byzance G. Lecomte-Sur : la vie scolaire à Byzance et dans l'Islam .

(٢٨) لا نجد مزيدا من التفاصيل عند Christensen- L'Iran sous les Sassanides.

الفصل الثالث

جداول أخرى للكلمات

يبدو المقال عند سيبويه والخليل منغلقا على ذاته وحائلا دون مطلق تمديد يتناوله . ومادته ، على وفرتها ، قابلة لأن تستنفد : فلا يتيح كتاب العين اضافة ، من حيث الكلمات كما لا يتيح كتاب سيبويه اضافة ما من حيث الجمل . اما على مستوى تجميع الكلمات فهناك حرية أكبر اذ يكفي الأخذ بعدد من الأنظمة الطبيعية لاعادة انشاء احصاءات كاملة ومنجزة .

لقد طرحت كثرة النتاجات المسماة « معجمية » مشكلة تعيينها في «أجناس» . عرضنا فيما سبق الصعوبات التي واجهتها حركة الاستشراق لدى محاولتها تصنيف هذه النتاجات واقامة علاقة منطقية فيما بينها . سوف نبيّن فيما يلي أن بعض هذه النتاجات التي تم ربطها بنشاط الفكر في التجميع الموضوعي (نسبة الى موضوع) تنتمي الى تشكل المعرفة نفسه الذي نجده في كتاب العين وكتاب سيبويه . وما يخدع في هذه النتاجات انها تبدو مؤسِّسة لمعرفة جديدة ، متنوعة ، ونقطة انطلاق لفروع متعددة. لكن لا يكفي القاء نظرة على الموضوعات في كتاب لعرض كيفية تكوّن المعرفة وكيفية ربطها الكلمات بالمعاني وبالاشياء . فالمعرفة تجد اسسها في غير الموضوع او المادة كما أن احصاء الكتب لا يكفي لاستخراج الروابط فيما بينها . لقد قيل في كتاب العين انه كان اعلى درجة في تنظيم اللغة العربية في الحقبة التي انتج فيها ، لكن ليس في المعرفة التي يطرحها اي تقدّم مرحلي ولا ما يثبت وجود مراحل في الانتظام . تمتزج في هذه المعرفة تعاقبات منتظمة ومكتملة جدا بأخرى اقل اكتمالا وانتظاما ، فليس هناك ارتقاء من لا نظام الى نظام متدرج بل استمرار من البداية الى النهاية في الشكل الذي يحكم المعرفة والذي تلتصق فيه الكلمة بالمعنى .

تختلف النتاجات التي سندرسها ، من اكثر النواحي سطحية ، عن النتاجين السابقين في ان موضوعها لا يعود يشمل واقعا لغويا بل اشياء

محددة ماديا ، منهـا « كتابا الخيل » لأبي عبيدة والاصمعي ، و « كتـاب النبات والشجر » ، و « تاريـخ العرب قبـل الاسلام » ، و « فحـولات الشعراء » للاصمعي . صار المقال اذن على صلة ما بالاشياء ويتوجب علينا تحديد هذه الصلـة الا ان نسق الاشارة الذي يسود المقـال يبقى حبيس صلة « اللفظ » « بالمعنى » . وتقتصر المعرفة على تفسير معنى الكلمـات في موضوع ما وعلى وضع مرادف او تفسير مقابل كل كلمة يعطي هذه الاخيرة معناها ... والصلة الوثيقـة بين اللفظ والمعنى لا تنقطـع أبدا كما أن هذه المؤلفات تبسط دون استمرار سلاسل كلمـات للتفسير فتشمـل النـاس والاشياء والحيوانات والنباتات ، مسمية الاقسام والانواع وواصفة الاعمال، الخ ... كل شيء عرضة للتسمية ، بدءا بالالوان المختلفـة للحصان حتى الاصوات واسماء الاصوات . هكذا يمكن ان يأخذ المعنى طابع تعيين الاقسام او المناطق او الانواع لا غير وذلك في اطار عرض منظم يجعلها ترد بالتتالي. قد يظهر المعنى في اكثر الاشكال وضوحا « كترجمة » للفظ الى مفـردات فارسية (١) وهذا يفترض كثرة استعماله وانتماءه الى لغة شائعة كسائـر المفردات المستخدمة في التعريف وهذه اللغة الشائعة تعارض لغة المدوّنات التي منها تستخرج « الالفاظ » أي القرآن والشعر . ثـم ان الشواهـد تستعيد وظيفتها التوضيحية اذ تعيد رسم « اللفظ » في شكل ينبغـي ان يصبح معه سهل المنـال ، وتعيين الاطـار او الكنز الـذي لا بد ان تغرف الكلمات منه دون غيره . تذكر الكلمات التي استعملها العرب لتسمية جانب من الخيل أو النبات لا غير .

لكن ما هي الصلات القائمة بين الكلمات والاشياء ؟ وكيف تتم المعرفة في معرفة كهذه ؟

عندما يعدد كتاب الخيل لأبي عبيدة اقسام الحصان وفق ترتيب يبدأ من الراس وينتهي بالذنب الا نجدنا أمام تشريح بدائي لكنه منظم بما فيـه الكفاية ليتمكن من توليد معرفة مكتملة ؟ وعندما توضع تمييزات بين عيوب الخيل الوراثية والعرضية الا نكون أمام علم أمراض يتكون ويشكل نقطـة انطلاق علم مقبـل . وان تأتي النباتات مجموعة وفقا للتوزيع الجغرافي ، اليس هذا وضع علاقة جيولوجيا التربة بنماذج النباتات .

(١) في كتاب النباتات والاشجار مثالان في الصفحة ٣٩ .

ان طابع التفسيرات الوصفي الذي يقابل « الألفاظ » يدعم الجانب التجريبي في هذه المعرفة فيوهم بأنه « ملتصق » نوعا ما بالاشياء ولا يغفل مظاهرها الفيزيائية مهما كانت .

ان وجهة النظر هذه تبدو وكأنها تدعونا للعثور على ترتيب للمعرفة يوافق نظام الاشياء وعلى أمانة كبيرة لما هو منظور . لكن النظر بالاضافة الى كونه غير بريء ، لا يلعب كالسمع ، اي دور أساسي في بنية هذه المعرفة ، وليس مرد ذلك الى ان النظر يميز بين المناطق ويسميها وفق بنية محددة للمنظور بل بالعكس لأن هناك أسماء يتم تعريفها وفق نهج هو نهج **تسمية** أكثر منه نهج **تحديد** . فالاسم ليس مفهوما لفئة واقعة ضمن نسق علائقي ، ان « فكرة » الاسم على صلة مباشرة به ولا تقيم علاقة ما بحقل مفهومي قابل لأن يدخل في بنية ، لأن الاسم يستطيع أن « يسمي » عيب حصان ، وصهيله ، ونموذجا في أوضاع وقوفه ، ولونا خاصا فيه الخ .. على حد سواء .

ان نشاط **التسمية** هذا الذي كان قد طبع كتاب العين يزداد وضوحا لدى معالجته لخصائص الحصان وعيوبه . وفي الواقع يبدو العيب متحققا في عجز فيزيائي في الحصان ويمكن التعرف اليه من علامات منظورة قد يجوبها النظر . فيبدو الجسم سنادا يتطعم بعلاقات زائدة . وأخيرا يبدو العيب حالة معارضة للحالة الطبيعية يتم التعرف اليه بصفته انحرافا ظاهرا . لكن لا شيء من هذا كله ينتمي الى معرفة القرن الثاني ، اذ ليس العيب على صلة بقاعدة او « بتفسير » يتناول اصله ولا باستشراف مستقبل قريب (موات او مرض محتمل ...) ولا بمطلق دواء ، وما اسميناه علامة العيب ليس سوى ظهور اسم العيب اي « معناه » الوحيد تقريبا . فاذا كان للحصان بياض في عينيه يكفي لبلوغ المعرفة **التعرف الى الاسم** الذي يعطي العيب . وبالعكس فان معرفة العيب الذي يغطيه اسم ما تعني القدرة على تعيين منطقة او صوت . ان المنظور والمسموع خاضعان لما يمكن تسميته .

ومن ناحية اخرى فقد تكون العلامات خادعة بمدى ما تأتي غير كاملة ولا تجيز التسمية بشكل صحيح . اذا كان الحصان مغطى بثياب تخفي بعض أقسامه (٢) كيف نتحاشى الخدعة اي كيف نتعرف الى العلامة التي

---

(٢) ابو عبيدة ، ص ٥٢ ــ ٥٣ .

ستسمح لنا بمعرفة ما اذا كانت فيه عيوب ام لا ، قد نخلط بين حصان بطيء وآخر سريع (يقوم بخطوات كبيرة) ، عندئذ تستطيع علامة اخرى ان تحل محل الاولى (٣) : وهي هنا قياس الخطوة (٤) . الا ان هذه العلامة ستحتفظ بموقع العلامة الاولى ذاته اي سيكون لها تطابق مباشر مع الاسم الذي يجب ان ينعت به الحصان . لم تعقل صلة العلامات فيما بينها ، فيكفي أن تسمح العلامة الجديدة بتصحيح تسمية خاطئة . والخطأ هنا هو في جهل تسمية العيب او الصفة بشكل صحيح كما ان النظر بشكل صحيح يعني القدرة على التسمية .

ولكن ما الذي يسمح للحصان وللشجرة في هذا النسق بأن يكوّنا مواضيع محددة ومميزة حتى يصبح المقال جائزاً (٥) . ومن ناحية اخرى فان الكتب تتشعب الى فصول متنوعة متعلقة بوجهات نظر مختلفة ، فما الذي يسمح بتمييز وجهات النظر هذه وبتجميعها في كتاب ؟

اننا نجد فيهذه الكتب تجميعا لفصول لا يمكن ردها الىفكرةمشتركة. يجمع كتاب الخيل لأبي عبيدة فصولا في : اهمية الحصان عند العرب ــ راي الجاهلية في الحصان ــ النداءات ــ اسماء أقسام الحصان ــ أسماء طيور مستعملة للخيل ــ العيوب ــ الصفات ــ الفرق بين الذكر والانثى ــ اسماء الاحصنة ــ الالوان . . . وكذلك الامر في كتاب الخيل للاصمعي ، فاننا نجد الاقسام ذاتها : صفات الحصان ــ عيوبه ــ الوانه ــ أسماء أحصنة امتلكها عرب ــ أما كتاب النبات والعرب فيقدم المخطط التالي : فصل في النباتات عامة ــ الاسماء الذكور ــ في الاسماء غير الذكور ــ في ما ينبت في الرمل ــ في السهل ــ الاشجار ــ أشجار الحجاز ــ جبال نجد . كيف كان تقريب وجهات النظر المتباينة ممكنا ؟ واذا كان نسق العلامة مشتركا بين كل هذه النتاجات بما في ذلك كتاب العين فلماذا لا يخضع

---

(٣) يستعمل هنا لفظة « يستدل » الواردة عند سيبويه (ص ٧٦) على صلة بمفهوم « الاستغناء » .

(٤) ابو عبيدة ، المرجع نفسه ، ص ٥٧ .

(٥) لقد وجدت بالتأكيد سلسلة من المؤلفات كتبها الاصمعي مثلا (انظر في : تاريخ العرب قبل الاسلام ص ش. ع) وذكرها من اتى بعده وتناولت هذه المؤلفات موضوعات متنوعة (كتاب اسماء الخمور ــ كتاب اصول الكلام ــ كتاب الالفاظ ــ كتاب الامثال..) لكننا لا نستطيع ان نقدم شيئا عن انتمائها الى تشكل المعرفة .

تنظيم الاقسام المتنوعة للضرورة المنطقيــة ذاتها التي فرضت نفسهــا على الخليل ؟

استطعنا ان نبين حدوث تفاوت في كتاب العين بين العلامة (الصلة بين « لفظ » / « معنى ») وبين المصطلحات ، وهذه لها تقريبا أصل آخر . لا تظهر دقة النظام فيه الا على المستوى الافقي ولا تتدخل في تنظيم محتــوى « أدوات التعريف » ، في حين ان ما تشترك فيــه مؤلفــات القرن الثــاني بمجملها انما هي الصلة المتضمنة في نهايــات الجدول لا غــير (راجــع فصل « جدول الكلمات ») . أن الاشتراك في حقــل واحد هو الذي يسمــح بأن تعقل في آن معا وحدة نتاجات متنوعة لا صلة ظاهرة في موضوعها (انه يعني باللغة والحيوانات والنباتات و « التاريخ ») وكذلك التقاء « وجهات نظر » مختلفة حول « موضوع » واحد في مؤلف واحد . لا يمكن التفكير مثــلا في مخطط كتاب العين من دون الرجوع الى تصور **التسمية** التي وحدها تسمح بفهم عملية ضم فصل في اسماء الالوان الى آخر فياصوات الخيل او صفاته. ان ما يختصره عنوان فصل ليس مطلقا موجز محتــواه المفهومــي ، بل انه الذريعة لاعادة تجميع للكلمات وحسب . اما اذا حذفنا العنــاوين واخذنــا فقط سلاسل الاسماء في تجميعها ، عند ذلك يختفي الطابع المضلل للمنهج كليا . يكفي تخيل شكل من التصنيف العمودي ، كل خط فيه يحتوي على « لفظ » وعلى « معنى » مع شاهد ، حتى نعثر من جديد على النسق ذاته الموجود في كتاب العين . وقد يختلف الانتقال في المخطط العمودي من خط لآخر لانه فيما يتعلق بكتاب الخيل لن يحتفظ الا بمعيار المعنى أو الموضوع (الالوان ، الصفات) في حين أن محور المجانسة («والاشتقاق») هو المهم في كتاب العين .

وعلى المستوى الذي سميناه أفقيــا (والمرتب بالنسبة لنــا حسب سماكة المجلد) نستطيع أن نواجه اعــادة تجميع السلاسل العموديــة اما حسب الصفحات او حسب اعمدة متقاربة ، يحتوى كل منها على مدخــل بالنسبة لكتاب العين ، وعلى « موضوع » بالنسبة للكتب الاخرى . وبينما تأتي الاعمدة في كتاب العين مجمعة وفق نسق دقيق من التركيبات فهي مرتبة في الكتب الاخرى في موضوع عام ، فنجد الموضوع : خيل او شجرة . .

هكذا نفهم التشابه وكذلك التباين بين هذه الكتب . يبقى أن نعرف ما الذي يقود في الكتاب عملية الترتيب في فصول مختلفة . من الممكن العثور

على اقسام مرتبطة ببعضها بصلة محددة ترجع الى تمييز لم يُعقل ولم يكن ليُعقل في قلب النسق نفسه : التمييز بين العصر الجاهلي والاسلامي ، عيوب / صفات ، ذكر / انثى ، الوان . . . ، وللنباتات : نباتات / اشجار ، سهل / جبل / صحراء (رمل) ، وللمناطق : الحجاز / نجد . لا نجد ترتيبات الفصول هذه مبنية في الكتاب . ومن ناحية اخرى فانها لا تجد اي موضع لها في نموذج المعرفة هذا ، انها ليست سوى اثار تمييزات مُنتجَة في مكان آخر ومُستعمَلة كما هي في قلب الكتاب . يستلزم تحديد طابعها كأثر اظهار كيفية تمفصل المقال على مستويات أخرى من الواقع .

لا نستطيع هنا الا ان تشير الى ان المزدوجات : جاهلي / اسلامي ، حجاز / نجد ، ذكر / انثى ، مثلا تعمل كأنماط ترتيب « اتفاقية » فقط اذ لا يُميِّز شيء في طبيعة النبتة عندما نحدد موقعها جغرافيا كما ان دراسة تشكل الخيل لا ترد بالمقارنة بين العصور . ويمكن الا تكون مزدوجة نجد / حجاز سوى اثر لتمييز اجتماعي حاصل على مستوى التجمع القبلي . . . واذا لم تشكل الفصول المختلفة وحدة مفهومية فيما بينها فان التجانس نفسه في موضوع الكتاب يتصدع ولا يتوصل الى تجميع الاجزاء الا من الخارج . ان المقال لا ينتج مفهوم حصان ولا مفهوم نبتة حتى ولو كانا موضوعي الكتاب الوحيدين ، وليس هناك من نسق استطرادي يربط الاقسام المختلفة بالموضوع . ولهذا الاخير دور عناوين الفصول نفسه ، انه ذريعة لترتيب الكلمات لكنها ذريعة خارجية في عملية الترتيب بقدر ما تكون وحدة موضوع « الخيل » معطاة وليست مبنية .

ينتج هذا الطابع اثرا شموليا واثرا استقلاليا . يكون الأثر شموليا بمدى ما تذكر كل الاسماء المتعلقة بالخيل وبما ان موضوع « الخيل » لا يستطيع أن يبني نظاما فلا يستطيع الشمول ان يندرج في مصطلحات من نموذج مصطلحات كتاب العين . ويكون الاثر استقلاليا بالمعنى الذي لا يشكل فيه كتاب الخيل قسما من علم حيوان ممكن وكتاب النبات قسما من علم نبات . انهما لا يشكلان مناطق او فروعا لمعرفة ما ، ولهما طابع الاكتفاء الخاص بالمعاجم الحالية التي هي ليست فرعا من المعرفة بل هي تستقي من كل العلوم دون تمييز .

قد يبقى أن نعرف كيف تظهر في الكتب هذه الموضوعات مثل الخيل والنبات ، الخ . . . سوف نقتصر على ذكر فرضية ممكنة بالنسبة للحصان:

يجب البحث عن تكون « فكرة » الخيل في المدى الاجتماعي دون شك . فقد تكون في حد أدنى ، نقطة التقاء مستويين من الممارسات ، قيمة الخيل التجارية هي المستوى الاول حيث ان التعليمات المذكورة في الفصل المتعلق بعيوب الخيل تسمح بأن يتعرف القارىء الى الجيد دون الرديء حتى يستطيع تقدير ثمنه (٦) وقد يتناول المستوى الثاني، والمتعلق بالاول، القيمة الحربية للخيل التي كانت اساسية الى حد خصص لها قسما من غنائم الحرب (حصة مساوية او مضاعفة لقيمة الفارس في حين ينال المحارب الراجل حصة واحدة فقط) (٧) .

وهكذا فمن المحتمل ان تكون فكرة الخيل اثرا لمختلف مستويات الواقع كما انتج كتاب عن الخمر انطلاقا من فكرة الخمر التي كوّنتها تحريمات أصابت استهلاكها .

اذا كانت هذه النتاجات تنتمي الى كتاب العين فلماذا لا تكون فيها ايضا قواعد تنحية / ادماج ؟

اننا دائما امام « جدول كلمات » لكنها مرتبة بشكل مختلف . الا ان ما كان ممكنا في كتاب العين لا يعود ممكنا هنا للاسباب التالية :

ــ لقد كان كتاب العين يقصد ان يجمع كلمات اللغة بمجملها فأعطى لنفسه وسائل لانشاء مدوّنة شمولية بالضرورة لانها منتجة بواسطة عدد محدود من تركبات الصوامت . وكتاب الخيل لا يخلو من مشروع الشمولية هذا لكن هذه الشمولية لا يمكن ان تتحقق من خلال مطلق تركيب يتناول عناصر بسيطة .

ــ ان كتاب العين ينتج في قلب « المقطع المعجمي » آثار التنحية / الادماج رابطا عدم وجود كلمة ما بقاعدة « اشتقاق » . لا شيء من هذا القبيل في كتاب الخيل ، فلا يستطيع عنوان الفصل أن يلعب دور العنصر البسيط الذي قد تضاف اليه عناصر أخرى بعدد محدود . ومع ذلك فان الاثر ذاته يعمل هنا ، فالكلمة غير المذكورة لا تلفظها اللغة بل موضوع الفصل الذي نكون بصدده .

---

(٦) ابو عبيدة ــ كتاب الخيل .

(٧) ابو يوسف ــ كتاب الخراج .

لقد كرسنا عرضا « اطول لكتاب الاصمعي تاريخ العرب قبل الاسلام لانه قد يبدو صعبا جدا تقديـم بيان هذا الكتاب على انه قسم مـن تشكّل المعرفة القائم في الكتب السابقـة ، أي على انه هو ايضا « جدول » وليس « تاريخا » .

ينظم الكتاب حسب تسلسل زمني ظاهريا قصصا متعلقة بملـوك او بزعماء عرب فيستهل بنسب العرق العربي الاسطوري ، قحطان ، ثم يسرد تسلسله النسبي في تعاقبات مستقلة تترابط الواحدة منها بالاخرى بعبارات محـددة .

ان تنظيم التعاقبات الداخلي يقدم بضعة مميزات : نجد بشكل ثـابت نصا فيه ابيات شعرية يلعب النص ازاءهـا دوراً مزدوجـا من التكامـل والاسهاب . فهو يعرّف بالقصيدة ويمطيها موضعا في الرواية بقالب تأتـي فيه الابيات على لسان الملك او القائد المفترض وذلك حتى في حال ذكر اسم الشاعر . البعد الزمني ملغى لان مناجاة صادرة عن شاعر متأخر تأتي عـلى لسان زعيم اسطوري لكن النص يضاعف القصيدة في الوقت نفسه فهو صورة لها ، ويعيد استخدام بعض كلماتها ، ويعيد « معناها » بتحريفه احيانا . . . انه يشرحها كما يشرح المعنى « اللفظ » .

هنـاك اذن في هذا التنظيم تشابـك شكلين مختلفين لتكوّن النص : احدهما هو من باب الجدولة ويلعب دورا اساسيا بقدر ما يكون قاعدة النسق اما الشكل الثاني الثانوي نسبيا فله دور في ترابط التعاقبات ويتعلق بشكل اساسي بنقل المعرفة في القبائل . فركيزته شخص الراوي الذي كـان يسرد ظروف النص وسياقه وتاريخ بطله ، وذلك قبل تلاوة الشعر .

التسلسل التاريخي

ان تاريخ العرب يحمل تاريخا اسطوريا كاملا يدور حول العرق العربي وتوحده ، وتشعبه الى مجموعات ، الخ . . . وهو يعيد التعاقبات في السلطة فلا يعني الا بتسميتها (تسلسل الزعماء العرب تاريخيا) وبالدلالة على طابعها النقلي ليس الا من المؤكد اننا نجد في النص احيانا آثار تغييرات طرات عـلى شبه الجزيرة العربية او اوضاعا اجتماعية مختلفة جدا تفترض مسبقا غياب الوحدة في هذه المنطقة او اوضاعا كان يجب ان تنتج ، من ناحية المبـدأ ،

تباينا في تاريخ القبائل المختلفة ، مثل : التحضير ، والانتاج الزراعي، وتوزيع الاراضي والعلاقة بين الارض والثروة ، وتنوع السلطة (الوظيفة الملكية والوظيفة الحربية مع اشارات كل منهما وعلاماته ...) لكن هذا التاريخ ظل صامتا ، موحدا ، متجانسا في تسلسله الزمني عندما تناول تاريخ زعماء القبائل فقد عقل سلطتهم على اساس وحدة اصلية او مستقبلية وان كانت مفتتة .

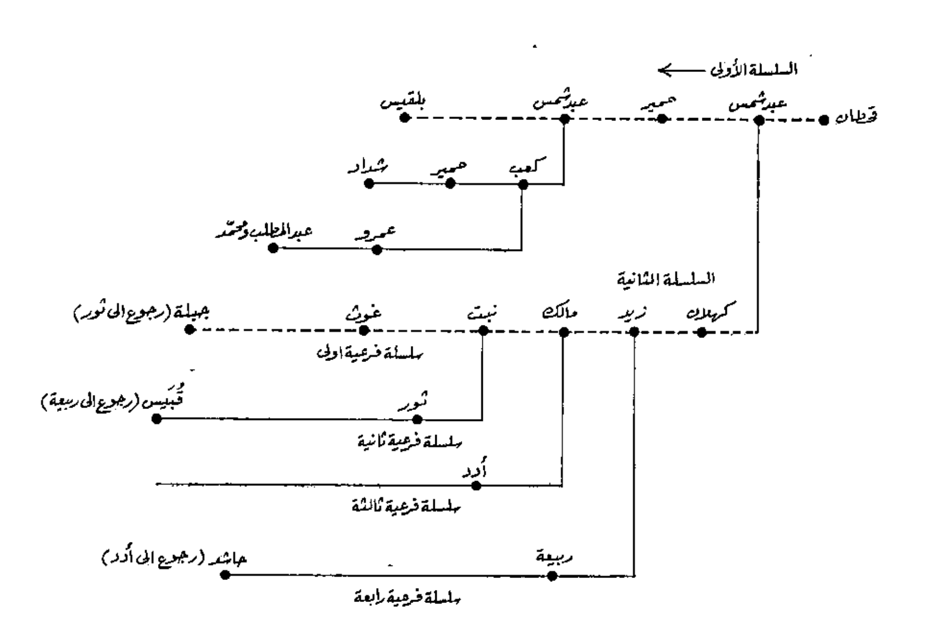
يبدا الكتاب ، في الواقع ، بفعل اول يوحد القبائل التي كانت تتنازع فقحطان هو الاصل في توحيد السلطة وفي نقلها اذ انه نظم ممارسة احتكارها. من هنا يبدأ التسلسل في الانساب فيمر أولا بيعرب او المرحلة المؤسسة الثانية على اعتبار انها اعطت اللغة العربية ليستمر في سير خطوطي حتى يصل الى عبد شمس (الثالث بعد قحطان) فيأتي بعده ، نسبان ، اولهما ، وهو الكبير ، يستولي على السلطة الملكية بدءا بحمير ، والآخر ، وهو الصغير يظل سندا للسلطة الى جانب احتفاظه ببعض الوظائف (حربية بنوع خاص) وممثله كهلان . وتجدر الملاحظة ان **التاريخ** يتخلى مؤقتا عن الفرع الصغير ليتبع الفرع الكبير وهو غير خطوطي لاننا نراه ينقسم مجددا مع عبد شمس ثان ثم تلحق به تشعبات يتزايد عددها الى ان نصل الى عبد المطلب والنبي (ان تاريخ الفرع الاول الذي يقودنا الى الاسلام يتوقف عند الصفحة ٥٦ فقط) . وهكذا يأتي التاريخ مغلقا « ودائريا »، فيعيد الاصل الاول (قحطان) الى اصل جديد (محمد) . وقد سبق مجيء النبي تدهور اخلاقي .

قد نجد هنا رسما عاما لاساطير لاحقة قد تحدث في الفترة التي تلت النبي ، تدهورات جديدة وتشعبات جديدة في الجماعة التي توحدت لفترة ما ، وتعطي املا في اعادة توحد ممكنة .

ثمة طابع آخر يطبع الفرع الثاني الذي يبدا مع كهلان ، فبدل التدهور الاخلاقي هناك تشتت مكاني . في حين لا نجد اشارة الى استقرار سلالة حمير جغرافيا في قلب شبه الجزيرة العربية نجد انها تشكل هنا ، الطبع الاساسي لسلالة كهلان . هناك وصف لابتعاد تدريجي بالنسبة للفرع الاول يتم في اتجاه مزدوج : من ناحية اولى سيمثل الفرع الاول مرجع كل مقطع من الفرع الثاني وسيكون من ناحية اخرى مركزا للتوزع المكاني المنتشر من الحجاز الى دمشق فالعراق ثم اليمن ، الخ ... ان طابع المرجع في الفرع

الاول يبرز وجهة نظر خاصة بسلطة مركزية تحجم تناثر القوى المستقلة فتجعل منه توزعا او مسافة بالنسبة لاصل ثابت (او لمركز جغرافي لم يرد ذكره هنا) .

وهكذا يرتبط اصل القبائل العربية المتنوعة بفرع اساسي بشكل او بآخر . وما يعجز عن تبيانه التسلسل التاريخي (وجود سلطة مركزية وخضوع سائر القبائل لها) يبينه التسلسل النسبي وفق فروع مستقلة .



نرى هكذا كيف يعود الكتاب الى كل تقسيم كبير بعد أن يفرغ من احد الفروع ، ولا مجال في هذا التنظيم لاي تسلسل تاريخي ، هناك فقط تطور في الترتيب وفق نظام قبلي لا زمني بل مكاني . يختلف ترابط التعاقبات المذكورة بعد الصفحة (٥٦) عن الترابط الاول بأنه اكثر تعقدا . فالاول يدخل مفهوم الوصية ، ولا تنتقل السلطة حسب قانون البكورية بل حسب بنوة غير محددة تدعمها حيازة الوصايا . وفي الواقع ، ان حيازة الوصايا او على

الارجح حفظها (والاحتفاظ بها) ضمانة لبقاء السلطة في ايدي النسل ذاته. الوصية الاولى هي التي تسلمها يعرب من ابيه وهي تقول بتحاشي الانقسامات ، وفيها خلاصة العمل الموحد الذي قاده قحطان بنفسه . ونجد مع يعرب بيانا طويلا من عشر وصايا توجز قوانين الحكم . ان وصية قحطان تأتي في الدرجة الثانية لمصلحة العلم الذي يلعب دورا هاما . ويقال ان العلم يجب ان يعرف ويتبع لكنه يكمن في الوصايا نفسها وهكذا ينعكس بيان الوصايا على نفسه ويذكر في داخله طبيعته كموضوع للمعرفة وصلته بالسلطة .

لا تتكرر الوصايا بعد يعرب بل جل ما يذكر هو نقلها وحفظها في الشعر. وينطلق ترابط التعاقبات من مفهوم الوصية وتكرار صيغتين : « بلغني ان (فلانا) قد اوصى ابنه (او ابناءه) » و « بلغني ان (فلانا) قد حفظ وصايا ابيه » .

اما النموذج الثاني فانه يترابط بشكل مزدوج : من ناحية اولى يأتي كالنموذج الاول اي ، يجب ان ترد المتسلسلات فيه موطدة من الداخل على الرغم من توزعها الى اثنين او ثلاثة او اربعة متسلسلات ، ومن ناحية اخرى يجب ان تطور متسلسلات الفرع الثاني في الوقت نفسه مرجعا للفرع الاول. وهكذا نحصل الى جانب الوصية على مفهوم تجديد الخضوع المشار اليه احيانا بلفظة « كتاب » (نوع من كتابة لها صفة العقد الى حد ما) .

مطلق عضو في المتسلسلة ينبغي ان يتبع الوصايا التي تركها والده وان يجدد خضوعه لعضو الفرع الاول المعاصر له . ان التوزع المكاني للقبائل هو من عمل الفرع الثاني الذي يستمر بفرض سلطته على الامكنة الجديدة التي يحتلها نسب جديد ، وهذه السلطة ليست خاصتها بل انتقلت بموجب المعاهدة الاصلية التي كانت تربط كهلان بحمير . وكذلك الحال بالنسبة للمناطق ، وللسكان الذين يقومون بفعل خضوع للفرع الاول عبر الفرع الثاني . يرافق فعل الطاعة هذا وعد بالاستمرار في اداء الضريبة المتوجبة للملك .



الخاتمة

الفصل الأول

تفسير القرآن

استطاع النشاط المعجمي ان يشمل على السواء حقولا مختلفة منتجا اثر شمول بالنسبة « لموضوع » محدد . لقد كان المقصود دائما تصنيف كل الكلمات (او الجمل) التي هي على علاقة بمشروع اولي . كما كان على بعض القواعد المذكورة ان تسمح بفعالية كبيرة في التصنيف الكلي تقريبا .

ومع القرآن تختلف المسألة قليلا فهو نص تام ومسيج من كل جوانبه ويقدم لنظر القارىء تسلسل السور والآيات وفق ترتيب لا يتغير . فهو يفرض بمعنى ما نظاما صريحا في القراءة يبدأ من السطر الاول حتى السطر الاخير دون رجوع الى الوراء . وهكذا يوشك التصنيف ان يفقد هنا طابعه كتجميع منظم لسلاسل كلمات لينحصر في كونه نموذجا للقراءة ونموذجا شموليا الى حد ما وذلك حسب عدد التوقفات على طول الاسطر . لم يعد القرآن كنزا من الكلمات يستقى منه وفق مدونة مبنية في مكان آخر بل هو نص تجب مضاعفته ، وحتى اذا صدر عنه كتاب آخر ، فهذا الاخير يفترض دائما النص الاولي الذي يؤسس نظامه ويسمح بتقريب تفسيرات ذات طبيعة مختلفة .

الا يزال عمل التصنيف فعالا هنا ؟ وهل ان نسق الاشارة لا يزال على حاله ؟ ان القرآن مدونة ترصف عددا هاما من « الالفاظ » يصعب حذف شيء منها لعدم وجود فواصل معروفة بين الكلمات والجمل الصغيرة . فالكتاب « يختار » « الفاظه » حسب ظهورها ويفسرها (يعطي « معنى » لها) . ومرة اخرى نجد المزدوجة « لفظ »/«معنى» التي كانت تؤسس الجدولة . السؤال المطروح هو معرفة ما اذا كانت الصلة التي تربط بين الحدين غير منفصمة واذا كانت تتيح مجالا للاحالة .

يذكر المؤلف تسعا وثلاثين حالة (ص ٨ الى ١٩) تشمل مختلف نماذج الصلة بين « اللفظ » و « المعنى » في حالة عدم وجود مطابقة مباشرة

بين الحدين ، وتنتمي هذه الحالات الى نموذج « العوارض » التي تلحق باللفظ والتي ميزها سيبويه ، وتعتبر كلها « جائزة » و « معروفة » . اما تعدادها في مستهل الكتاب فيسمح برد الامثلة الخاصة الى الحالات العامة دون بسط اسباب تشوه اللفظ . على التفسير ان يكتفي بذكر المعنى وعند الحاجة يعيد العبارة التي تؤديه على افضل وجه (١) .

ويقدم مجاز القرآن تعقدا اكبر في الصلة بين اللفظ والمعنى بسبب طبيعة اللفظ المتغيرة . ليست الكلمات وحدها مفسرة بل نجد ايضا حركات اعرابية أو جملا بكاملها عرضة للشرح . وبالنسبة للنموذج الذي يقدمه كتاب العين تظهر عدة نماذج من التفسيرات :

قد يقابل كلمة او جملة مرادف او تفسير لا يفسح مجالا امام بسط ما. تعيد فورية الصلة هذه انتاج المعادلة الدنيا المشتركة بين نتاجات اخرى وتقوي قرابتها ، كما ينضم المثال الى الشاهد الشعري (٢) في المعنى نفسه . ويدخل نموذج جديد يبدو ان اصله يعود الى كتاب سيبويه . في الصفحة (٢٢) يتعلق المثل بحركة اعرابية يفرض تفسير احالة الى اصل اللفظ المفترض. وهذا شكل مألوف من التفسير في **الكتاب** وليس غريبا عن الصلة « لفظ » / « معنى » (انظر سابقا) . ومع ذلك فان حالات اخرى تبدو غريبة عن اي نموذج مدروس سابقا وتقدم تعقدا اكبر في صلة « المعنى » « باللفظ » .

ان لفظة « القرآن » تفسح مجالا لتوسعات في هذا النموذج . ففي

---

(١) بضعة امثلة على حالات :
ـ استعمال لفظ مفرد عندما يكون المعنى اسما جمعا ، استعمال لفظ في صيغة الجمع عندما يكون المعنى مثنى ، يتبع الحدث احدى الكلمتين المعطوفتين في حين ان كلتاهما معنيتان الخ ...
ليس المقصود هنا حالات صرفية كما قد يبدو ، فالارجاع الى معيار او الى قاعدة يفترض حصول تجاوز لها لا يدخل مطلقا في التفسيرات . في وقت لاحق يصبح قياس النص القرآني بمعيار ممكنا وعندها يصبح ضروريا تبرير عدم موافقته لها . و « اللفظ » عند ابي عبيدة يظل « ملتصقا » بالمعنى بما فيه الكفاية . وان جاء محرفا او مشوها لذلك فلا حاجة لتفسيره .

(٢) امثلة : « لفظ » ومرادفه فقط (ص ٢٩ ـ « هدى ... » ، ومرادف ومثل (ص ٣٦ ـ نسبح ... ») ، ومرادف وشاهد (ص ٢٤ ـ « الصرط ... ») ، ومرادف ومثل وشاهد (ص ٢٣ ـ « الدّين ... ») .

التفسير تستدعى آيات مأخوذة من اماكن مختلفة في القرآن كما تستدعى ابيات شعرية . اما وضع هذه التوسعات فسوف يتغير بالنسبة الى ما كان عليه في كتاب العين مثلا .

ان « مدلول » الكلمة ليس مباشرا بل يحيل بالضرورة الىعدة مراجع. اولا يعطى تفسير يعادل مفردة « قرآن » (٣) ، الا انه يحتوي على معنيين متميزين لكنهما مترابطان . ومع ذلك من الممكن ان تكفي المعادلة ذاتها بذاتها فهي تتطلب تفسيرا له هنا معنى التقريب لا التوضيح كما هي حال الشاهد في كتاب العين . ان التفسير يقوم على سورة قرآنية : « ان علينا جمعه وقرءانه » (القرآن ، ١٧/٧٥) هذه السورة تقرب الكلمة المراد تفسيرها (قرآن) من احدى الكلمات الموجودة في التفسير . والذي يعطي المعنى هو الكناية «**métonymie**» لا الاستعارة «**métaphore**» كما كانت الحال حتى الآن (٤) . ان الكناية هي التي تقوم مقام التفسير .

كما انه يلعب من ناحية اخرى دور تكرار صلة التعادل : عندما تجمع الآية مفردتين تقربهما من حيث المعنى فتكرر هكذا ما كان قد اشار اليه التفسير بصفته يعادل القرآن . يختلف هذا النمط عنه في كتاب العين حيث كان للآية وللقصيدة وضع التفسير ذاته ، فكانا الحد الثاني له .

ولا يتوقف التفسير عند هذه الحد ، فالآية بذاتها تنتج جملة مبتدئة بلفظة « مجاز » (هذه اللفظة هي دليل التعادل في الصلة « لفظ » / «معنى») . هذه الجملة تأتي على تفاوت مع الآية وتكون الجناح الثاني للتفسير . انها تدخل لفظة جديدة ، « التأليف » ، جذرها الصوامتي (غير مذكور هنا) متعدد المعاني : فالتأليف هو « تأليف بعضه الى بعض » وهو مرادف لكلمة « يضمها » في الجملة الاولى ، في حين ان لفظة « الف » يُدخل عرضا جديدا . والانتقال الخفي من احد الجناسات اللفظية الى جناس آخر من دون ان يميز معناهما وكذلك دائرية البرهان هما على نقيض نمط تسلسل الاسماء والمعاني في كتاب العين وهو تسلسل يعمل على قطع تعاقبات المقال .

---

(٣) « لأنه يجمع السور ويضمها » .

(٤) ننقل هذين التعبيرين عن

R. Jakobson - Essai de linguistique générale . (ص ٦١)

يتم الانتقال بواسطة آية ثانيــة : « فاذا قرأناه أتبع قراءتــه » (١٨/٧٥) ومعناها المجازي : ألفنا منه شيئا . ثم يرد معنيان بعد كلمة « الفنا » يحال الاول الى جناسه بواسطة احدى مشتقات لفظة « يضم » : ، اما الثــاني فيؤكد المعنى الحقيقي مستشهدا ببيت من الشعر فيه كلمة قرا . وهكــذا نحصل على معنى جديد للفظة المراد تفسيرهــا ، معنى متكامــل في المعنى السابق .

بعد ذكر آية ثالثة يرد « معنى رابــع » : تلوت ، موضوع في تفسير يسترجع لفظة « تأليف » (رتب الواحد بعد الآخر ــ تلا الواحد بعد الآخر)، ويجيز الرجوع الى شكل مصحح للجملة الاولى التي كانت وردت : جمع الواحد الى الآخر (وضمها اضيف عبارة « الواحد الى الآخر » التي تشكل مقطعا سهل الاستطرادات ثلاث مرات) .

وعلى هذا النحو فان دائرية التفسير تثبت المعنى وتأخذ شكل تبرير له ، كأن صلة « لفظ » / « معنى » لم تعد تكفي . ومن ناحية اخرى فــان هــذا الشكل الجديد يحل بطريقة خاصة تعدد معاني الكلمات . وقد يكون النمط في مؤلف مثل كتاب العين ارتكز على ترتيب مختلف « معاني » لفظة « قرع » ترتيبا بسيطا : اما « المعاني » فهي مرتبطة هنا بقوة حتى عندما تبتعــد عن « اللفظ » الاولي ابتعاد « معنى » : قرع ، حبلى . وهكذا نطمئن الى غيــاب مطلق صدع من شأنه ان ينوع معاني (٥) كلمة قرآن وان يفسد طبيعتها .

ثمة طابع آخر يبرز في التفسير : يعوض عن عجز صــلة « اللفظ » / « معنى » برجوع ثابت الى القرآن واستطرادا الى الشعر . يبدو ضروريــا تفسير النص بالنص والعمل على احالة الآيات الى بعضها بعضا . ان النص المقدس وحده قادر على اجــلاء الشك الطفيف الذي تسرب بــين « اللفظ » و « المعنى » . ان هذا على الاقل دليل اتجاه استلزمه دون شك واقع نشاط الجدولة كونه يعمل على نص يعتبر مصدرا للمعنى (من قبل الفقه مثلا . .) .

لسنا هنا امام حالة هامشية اذ تتخطى تفسيرات اخرى احيانا رسم الجدولة فتغير وضع الشعر والقرآن . ويصبح كل منهما مصدرا للمــعنى

---

(٥) لاحظ هيمنة « معنى » لكلمة قرآن وهو وضع السور جنبا الى جنب . يشدد هكذا على طابع ترتيب القرآن المادي .

بمدى ما ينحصر كلاهما في صلة متناقضة ، فقد يحدث ان ترد كلمة فسرها بعضهم باشكال مختلفة ، ابو عبيدة مثلا يضع تفسيرين اولهما يخص بعض العرب اما الآخر فهو من صنع « العرب » (٦) .

يبدو الحق متعلقا بعمليتين هما القراءة والكتابة (ص ٢١) وهما اللتان تعطيان مثلا عنوان السورة الاولى : فهذه هي « أم الكتاب » لان بها تبدأ كتابة المصحف (الكلمة التي تشير الى القرآن كنص مكتوب لا تختلط بالكلمة التي تشير اليه بشكل مجرد وهي بالتالي أقرب الى القراءة ــ التلاوة) .

فالحق اذن غير متوفر تماما في النص القرآني او تحته بل في الصيغة التي قالها أو كتبها الاخصائيون وهكذا يجد كتاب ابي عبيدة نفسه مفارقا لمن يقول الحق ، فهو يكرر تقريبا أقوالهم أو كتاباتهم مثبتا اساسهم (مستندا الى القرآن والى الشعر) لكن دون أن يبني هذه الاقوال والكتابات . بهذا يقوم بعملية فصل ــ تحت غطاء التعارض بين العرب وبعض العرب ــ بين روايات النص العديدة ومختلف تفسيرات « الالفاظ » . يقع هذا الكتاب في مكان وسطي (حيادي) ، ومتميز ، وهو وسطي بمدى ما يربط اللفظ والمعنى على مستوى الوضوح المكتسب ، ولكنه متحيز بالنسبة لوجهة النظر التي تعتبر سائدة. وهذه بضعة امثلة من «التفسير». هناك حالات لا يفسر البيت الشعري فيها العبارة ولا يكرر المعنى ، ويستطيع ان يردد المعادلة كلها . ان تفسير لفظتي «رحمن» « ورحيم » في الصفحة (٢١) يحمل على التفكير بأنهما لفظتان لمعنى واحد . يرجع التفسير الى تماثل مع لفظتين من الشكل نفسه « ندمان » و « نديم » ثم يقدم عدة ابيات تبرهن على صحتها . مثال آخر حيث يردد البيت صلة التعادل بين اللفظ والمعنى مستخدما صيغة المجاز .

ان عدد الامثلة من هذا النموذج كاف لجعلها غير عرضية ، فهي تظهر فرقا بين نهجين في التفسير . نعثر في القاعدة دائما على الصلة ذاتها التي تحكم النتاجات التي استعرضناها . البدعة تكمن في ان هذه الصلة لا تعود ظاهرة في بعض الحالات وانها تحتاج الى ان تكرر بشكل من الاشكال . لقد تزعزع اذن وضع العلاقة ، ولكن هذا لا يعني مطلقا حدوث تحولات بين الفترة التي كتب فيها أبو عبيدة كتاب الخيل والفترة التي كتب فيها مجاز القرآن بل يعني ان

---

(٦) مجاز القرآن ، ص ٢٠ الى ٢٢ .

شروط الانتاج قـد اختلفت في كـلا الفترتـين . لقد كان من المـمكن انشاء متسلسلات الاسماء في كتاب العين على اساس علاقة ثابتة دون ان تطرح مشكلة تعدد المعاني . لكن ما ان يتعلق الامر بنص مثل القرآن حتى لا يحتفظ بتعدد المعاني الا في بعض الحالات (مثل ص ، ٩٦ ، لفظة « نبتهل » (٧)) وان تكون المعاني مرتبطة ببعضها كما في كلمة « قرآن » . ان الرهان مختلف الآن : لـم يعد المقصود معرفة معاني الكلمة المتعـددة وطرق استعمالها ، بل ان تتـم بمواجهة نص القرآن معرفة المعنى الوحيد لكلمة ما وفق السياق الذي تـأتي فيه . لم يعد الهدف استعمال الكلمة في جملة ، يكفي ان يكون الفهم سليما .

(٧) عندما تكون المعاني غريبة بشكل واضح عن مضمـون النص ولا يحتمل ان توقع فـي الغلط .

الفصل الثاني

علم دلالات جديد

ان اللحمة التي كانت موجودة في القرن الثالث للهجرة (١) بين « المعنى » و « اللفظ » سرعان ما زالت لتستبدل بنسق دلالات آخر . وعلم الدلالات الجديد المتحكم بتشكل المعرفة لم يعد مضمرا اذ لا يعقل هذا الوضع الذي انتهى اليه بفعل الحوار الصامت بين « اللفظ » و « معناه » . وبانفصال اللفظ عن المعنى اصبح هذان الاخيران متحررين واصبح كيانهما الخاص قابلا لان يعقل . لقد صار في استطاعة الدلالة ان تكون موضوعا لعمل فكر يطرح مشكلة مدلول اللفظة ، وهكذا يصير علم الدلالات ممكنا الآن .

لكن « المعنى » بانفصاله عن « اللفظ » يفقد حق التفرد بالتمثيل ، ففي وسعه الآن ان يقيم صلات اخرى وان يتسرب تحت علامات اخرى .

يحيطنا نص للجاحظ (٢) علما بان هنالك خمس دلالات مختلفة تقابل المعنى منها « اللفظ » . اما الدلالات الاخرى فهي مفسرة بشكل مطول ومرتبة وفق تدرج خاص .

نجد اذن الى جانب اللفظ ، الاشارة ، العقد ، الخط ، والحال (او النسبة) .

١ ــ اللفظ . اللفظ هو نتاج اداة محددة هي الصوت تطبعه بطابعين هامين : فصل الكلمات ووصلها . وغالبا ما يمزج بين اللفظ وبين البيان علما بان باقي العلامات يجب أن تشارك فيه ايضا من حيث المبدأ ، وفي هذا اعتراف بميزة اللفظ قد تقدمه على سائر اشكال الدلالة على المعنى فتسمح له بأن يكون الناقل المميز للعلم .

---

(١) وربما قبل ذلك بكثير ، اذ لا بد ان تكون المؤلفات الفقهية قد باشرت منذ القرن الثاني للهجرة برسم تشكل للمعرفة سوف يأخذ شكله الاخير فيما بعد .

(٢) في البيان والتبيين أ ٧٥/٨٣/ يشكل هذا النص بيانا بعلم الدلالات في تلك الفترة.

لذلك يجب فهم اوصاف البيان وصلاته بكلمات اخرى مثل المعرفة والعقل وغيرهما ..

والبيان موضوع في تعارض مع العي الذي هو في جوهره اضطراب او عيب في النطق . والعي قد يكون في استعمال حرف محل آخر او في تشويه التلفظ يكون مصدره تداخل لغة اخرى لا تتكيف مع العربية (٣) : احلال الثاء محل السين ، والطاء محل الكاف ، والياء او الكاف محل اللام والياء والغين والذال والضاد محل الراء . ان البيان ينتمي الى النظر في حين ان العي يقابل العمى ، وهنا يتطابق هذا التفرع الثنائي على تفرع آخر يقابل بين العلم والجهل .

٢ ـ الاشارة (٤) . وهي تقريبا الاشارة الى الشيء والدلالة عليه او على فكرة بمساعدة شيء آخر ، وتستعمل اليد والراس والعين والجفن والثوب والسيف ... حركة رفع السيف مثلا قد تعبر عن مدلولات مثل التهديد والانذار وغيرهما ..

ان ميزة الاشارة هي في انها تحقق الدلالة رغم المسافة ، من هنا ميزتها الاكيدة على اللفظ باعتبار ان التعيينات الاشارية مدركة من مسافة ابعد من التي يدرك بها الصوت . ينتج عن هذا امكانية حلولها محل علامة اخرى : يقول الجاحظ ان الاشارة قد تنوب عن التعبير الشفوي وتغني عن الكتابة ، كما انها تلعب ضمن اطار التداخل دورا خاصا عندما يقصد التعبير عن افكار بعض الناس مع حجبها عن البعض الآخر . انطلاقا من ذلك فان المعنى الذي تحمله ليس عاما (يقول الجاحظ : « معنى خاص الخاص ») .

لا يطول تفسير هذه العلاقة فترجع الى فرع آخر من المعرفة غير مذكور هنا . اذن لا مكان للاشارة في مؤلف الجاحظ هذا ، وهي لم تذكر الا كنمط للتعبير عن المعنى .

٣ ـ الخط . يحتل الخط مركزا بارزا في تدرج العلامات ، فله هنا المعنى المادي للتعبير الخطي (لم تستعمل كلمة الكتابة) ويستند الى اداة

---

(٣) انظر الامثلة في ا / من ٣٤ الى ٣٧ يذكر الجاحظ صوتا قريبا من (الشين) العربية.
(٤) المرجع نفسه ا / ٧٧ و ٧٨ .

مادية ايضا هي القلم . اما الآيات القرآنية الواردة (ان الاستشهاد بالقرآن في هذا المكان من النص امر ذو دلالة فانه يربط القلم بالمعرفة : يذكر النص ان القرآن يجب ان يقرأ لان الله علم الناس فيه (أو بالاحرى اعطاهم علمه) بواسطة القلم . وهذا الاخير لا يميز عن اللسان عضو التعبير : « القلم احد اللسانين » — ١/٧٩) .

وللتعبير الخطي ميزات تعطيه مركزا خاصا ان لم يكن اوليا . اولها واهمها : الاستمرار . ففي حين ان الكلام زائل فان التعبير الخطي يستطيع ان يستمر وان يقرأ في كل مكان وان يدرّس في كل الازمنة (١/٨٠) .

— تدل العمومية على تخطي المخاطبين المباشرين ، في حين ان الكلام او اللغة التي يتقبلها سامع ما لا تستطيع ان تتخطاه لتصل الى الآخرين فان التعبير الخطي متحرر من دائرة الاتصال المباشر . لا يطال الكلام الا شخصا مجاورا (يتعارض التجاور هنا مع بعد « الاشارة ») وحاضرا ، بينما يطال التعبير الخطي شخصا منظورا حاضرا كان ام غائبا . من وجهة النظر هذه نستطيع القول بزوال عصر النقل الشفوي الذي تناول القصائد او على الاقل بسقوط هذا النقل ولو ظل مستمرا رغم ذلك . ومع الجاحظ تصير سيطرة الخط الواضحة علامة المعنى المميزة .

— ثمة ميزة اخرى للتعبير الخطي ، نقيض الكلام ، هي في انه يمكن من تصحيح نص ما .

٤ — العقد . يقول الجاحظ ان العقد هو حساب تم بدون تعبير شفوي او خطي . من المحتمل ان يكون المقصود بذلك (٥) طريقة في العد بواسطة مفاصل الاصابع والتي نجد حولها رواية في فقرة من كتاب الخراج لابي يوسف بمناسبة تحصيل الخراج للنبي اذ يعترض سكان خيبر ضد المبالغة في تقدير ثمارهم فيعبرون عن ارقامهم بواسطة الاصابع (٦) .

(٥) لكلمة عقد عدة معان : « انشأ عقدا . او صاغه في الشكل المرسوم (...) او عمل آخر مثلا العمل الذي به يعترف بالحاكم اي البيعة (...) ؛ عد بواسطة مفاصل الاصابع. هذه الطريقة التي كانت تعرفها عدة شعوب في العصور القديمة معقدة جدا»
Dozy - Supplément aux dictionnaires arabes II , 247 B

(٦) ابو يوسف — المرجع نفسه .

ان ورود هذه الاشارة عند الجاحظ يطرح امام البحث عدة مشاكل . تفرض طبيعة العقد الا يجد مكانا له في الكتاب وربما ايضا في مطلق كتاب آخر من النموذج نفسه . واذا اعتمدنا على نص الجاحظ فاننا لا نستطيع كذلك ان نجد البنية التي تصل فيما بين الاشارات ، فتمايزها الجذري الذي يصل الى حد التنحية هو دليل على تنوع مواضع تكوّن هذه الدلالات . لكن في ما يتعلق بالعقد فمن المحتمل ان يكون العثور على اشكال تكونها في الممارسات اكثر منه في النصوص .

ومن ناحية اخرى يجب دون شك تمييز « العقد » عن شكل آخر من الحساب محكم الصلة بالكتابة تم انتاجه ضمن الادارة . لقد كانت الادارة مكان انتاج لمعرفة مؤسسة بكليتها على القياس وآثارها ملموسة في المؤلفات التي تتناول الخراج ، وفي كتب فقهية على حد سواء اذ ان القضاء لم يتميز أبدا ككل عن تحصيل الضريبة . وهكذا لا بد من التساؤل عن صلة « العقد » بمعرفة العد التي نلمس آثارها في قسم كبير من مؤلفات القرن الثالث للهجرة (٧) . ان التفسير الذي يقدمه الجاحظ للعقد ، والمرتكز تقريبا بكامله على آيات من القرآن يستخدم معنيي كلمة « حساب » المستعملة : العد والحساب في اليوم الآخر . وهكذا يقال ان الحساب مصدر سعادة في هذا العالم (منافع) وفي الآخرة . بفضل هذه المواربة ينضم « العقد » الى اشارتين هما اللفظ والتعبير الخطي ويستتبع فقد هذه الاشياء الثلاث فقد الحسنات والمنافع كلها (لا بد لنا هنا من التذكير بتقارب آخر مع تعليم الكاتب كما يصفه ابن صحنون (٨) والقابسي (٩) : ان اساسه هو ان يتعلم الولد القراءة — التلاوة ، والكتابة بالقلم ، والحساب) .

٥ — النصبة . يقال انها ما يعبر (عن المعنى) دون كلام وما يدل دون استخدام اليد ، كما لو ان الاداة التي كانت عاملة وراء كل الدلالات تصبح هنا عقيمة لان الصلة بين « الدال » و « المدلول عليه » تنشأ من تلقاء ذاتها . ولم يعد يعبر عن المعنى باشارة محددة ماديا ، فكل شيء عان « وذلك ظاهر في

---

(٧) فائدة نص ابي يوسف انه يشير الى مكان محتمل : اجهزة تحصيل الجزية على مستوى هذه الاجهزة ايّ في الاتصال المباشر مع الفلاحين لقياس الاراضي ولحساب الخراج .

(٨) ابن صحنون — **آداب المعلمين** .

(٩) القابسي — **احوال المتعلمين** .

خلق السموات والارض ، وفي كل صامت وناطق وجامد ونام ومقيم وظاعن وزائد وناقص . فالدلالة التي في الموات الجامد كالدلالة التي في الحيوان الناطق » (٨١/١) . ليس بوسعه ان يدل الا على قصد هو قصد الله . ان تعداد الجاحظ وكذلك الاستشهاد الذي يأتي به (٨١/١) يحيل مباشرة الى نصوص قانونية وفقهية وهذا ما نجده مثلا عند الشافعي (١٠) بشأن النجوم والسماء التي هي دلالات وضعت خصيصا لتعيين اتجاه مكة خلال الرحلات في الصحراء .

وختاما نستطيع ان نوجز الصلة الواضحة بين الدلالات المختلفة على الشكل التالي :

ـ يبدو اللفظ والتعبير الخطي اقرب الاشياء الى بعضهما بعضا ، فهما لا يتقاطعان بل يختلفان فقط من حيث امتدادهما (في الزمن وفي المكان) . وهذا ما يميز الاول عن الثاني .

ـ تستطيع الاشارة ان تحل محل الدلالتين الاولتين . أنها تختلف عنهما من حيث الابتماد وتخصيص المعنى .

ـ ان الحساب على حدة تقريبا ، ويتكوّن في مجال آخر .
ـ الدلالة الاخيرة تضمن وتشمل الاشارات كلها .

وهذه الاشارات تتعلق بالبيان الذي يهدف الى ابعادها لتكشف عن المعنى الذي تخفيه .

والبيان هو كل الوسائل التي نبين بها عن مرادنا ونوضح المعنى (١١) .
اما ضرورة هذه الطرق المختلفة في المقاربة فناجمة عن اختلاف موضع المعنى (او المعاني) . يتم تمييز مستويات عدة تخص امكنة انتاج المعاني عند الانسان ومرتبة وفق تدرج ينمو من اعمق مستوى في طبيعة الانسان الى المستوى الاكثر سطحية فيها . ويقابل كل مستوى (الفكر ، المخيلة ، الروح . . .) نمط نوعي من انطباع المعنى اي طريقة خاصة يكون فيها محجوبا يبلبل فيها الاتصال بالآخرين (الصديق ، الشقيق والرفيق) وبالذات . من واجب البيان اذن ان يكشف الحجاب عن المعنى . هكذا نرى الى اي مدى قد تحول تشكل المعرفة منذ الخليل وسيبويه حيث كان المعنى يعطى مباشرة ولم

---

(١٠) الشافعي ـ رسالة ص ٥ ـ .
(١١) الجاحظ ١ / ٧٦ .

يكن يتطلب طريقة او نهجا ما للوصول اليه . ومع الجاحظ لم يعد الـوصول الى المعنى في متناول الجميع ، فهو يتطلب الآن المرور بتقنية ما . وكمـا أن بنية الاشارة ، المستندة الى فصل بين العلاقة القديمة (اللفظ) وبين المعنى، كانت تسمح بوجود علم دلالات ، فهي تستتبع ايضا معرفة خاصة (نظرية) تعقل الانتقال من علاقة ما الى المعنى او على الاقل تعقل نموذج الصلـة التي تربطهما . ويجب ان تكون هذه المعرفة في الوقت نفسه موضوعا لتعليم خاص. وبالتالي فان البيان والتبيين يسمحان بالافصاح عن القصد وبفهم ما نقـول (١/١١) لكن البيان هو المميز عن التبيين اذ من الافضل ان نكون من يفهـم وكذلك من يعلم . العلاقة بين الفهم والتعليم ليست طارئة وذلك عندما يذكر النص في مكان لاحق ان اللفظ السيء عند الرجل يقابله سوء اللفظ عند الاولاد والنساء . نجد هنا سلسلة من التقابل يجب التعمق فيها .

نحـن نعلم ان تشبيه المراة بـالاولاد او العكس هـو واقعة قانونيـة بالتخصيص ، ولا يترك للاولاد من ناحية اخرى الا شكل خاص مـن التعليم هو شكل الكاتب الذي عليه ان يكتفي بتناول نص القرآن دون ان يتخطـاه ليصل الى القواعد مثلا : « لست ارى السماح ببيع دواوين شعرية أو كتب في قواعد اللغة او ابحاث مماثلة » (١٢) والفقه كذلـك محظور في المـدارس الصغيرة . اذن ، ان تلقين البيان الذي يشير الجاحظ اليه ، ليست له مطلـق صلة بتعليم الكاتب ، فيختلف محتواه عن هدفه وشكله كليا (١٣) . ونطـاقه محصور ايضا بالذين يسميهم الشافعي الخاصة تعارضا مع العامة . يقع على العامة تعلم الشعائر والفرائض الدينية (الصلوات ، الصوم ، دفع الزكـاة ، والمحرمات المتنوعة. . .) التي تشكلمعرفة موجودة حرفيا في كتابالله(١٤).

(١٢) ابن صحنون ـ المرجع نفسه .

(١٣) نشير الى مدرسة الكاتب هي التي يتعلم فيها المرء ، الى جانب الشعائر الدينية ، المبادىء الاولية في الخضوع للسلطة في حين ان التعليم الذي يذكره الجاحظ والذي كان يتم حتما في الجامع يحضر اقلية للوصول الى مراكز مختلفة في الادارة . وان ما كان يرتسم عند سيبويه يأخذ هنا شكلا تاما : بعد تأسيس قواعد اللغة صارت معرفة التكلم الجيد موضوع (ورهان) تعلم يؤدي الى المشاركة في السلطة .

(١٤) الشافعي ـ المرجع نفسه ، ص ٥٠ .

كتب المراجع

١ ـ النصوص العربية

- ابو عبيدة . **مجاز القرآن** القاهرة ١٩٥٥/١٣٨٤ ـ ٤٢٧ ص
كتاب الخيل . الهند ١٣٥٨ هـ . ١٩٦ ص .
- العسكري (ابو هلال) **كتاب الصناعتين** . الكتابة والشعر . القاهرة ١٩٥٢/١٣٧١ . ٥٢٨ ص .
- الاصمعي . **كتاب الخيل** . كتاب الخيل للاصمعي ـ حققه وراجعه اوغست هافنز . فيينا ١٨٩٥ ـ ٦٢ ص .
كتاب النبات والشجر. بيروت ـ المطبعة الكاثوليكية ١٨٩٨ـ٤٨ ص.
تاريخ العرب قبل الاسلام . بغداد ١٩٥٩/١٣٧٩ ـ ١٧٠ ص .
فحولات الشعراء . القاهرة ١٩٥٣/١٣٧٢ ـ ٩٨ ص .
- الفراء . **معاني القرآن** . القاهرة ١٩٥٥/١٣٧٤ : ٥٠٩ ص .
- ابن المقفع . **كتاب كليلة ودمنة** . مطبعة المعارف ـ مصر ١٩٤١
المؤلفات الكاملة : الادب الكبير والادب الصغير ، الدرات اليتيمات ، رسالة في الصحابة . بيروت مكتبة الحياة . ١٩٦٦ ـ ٣٨٤ ص .
- ابن سحنون . **آداب المعلمين** في « التربية في الاسلام » للاهواني . القاهرة ١٩٥٥ ص ٣٥١ الى ٣٦٧ .
- الجاحظ . **البيان والتبيين** القاهرة ١٩٦٨ ـ٤ اجزاء : ج ١ ـ ٤١٢ص، ج ٢ ـ ٣٦٦ ص ، ج ٣ ـ ٣٧٨ ص ، ج ٤ ـ ٣٩٨ ص .
- الخليل . **كتاب العين** . نشره عبدالله درويش بغداد ١٩٦٧/١٣٨٦ الجزء الاول ٣٦٨ ص .
- القابسي . **احوال المتعلمين** في « التربية في الاسلام » ص‌ص ٢٦٥ الى ٣٤٨ .
- سيبويه . **الكتاب** . نشره هارون . القاهرة . دار الكلام ١٩٦٦/١٣٨٥ جزءأن ٤٤٦+٤٥٢
- الشافعي . **رسالة بولاق** . القاهرة ١٩٠٣/١٣٢١ ـ ٨٠ ص .
- الشلقاني ـ **رواية اللغة** ـ القاهرة ١٩٧١ .

٢ ـ نصوص عن الاسلام (الوارد ذكرها)

BLACHERE (R.) : *Histoire de la littérature arabe,* des origines à la fin du XVe siècle de J.C.

Introduction au Coran. Paris. Berson et Chanternerle 1959.

CAHEN (C.) : *L'évolution de l'iqtâ'* du IXe au XIIIe siècle. Annales ESC. 1953. A Colin.

Mouvements populaires et autonomismes urbains dans l'Asie du Moyen Age. Paris. Arabica V et VI. (1958 — 1959).

FLEISCH (H.) : *Traité de Philologie arabe* (Traité). Beyrouth 161.

FUCK (J.) : *Arabia.* Traduit par Cl. Denizeau. Didier.

LAMBTON (A.) : *Landlord and Peasant in Persia.* Oxford University Press. London N.Y. Toronto. 1953.

LAMMENS (H.) : *Etudes sur le règne du Calife omaiyade Mo'awiya* 1er (Mo'âwiya 1er). Dans Mélanges de la Fac. orientale Saint-Joseph. 1906-08. Beyrouth. 1908.

Etudes sur le siècle des Omoyyades (le siècle des Omoyyades. Imprimerie Catholique. Beyrouth 1930.

LAOUST (H.) : *Les Schismes dans l'Islam* (Les Schismes). Payot 1965.

LECOMTE (G.) : *L'enseignement primaire* à Byzance et le kuttâb Arabica (1954) I.

L'article : *Falaqa,* par M. Canard, pp. 331-336.

MANTRAN (R.) : *L'expansion musulmane.* PUF 1969.

PELLAT (C.) : *Le milieu basrien et la formation de Jâhiz* (le milieu basrien...). Maisonneuve 1953.

POLIAK : *L'arabisation de l'Orient sémitique.* Dans la Revue des Etudes Islamiques. XII/1938.

RODINSON (M.) : *L'Arabie avant l'Islam.* Dans l'Histoire Universelle NRF Gallimard. 1957. t. II.

Islam et Capitalisme. Ed. du Seuil. 1966.

Mahomet. Ed .du Seuil 1968 (réédition de 1961).

SADIGHI (G.H.) : *Les mouvements religieux iraniens* (les mouvements iraniens) thèse. Paris 1938.

SCHACHT (J.) : *Esquisse d'une histoire du droit musulman* (Esquisse traduit par J. et F. Arin. Paris 1953.

SOURDEL (D.) : *Le Vizirat Abbaside* de 749 à 936 (132 à 324 H.) Damas. IFD. 1959-60, 2 volumes.

La civilisation de l'Islam classique. Avec J. Sourdel collection les Grandes Civilisations. Arthaud 1968.

TYAN (E.) : *Institutions du droit public musulman.* Recueil Sirey Beyrouth 1954.

WATT (M.) : *Mahomet à la Mecque.* (La Mecque). Traduit par F. Dourveil. Payot 1958.

Mahomet à Médine. (Médine). Traduit par M. Guillemi Payot 1959.

WIET (G.) : *Introduction à la littérature arabe.* Maisonneuve Larose 1966.

L'Islam dans l'Histoire Universelle. Pléiade.

٣ ــ نصوص عامة (الوارد ذكرها)

BARTHES (R.) : *Ecrivains, Intellectuels, Professeurs.* Dans Tel Quel. Automne 1971 no. 47.

BUTOR (M.) : *Répertoire II.* Ed. de Minuit 1959-63, 304 p. (le livre comme objet).

CHRISTENSEN (A.) : *L'Iran sous les Sassanides.* Annales du Musée Guimet T. XLVIII. Librairie Orientaliste Geuthner 1936.

DUBOIS (J.) : *Introduction à la lexicographie. Le dictionnaire avec* C. DUBOIS. (La lexicographie). Larousse 1971.

« Dictionnaire et discours didactique » dans Langages 19 Sept. 1970.

DUMEZIL (G.) : *Mythe et Epopée.* I. Gallimard 1968.

FEBVRE (L.) et MARTIN (H.J.) : *L'Apparition du Livre.* Evolution de l'humanité, Albin Michel 1958.

FEVRIER (J.) : *Histoire de l'écriture.* Payot 1959 2e édition.

FOUCAULT (M.) : *Préface* à la Grammaire Générale et Raisonnée. Republications Paulet 1969. XXVIII p.

Naissance de la clinique. PUF 1963.

GUILLAND (R.) : *La vie scolaire à Byzance.* Dans Bulletin de l'Association Guillaume Budé. Mars 1953.

JAKOBSON (R.) : *Essais de linguistique.* Traduit par N. Ruwet. Minuit 1963 (Points) 1968.

LEVI-STRAUSS (C.) : *La Pensée Sauvage.* Plon 1962.

MACHEREY (P.) : *Pour une théorie de la production littéraire.* Maspero 1966.

REY (A.) : « Un texte compromettant : le dictionnaire » dans Critique no. 273. Fév. 1970.

Typologie génétique des dictionnaires (Typologie). dans Langages 19. Sept. 70.

المصطلحات

دال	Signifiant
دلالة	Signe
سلسلة	Sériation
صنافة	Taxinomie
علم الدلالة ـ سيمولوجيا	Sémiologie
عمال	Opératoire
كتابة	Ecriture
كناية	Metonymie
لفاظة او علم الالفاظ	Lexicologie
لفاظية	Lexicologique
لقطة	Séquence
محددات	Définisseurs
مدلول عليه	Signifiant
مدونة	Nomenclature
مسألية	Problématique
مسبقات	Présupposés
معجمية	Lexicographie
مفهمة	Conceptualisation
مقال	Discours
نسق الدلالة	Système du signe
وحدات اللغة النحوية	Morphèmes
اتصال	Communication
ادلجة	Idéologisation
استعارة	Métaphore
اسهاب	Redondance
اشارة	Indication

Linguistique	ألسنية
Communicabilité	ايصال
Enoncé	بيان
Performance	تجلية
Superposition	تراكب
Combinaisons	تركبات
Simultanéité	تزامن
Configuration du savoir	تشكل المعرفة
Graphie	تعبير خطي
Règlementation	تقعيد
Institutionnalisation	تمأسس مأسسة
Compétence	جدارة
Décodage	حل الشفرة
Linéarité	خطوطية

المحتويات

« الدراسة الواردة في هذا الكتاب لا تعبر الا عن رأي مؤلفها »

هذه الدراسة

لم يأخذ الكتاب العربي الشكل الذي نعرفه الا في القرن الثالث الهجري . وقد سبقه نشاط كتابي لا يمكن فهمه الا في علاقته بعمل اعادة تنظيم الدولة الجديدة اثر الفتح الاسلامي .

تحاول الدراسة هذه تتبع خطين من خطوط المركزة :

١ ـ الخط الاول : سعت عناصر الادارتين البيزنطية والساسانية السابقتين الى وضع قواعد سلطة سياسية تضبط التحولات الجديدة في أطر اعتادتها . ويعبّر كتاب كليلة ودمنة في « لغته » الخاصة عن مطلب الكتّاب فيما يتعلق ب « المركز الثاني » أي بالسلطة والمعرفة .

٢ ـ الخط الثاني : وضع قواعد اللغة والكلام . اصبحت اللغة محورا اساسيا في القرن الثاني الهجري . فعمل استخراج الكلمات والجمل وتحليلها وتصنيفها حسب تشكل معرفي معين لم يتم بشكل بدهي او بهدف الحفاظ على اللغة . بل سعت عناصر الادارة الجديدة الى تفكيك صلة اللغة باللهجات (لهجات القبائل) والى ربط الكلام بقواعد عامة . فأصبح من الضروري معرفة القواعد للتكلم بشكل « حسن » (سيبويه) .

والنشاط اللغوي والمعجمي هذا كان جزءا من العمل على بناء جهاز دولة جديد (بمفهوم واسع تعمل الدراسة على تحديده) يضبط الولوج الى الادارة هو جهاز التعليم .

٦ ل ل او ٦٠٠ درهم ليبي او ما يعادلها